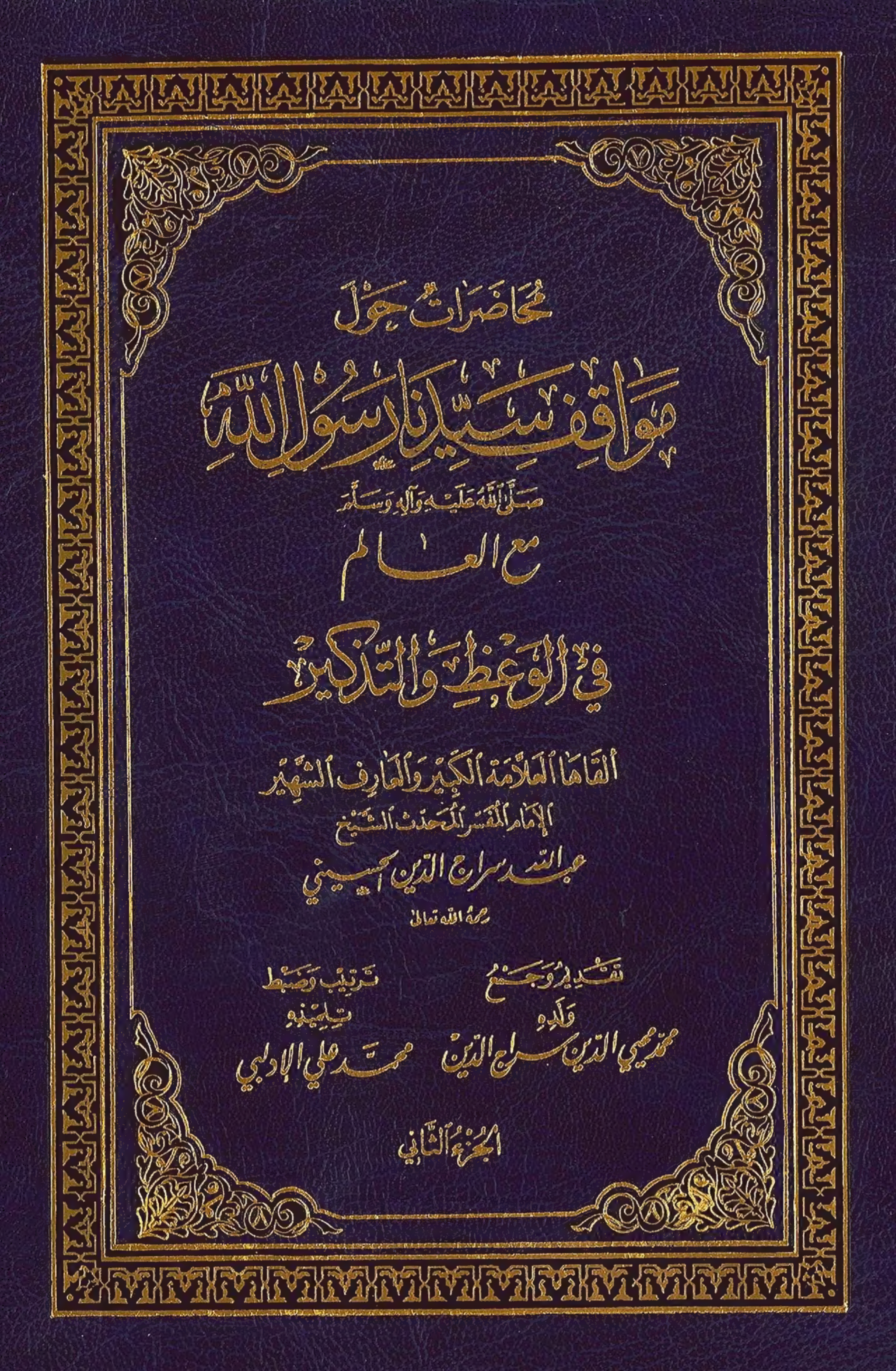


محاضرات حول
مواقف سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم
مع العالم
في الوعظ والتذكير
ألقاها العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام المفسر المحدث الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
رحمه الله تعالى
تقديم وجمع
ولده
محمد محيي الدين سراج الدين
ترتيب وضبط
تلميذه
محمد علي الادلبي
الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم

هب ثواب قراءتك لسورة الفاتحة

إلى العلامة الكبير والعارف الشهير

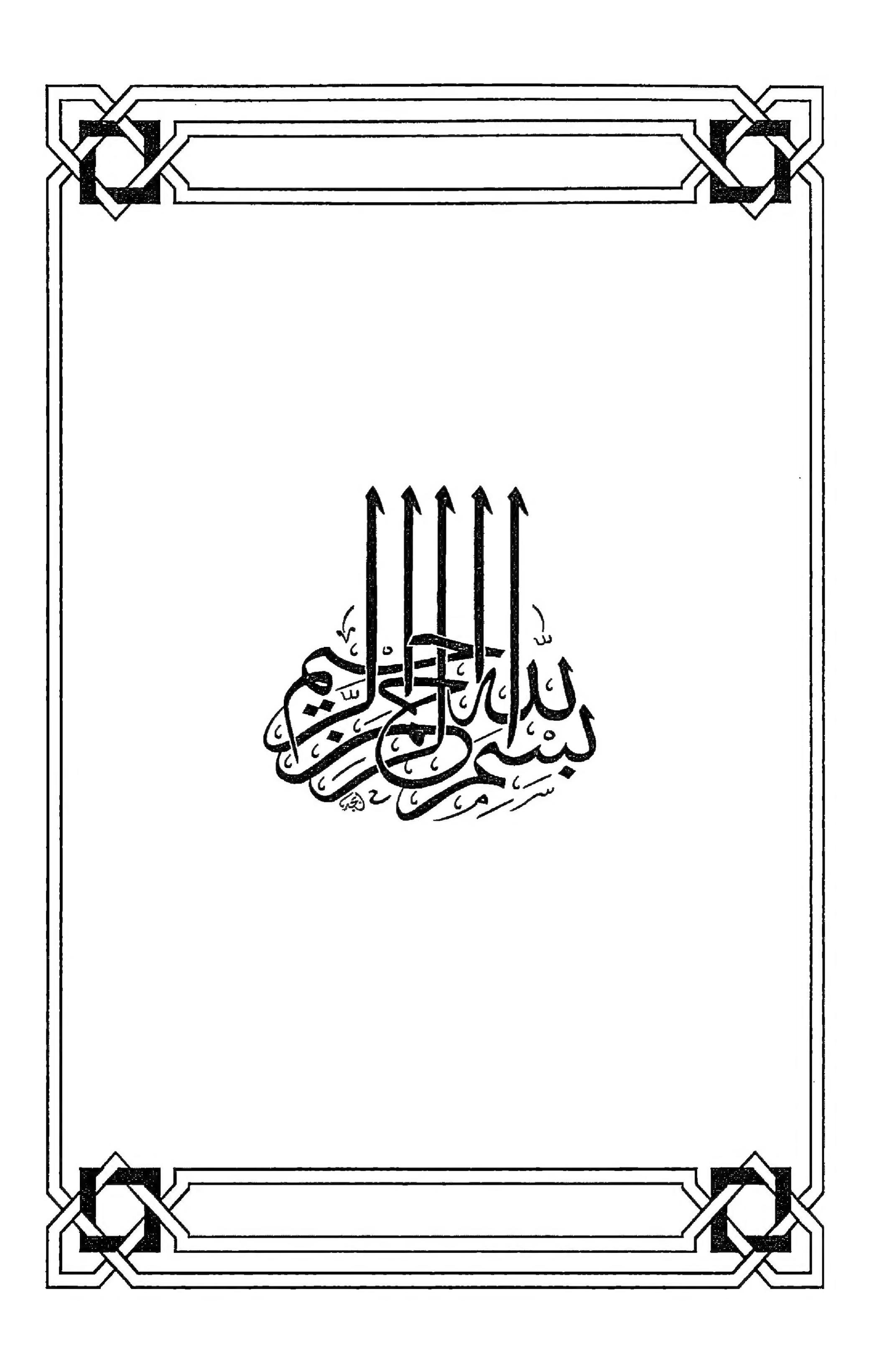
الإمام الحافظ المفسر المحدث

الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

كلما قرأت في كتاب من كتبه، أو سمعت بخبره

وجزاك الله خيرًا


بسم الله الرحمن الرحيم

مُحَاضَرَاتٌ حَوْلَ

مَوَاقِفِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

مع العالم

في الوعظ والتذكير

أَلْقَاهَا الْعَلَّامَةُ الْكَبِيرُ وَالْعَارِفُ الشَّهِيرُ

الإِمَامُ الْمُفَسِّرُ الْمُحَدِّثُ الشَّيْخُ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رحمهُ الله تعالى

تَقْدِيمُ وَجَمْعُ

وَلَدِهِ

محمد محيي الدين سراج الدين

تَرْتِيبُ وَضَبْطُ

تِلْمِيذِهِ

محمد علي الإدلبي

الجُزْءُ الثَّانِي

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

مطبعة الصباح

دمشق - هاتف ٢٢١٥١٠



الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإنّي أحمد الله تعالى أنْ وَفّقني لتقديم جزءٍ آخر من الآثار العلمية الطيبة المباركة، التي وَرَّثها مولانا الشيخ الإمام الوالد رضي الله عنه، ويتجلى ذلك في الكتاب الذي حوى مجموعة من المحاضرات، التي ألقاها شيخنا الإمام رضي الله عنه في جامع بانقوسا، الواقع في محلة باب الحديد، في مدينة حلب حرسها الله تعالى؛ وسائر بلاد المسلمين.

وقد كان لشيخنا الإمام رضي الله عنه درس في هذا الجامع بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة، بالإضافة إلى دُروسه الأخرى في الجامع الكبير، وجامع الحَمَوي وحلقاته العلمية في التفسير والحديث في مدرسة التعليم الشرعي، التي تعرف بـ المدرسة الشعبانية.

وكانت مدة الدرس في الجامع تزيد عن ساعة زمنية، يستغرق فيها الشيخ الإمام رضي الله عنه في البحث والبيان، وسرد الأدلة والبراهين من الكتاب والسنة، بأسلوب الإلقاء؛ دون أن يقرأ من كتاب أو صحيفة.

وكان قد تناول البحث حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم فترة قاربت عشرين سنة، وقد أطال وفصّل الكلام في ذلك، خاصة حول موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في تعليم الكتاب، وسيأتي ذكر ذلك في أجزاء أخرى من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وقد قَدَّمت في الجزء الأول من هذا الكتاب جملة واسعة من محاضرات شيخنا الإمام رضي الله عنه، حول موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في تلاوة آيات الله تعالى على العالم، وفي تزكية العالم، وفي تعليم الكتاب والحكمة، وفي موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في الدعوة إلى الله تعالى، وَأَنَّه صلى الله عليه وآله وسلم رَحْمَةُ الله الكبرى للعالمين في جميع العالمين، وأَنَّ الله تعالى أرسله سِراجاً منيراً، وإماماً وهادياً للعالمين إلى يوم الدين.

وإنّي قد جمعت ما يَسّره الله تعالى لي من محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم في الوعظ والتذكير، والتي كان شيخنا الإمام رضي الله عنه قد أتى على بيانها في دروس كثيرة لفترة طويلة، وقد أفاد وأجاد الكلام حول ذلك، مفصلاً بأدلة من الكتاب والسّنة.

وَبَيَّنَ أنواع الوعظ والتذكير، ومراتب كل منها، فهناك الوعظ والتذكير القرآني، وهناك الوعظ والتذكير المحمدي النبوي.

وبيَّن فضائل الوعظ والتذكير وأثرها في القلوب.

وفي هذا يقول سبحانه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

ويقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾.

فهناك التذكير القرآني بآيات الله تعالى، والتذكير بآلاء الله تعالى، والتذكير بأيام الله تعالى... وغيرها مما يجده القارئ الكريم في هذا الكتاب.

ولقد كانت دروس ومحاضرات شيخنا الإمام رضي الله عنه متسلسلة في الأبحاث والمواضيع، ولذلك كان يفتتح كل محاضرة بمقدمة جامعة يجمل فيها الكلام على ما تقدم بيانه في محاضراته السابقة مُفَصَّلا، وذلك حتى يتذكر السامع ويستجمع فكره، ويرتبط البحث بما قبله، فتنساب

العلوم إلى قلب السامع بأسلوب علمي سهل، مقبول لدى جميع طبقات الناس، على اختلاف درجاتهم في الفهم والعلم.

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يذكّر السامع أثناء محاضراته بأمور هامة كان قد ذكرها من قبل، وذلك لبيان أهميتها ومنزلتها في دين الله تعالى، وليس ذلك مِنْ قبيل الإعادة أو التكرار الذي لا فائدة منه، إذ قد يذكر الآية أو الحديث أو طرفاً منه عدة مرات حسب ما يقتضيه سياق البحث، ويتناول الكلام حول الموضوع ذاته في كل مرة من جانب ؛ ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد على كل ذي نباهة ورويّة.

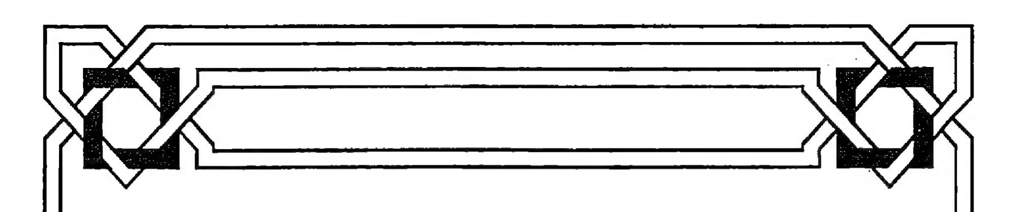
وإني أسأل الله العظيم رب العرش العظيم، بجاه نبيه ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذي الخلق العظيم، أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به أصناف العباد في آفاق البلاد إلى يوم المعاد، وأن يجعل ثواب ذلك في صحيفة حسنات مولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه، وأن يجعله نوراً في كتاب أعماله الواسع.

كما وأسأل الله تعالى القريب المجيب متوسّلاً إليه بالسيد الشفيع الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم، أن يرفع مقام والدنا وشيخنا الشيخ الإمام رضي الله عنه إلى أعلى المقامات، وأن يكرمه بأعلى المنازل والدرجات، وأنْ يجمعنا معه في زُمرةِ الأحباب في حضرة أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم آمين.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وكتبه

محمد محيي الدين سراج الدين



جملة محاضرات حول

الوعظ والتذكير القرآني

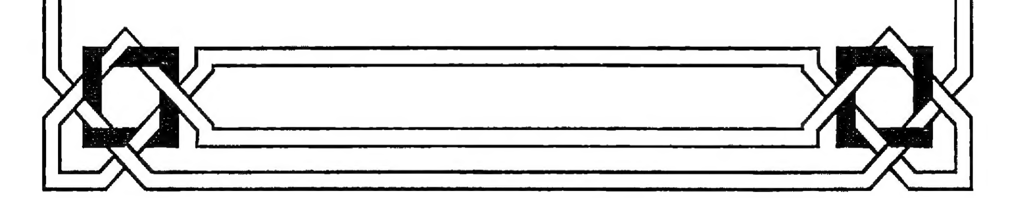
التذكير بآيات الله تعالى ـ التذكير بآلاء الله تعالى

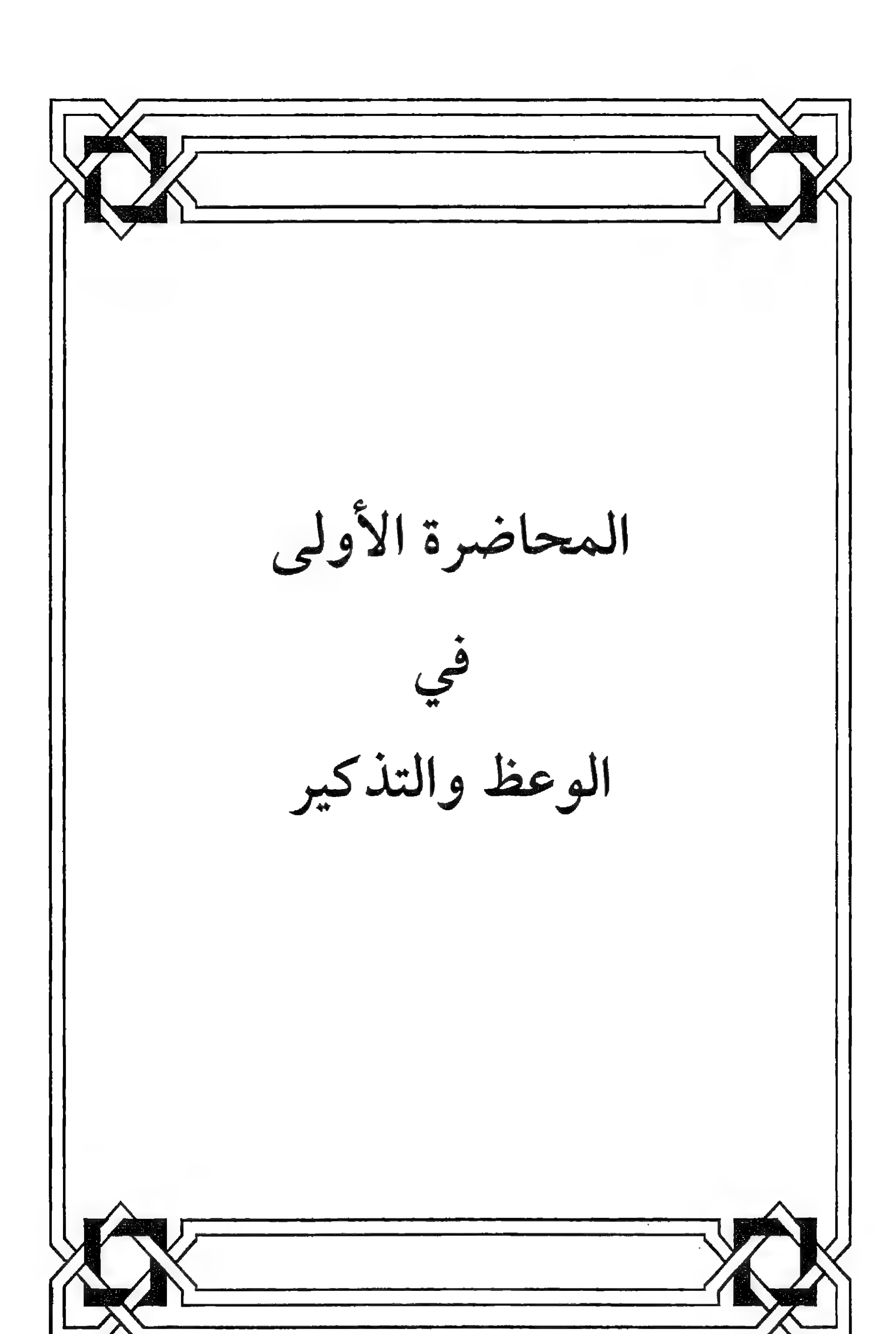
التذكير بأيام الله تعالى

ويليها محاضرات

حول بعض المواعظ القرآنية

والتذكير ببعض أسرار الصلاة * والصيام * والحج





المحاضرة الأولى

في

الوعظ والتذكير



إن الوعظ والتذكير من مواقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم ، لأن الله تعالى أرسل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وله مع العالم مواقف ؛ تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة، ومن هذه المواقف: المواقف الأربعة التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ومن جملة هذه المواقف موقف الوعظ والتذكير، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢٢].

ولقد وعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس وذكرهم بالقرآن وآيات القرآن قال سبحانه وتعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وهذا هو الوحي القرآني النازل عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

كما وعظ صلى الله عليه وآله وسلم وَذَكَّر بأحاديثه وبياناته صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الوحي النبوي الذي أوحاه الله تعالى إليه.

واعلم أيها المؤمن أنَّ كل موقف من هذه المواقف المحمدية يتطلب منك جواباً وموقفاً، وإنّ الله تعالى سوف يسأل كلَّ فرد من هذه الأمة عن

موقفه مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وماذا عمل بتزكيته ؟ وما عمل ببشائره صلى الله عليه وآله وسلم وماذا عمل بتعاليمه، وماذا عمل بمواعظه وتذكيره صلى الله عليه وآله وسلم، وماذا كان موقفه مع هذه المواقف التي وقفها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم، وبَلَّغهم رسالة الله تعالى، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وإن كل موقف وقفه صلى الله عليه وآله وسلم ـ من مواقفه التي جاء بها ـ وكل ما بَيَّنَهُ من المراتب إنما هي أمور تتوقف عليها مصالح العالم، وسوف يسأل الله تعالى العالمَ عنها.

فائدة الوعظ والتذكير :

إنّ للوعظ والتذكير أثراً كبيراً في النفوس، لا يستغني المؤمن عنها أبداً، وينتفع كل مؤمن على حسب المقام الذي هو فيه.

ومن فوائد الوعظ والتذكير وأثرهما على النفوس أنّه بهما تُقْهر المدارك الظلمانية بذكر الأنوار الربانية القدسية العالية، ويزول عن القلب ما فيه من ظلمات وغفلات وشهوات، ويحيىٰ هذا القلب بنور الوعظ والتذكي الإلهي ولذلك قال سبحانه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

وقال سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه: وَعَظَنَا رَسُول الله صلى

الله عليه وآله وسلم مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الدُمُوع [1].

وفي رواية [2]: وَمَضّت مِنْهَا الجُلُود ـ أي: تألمت حتى كادت أن تحترق من خشية الله سبحانه ـ.

* * * * *

(١) الحديث في (سنن) أبي داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة /٤٦٠٧/ (١٣/٥)، والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع /٢٦٧٨/ (٣١٩/٧) وهو الحديث الثامن والعشرون من أحاديث الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى.

(٢) في (مسند) الحارث بن أبي أسامة، باب اتباع سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم /٥٥/ (١٩٧/١).

أنـواع القلـوب
بالنسـبة للـوعظ والتـذكير

هناك القلب الذي يتمتع بالحياة الكاملة، وهناك القلب الحـيّ، ولكنـه يعاني من أمراض وأسقام، وهنـاك القلـب الميـت، المعُـرِضُ صـاحبُهُ عـن الحق، وفي هـذا يقـول سـبحانه في سـورة ﴿قٓ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾. والمعنى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾؛ ولكن مَنْ هُـوَ الـذي ينتفع بهـذه الـذكرى ؟ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلـب حـي سـليم. ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] وهو صـاحب القلـب الحـي؛ لكنـه مـريض سقيم بمرض من أمراض القلوب كالغفلة، ولكَي ينتفع صاحب هذا القلـب بالوعظ والتذكير، عليه أن يُلقي سمعه، أي: يتوجه بسـمعه ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر القلب.

فإذا أحضر قلبـه، وألقـى سمعـه أحيـاه الله تعـالى، وَسَـلِمَ قلبـه مـن المرض، أما مَنْ لم ينتفع بالتذكر والوعظ ؛ فقـد ألقـى سمعـه ولكـنَّ قلبـه غافل غير شهيد، أو حضر ولم يسمع.

أما مَنْ حَقَّـقَ الأمـرين فـلا بُـدَّ مِـنْ منفعتـه وصـلاحه، وشـفاء قلبـه من الأمراض.

وإنَّ للقلوب أمراضاً لا تُعالج إلا بالقرآن ومواعظه وتذكيره.

ومن جملة هذه الأمراض مـرض النفـاق، قـال سـبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِم

مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ [البقرة: ١٠] وقال سبحانه في مرض الشهوة: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وإن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: له قلب حَيٌّ سليم من الأمراض القلبية، وهو المراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ــ٨٩] والقلب السليم يقابله القلب السقيم بمرض من أمراض القلوب، كالشبهات والغفلات، فلَمّا يَرِدُ نور الوعظ والتذكير الإلهي إلى القلب الفطري الإيماني السليم، يستنير هذا القلب ويضيء حتى يَلتقي فيه نور على نور، وهذا القلب السليم هو المعنيُّ بقوله سبحانه: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: نور الإيمان في قلب عبده المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥] أي: التقىٰ نور الوحي المحمدي النازل من عند رب العالمين، على نورٍ إيماني فطري في قلب المؤمن، وصاحب هذا القلب هو صاحب القلب الحيِّ الذي قال فيه سبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] أي: بقلبه.

وإنّ صاحب هذا القلب يرى كل ما يرد عليه من جانب الحق يراه هو الحق، قال سبحانه: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

وتأمل في قوله سبحانه: ﴿وَيَرَى﴾ ولم يقل ويسمع، لأنهم يسمعون ويرون نور كلام الله النازل على القلوب، يرونه واضحاً حقاً، وفيه صار قلبه قلباً حياً سليماً، رأى نور الله تعالى، وذلك بأن تنكشف لصاحبه أنوار الذات وأنوار الصفات، وأنوار الشؤونات الإلهية.

أما انكشاف أنوار الذات لصاحب القلب السليم ففي هذا قال صلى الله عليه وآله وسلم في صاحب مقام الإحسان: «أَنْ تَعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ»[1] أي: تشهده ببصيرة قلبك كأنك تراه ببصرك.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاه، وكن في الدُّنيا كأَنَّك غَرِيْبٌ أو عَابِرُ سَبِيل»[2].

ولقد تحقق الصحابة الذين أوصاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعبدوا الله كأنهم يرونه، تحققوا بهذا المقام.

ومن هذا: لما كان ابن عمر رضي الله عنهما يعبد الله بطوافه حول الكعبة، ومرَّ رجل فسلم عليه ولم يردَّ، فشكاه إلى أبيه سيدنا عمر رضي الله عنه ـ لأنّ السلام حق إيماني ـ.

فقال ابن عمر لأبيه: يا أبت كنا نطوف حول الكعبة كنا نتراءى الله تعالى، وقد شَغَلنا ذلك، ولم نلتفت إلى غيره سبحانه.

فلقد انكشفت له الأنوار بالقلب، حتى كأنه يراها بعينه.

---

(١) طرف من حديث طويل رواه الإمام البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وآله وسلم /٥٠/ (١/١٤٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم في أول كتاب الإيمان /٩/ (١/١١٦) عن سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) الحديث في (المسند) للإمام أحمد (٢/١٣٢) وينظر (مجمع الزوائد) (٢/٤٠).

وأما انكشاف أنوار الصفات لصاحب القلب السليم فهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» أي: بمقتضى نور اسم الرقيب، وهو من صفاته سبحانه.

وأما انكشاف أنوار الشؤونات لصاحب القلب الحي السليم، فقد ورد عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما رواه الترمذي وأحمد[1] عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنه قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ـ أي: نحن الصحابة، قلنا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ: مَا لَنَا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا، وَزَهِدْنَا فِي الدُّنْيَا، وكنا من أهل الآخرة، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ آنَسْنَا أَهَالِينَا، وَشَمَمْنَا أَوْلاَدَنَا: أَنْكَرْنَا أَنْفُسَنَا. أي: تغير الحال معنا.

(رَقَّتْ قلوبنا): تلطفت، وإذا رقَّ الشيء انعكس فيه ما أمامه.

(وكنَّا من أهل الآخرة): أي: كأنهم يُعاينون أمور الآخرة. وهذا من باب انكشاف الشؤونات في المجالي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لَوْ أَنَّكُمْ تكونون إِذَا خَرَجْتُمْ من عندي، كُنْتُمْ عَلَى حَالكم ذلك لَصَافَحَتْكُم الْمَلاَئِكَةُ بأكفهم، ولَزَارَتْكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ».

قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّ خُلِقَ الْخَلْقُ؟ قَالَ: «مِنْ الْمَاءِ». وهو ماء الحياة الذي خلق الله منه الخلق.

فقلت: يا رسول الله الْجَنَّةُ مَا بِنَاؤُهَا؟

فقَالَ: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ ـ أي: من ذهب وفضة الجنة الباقي ـ

---

(١) السنن كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها /٢٥٢٨/ (٢١٠/٧)، و(المسند) (٣٠٤/٢).

وَمِلاَطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللؤلؤ وَالْيَاقُوتُ، وتُرْبَتُهَا ـ التي توطئ بالأقدام ـ الزَّعْفَرَانُ».

فما أعظم المؤمن عند ربه، وما أكرمه على الله سبحانه، حتى راح يطأ بقدمه تربة الجنة، التي هي الدر والياقوت والزعفران ؟!

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلاَ يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلاَ يَمُوتُ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُم ولاَ يَفْنَى شَبَابُهمُ» اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ » أي: أيَّ مظلوم كان؛ ولو كان فاسقاً «يرفعها الله فوق الغمام، وتُفتح لها أبواب السماء، ويقول سبحانه: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

وروى مسلم في (صحيحه)[1] عن حنظلة بن الربيع الأسَيِّدي رضي الله عنه، وكان من كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو أحد كُتَّاب الوحي ـ قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ لي: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟

قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ.

قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا تَقُولُ ؟!

فقَالَ حنظلة: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ عَافَسْنَا ـ خالطنا ـ الأَزْوَاجَ والأولاد وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيراً.

---

(١) في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة /٢٧٥٠/ (٥/٢٦٣١) وانظر: (سنن) الترمذي /٢٥١٦/ وابن ماجه /٤٢٣٩/.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: فوالله إنا لنلقى مِثْلَ هَذَا ـ أي: أنه يجد شيئاً مِنْ تغير الحال، لأنه أعلى في الرتبة والفضل ـ.

فَانْطَلَقَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ وذكرا له ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَده إنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ: لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثلاث مرات.

فلقد شهدوا ذلك، وانكشفت لهم هذه الأنوار، لأنهم في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو مجلس له شأنه وأحكامه وأسراره، كما أنّ قلوبهم قلوب حية سليمة، تنعكس فيها هذه الأنوار فتشهد ما شهدت، ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يذكر أصحابه ويعظهم، وهذا التذكير ليس للصحابة فحسب، وإنما للأمة كلها، وفي هذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يَتَخَوَّلُنَا بالموعِظَةِ كَراهِيَةَ السآمة علينا)[1] أي: يعظنا أياماً وأياماً حتى لا نمل ونسأم.

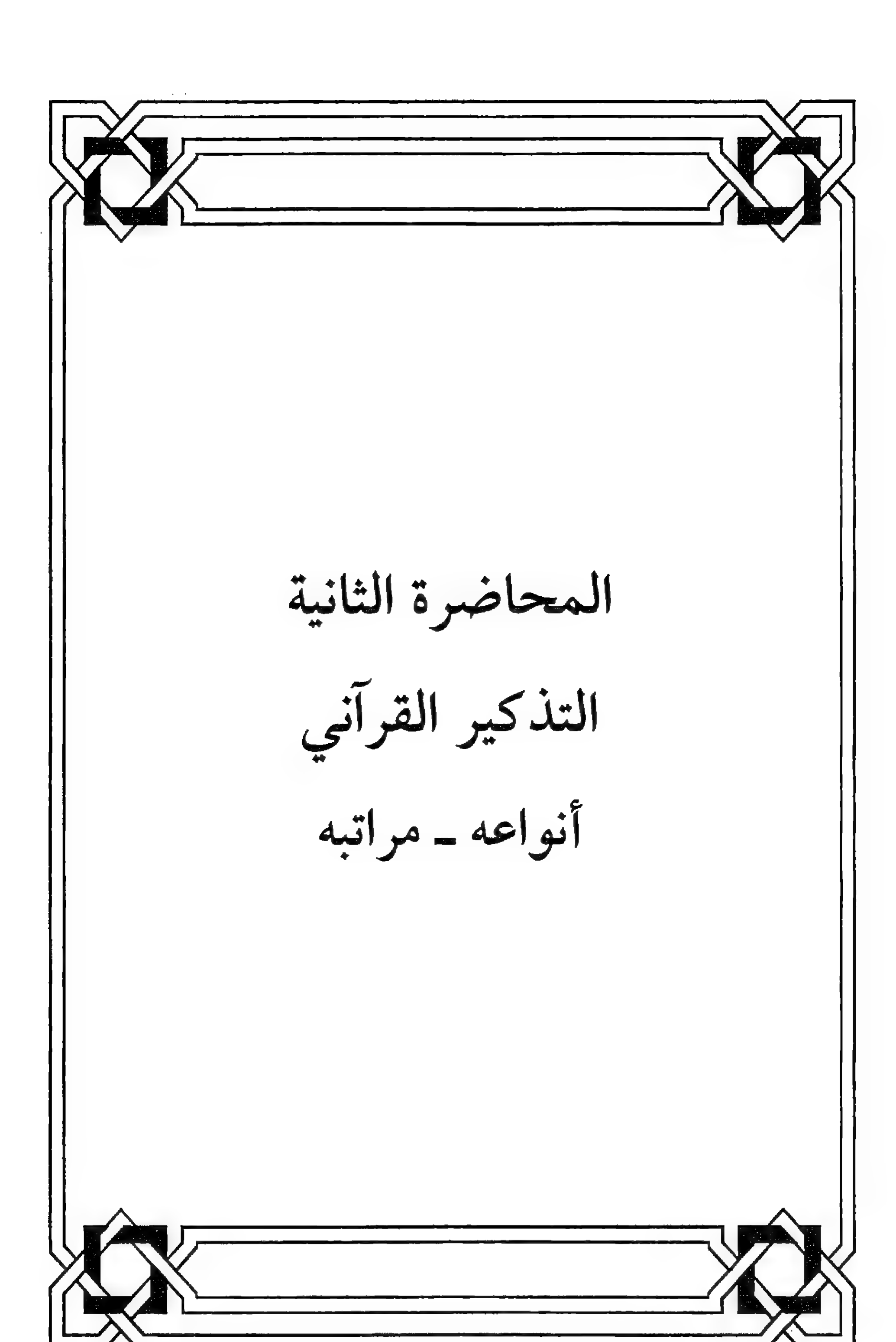
وهذا عملٌ بأمره سبحانه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

(١) كما في (المسند) (١/٤٢٧).



المحاضرة الثانية

التذكير القرآني

أنواعه ـ مراتبه

جاء في القرآن الكريم أنواع من التذكير وهي: التذكير بالله وكمالاته سبحانه، وهناك التذكير بآلاء الله ونعمه سبحانه، وهناك التذكير بأيام الله تعالى.

ولا بد للتذكير مِنْ نفع وفائدة لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وقوله سبحانه ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ٨].

فصاحب القلب المؤمن الحي يزداد يقيناً ومعرفة، وصاحب القلب الغافل يصير من أهل الشهود، وإذا كان القلب سقيماً صار سليماً.

والتذكر قد يُطلق على الذكر باللسان، أو الفكر بالجَنَان، وهذا الأخير هو المراد من التذكير.

التذكير بالله تعالى: وهو ما ورد في القرآن من آيات تذكر الإنسان بمقام رب العالمين، وبعظمة الله وكبريائه وجلاله، ورقابته على عباده سبحانه، وإحاطته بهم، وشهوده لهم.

أما التذكير بأيام الله تعالى : فهو التذكير بأيام عهوده ومواثيقه، ووعده، ووعيده، ونعمه، ونقمه. كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وفي هذا يقول سبحانه لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

وقال لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ومن جملة التذكير بالقرآن : التذكير بأيام الله، لأنه سبحانه يقول في القرآن: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾.

ومن جملة أيام الله تعالى: أيام المحن، وأيام المِنَح؛ من الأيام الماضية، والأيام الآتية.

وأيام المحن هي: أيام العقوبات الإلّهية لأعداء الله سبحانه، كقوم نوح وعاد وثمود.

وأيام المنح هي: أيام النعمة ورحمته سبحانه بأحبابه وأوليائه، إذ إنه سبحانه أهلك مَنْ كفر من قوم نوح عليه السلام؛ ونجى المؤمنين به، وكذلك موسى وإبراهيم عليهما السلام، ثم هناك أيام أخرى فهي أيام منح لأهل الفضل، وأيام مِحَنٍ وعقوبات للكفار والمشركين.

أما التذكير بآلاء الله تعالى: فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

فذكر أولاً سبحانه التذكير بالله فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١].

ثم ذكر التذكير بآلاء الله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مَنْ هُو الرزاق لكم؟ إنْ هو سبحانه أمسك المطر، وأقحط الأرض، فَمَنْ غَيْرُهُ يُنزل المطر ويُنْبِتُ الأرض؟ ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [النحل: ٦٤].

وفي هذا يتحدى الله عباده على أن يأتوا بخالق أو رازق لهم إنْ هُوَ مَنَع عنهم رزق السماء والأرض، فإذا عجزوا فليوقنوا أنه: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي: تُصرف عقولكم وأفكاركم.

ثم ذَكَّرَهُم سبحانه بأيام الله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

ثم ذَكَّرَهُم سبحانه به وبكمالاته فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] أي: أنتم الفقراء إلى الله فقراً ذاتياً اضطرارياً، فلو لا أنه أفاض عليكم الوجود لبقيتم في العدم، ثم أفاض عليكم الكمالات كالسمع والبصر والمدارك قال سبحانه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان]. فليذكر الإنسان ذلك بأن يعرف نفسه بالفقر، ويعرف ربه بالغنى، ويعرف نفسه بالعجز، ويعرف ربه بالقدرة.

ومن عرف نفسه بالفقر والضعف والعجز، عرف ربه بالغنى والقوة والعظمة ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

فهو سبحانه وحده ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ بذاته وكمالاته، ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾: وليس الله غني ذميم، وهذا تعريض بأهل الدنيا، إذ أنهم إذا اغتنوا أمسكوا حتى ذمهم الناس، إلا أن الله تعالى غني حميد، يحمد على نواله وعطائه سبحانه وتعالى.

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [فاطر: ١٦] أي: أنه سبحانه تفضل عليكم بنعمة الوجود فأوجدكم، إلا أنكم لا تملكون وجودكم، فهو سبحانه الذي تفضل عليكم بالإمداد بالوجود، و﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ بأن يقطع عنكم مدد الوجود، وليس هذا بالأمر الصعب عليه سبحانه، فقال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر: ١٧].

ولقد ذكر سبحانه في سورة ﴿قٓ﴾ أنواعاً من التذكير، فهناك التذكير بالله، وبآلاء الله، وبأيام الله تعالى وقال في آخرها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى القرآن كله، لأنه سبحانه افتتح هذه السورة بقوله: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

وقد بَيَّن سبحانه أن الذكرى تنفع المؤمنين فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فالتذكير يرقق القلب ويلطف الأفئدة، حتى تنكشف الحقائق عياناً لصاحب القلب الحي السليم، كما أنّ التذكير يُزيل الظلمات عن القلب السقيم، حتى تنعكس فيه الأنوار الربانية ليلتحق بصاحب القلب الحي ويرتقي في المقامات.

ولذلك افتتح سبحانه سورة ﴿قٓ﴾ بالقلب، ثم بَيَّن فيها وعظ القلب، وتذكير القلب، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

ومعنى ﴿قٓ﴾: قلب النبي عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم الذي نزل عليه القرآن المجيد، والذي فيه الاستعداد الخاص والقابلية لنزول هذا القرآن عليه.

فأقسم سبحانه بالقلب وهو: المنزل عليه، وأقسم بالنازل وهو: القرآن المجيد، لِمَا بينهما من المناسبة، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] دون غيره من القلوب، لقوة استعداده، وقابليته صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أنه لا بد للفاعل من قابل على التمام.

فلقد أقسم سبحانه بقلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبالقرآن المجيد النازل على هذا القلب الزكي النقي الطاهر، ثم أفاض على القلوب من قلبه الشريف، دون أن يَغيض ما فيه. وهذا ما يعرف بالنور المفاض، كما تَمتد الشمس على الجدران والأسطحة دون أن ينقص من نورها شيئاً، إذ أن نورها ليس بالنور المنفصل كتطاير الشرار مثلاً.

وإن فواتح السور المفتتحة بالحرف كقوله: ﴿قٓ﴾ إنما هي لغة بين الأحباب، يفهمها أولوا الألباب، فَمِن حَرْفٍ يفهمونَ حروفاً، وربما دل الحرف على حروفٍ، وربما دلت الكلمة على كلمات.

ثم ذكر سبحانه ما يذكر الإنسان بآلاء الله ونعمه فقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩].

ثم ذكر سبحانه عواقب الأمم السابقة **وهذا من التذكير بأيام الله تعالى،** فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [ق: ١٢].

ثم ذكَّر سبحانه بمقامه وعظمته فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [ق: ١٦].

فلقد ذكر سبحانه مبدأ هذا الإنسان، ووسطه وعواقبه وخواتمه. ونسأل الله حسن الخواتيم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: وهذا باعتراف الإنسان، إذ أنه لم يخلق نفسه، ولم يخلقه أبوه، أو جَدّه؟ إنما هو سبحانه وتعالى الخالق الذي خلقه وخلق كل شيء.

ولو كنت أيها الإنسان أنت الخالق لنفسك لخلقتها على ما تريد، وعلى أجمل صورة وأحسن صفة، ولجعلت نفسك طويلاً بديناً غنياً صحيحاً، ولأبقيت نفسك شاباً قوياً، لكن الأمر غير ذلك، فالأمر ليس لك، إنما هو لمن بيده الأمر، تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، لأننا نحن الذين خلقناه، وخالق الشيء أعلم به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] فما مِنْ شيء فيه إلا ونعلمه حتى ما يمر على قلبه من خواطر، وعلى نفسه من وسوسة وهواجس، فَمِنْ بابٍ أولى أننا نعلم ما استقر في قلبه من نيات وعزائم، وما صدر على جوارحه من أعمال وأقوال !!.

وفي هذا تنبيه للإنسان أن لا يغفل عن الله تعالى، وأن يكون دوماً على مراقبة لله تعالى، وأنه سبحانه هو الرقيب عليه، وأنه سبحانه العليم بما أضمره في نفسه، أو أخفاه في صدره.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] والوريد ما يَرِدُ فيه من القلب إلى الرأس، وهما عِرقان محيطان بالعنق، إذا انقطعا مات الإنسان وليس هذا القرب قرباً جسمانياً أو روحانياً، وإنما هو قرب لائق بجلاله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ـ ١٨] يُخبر سبحانه عن الملكين اللذين وكِّلا بكتابة أعمال كل إنسان وأقواله، وهما ملك اليمين الذي وكل بكتابة أعمال الخير، وملك الشمال الذي وكل بكتابة أعمال الشر، **وكل منهما** ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: وهذا الوصف لكل ملك. أي: أن كلاً منهما مراقب لك أيها الإنسان على حركاتك وسكناتك، وجميع أقوالك وأعمالك.

وكل منهما عتيد. أي: حاضر العتاد للكتابة، وقد سماهما سبحانه بأنهما متلقيان، ليبين أنَّ موقف كل منهما مع الإنسان هو موقف المتلقي والمستملي عن هذا الإنسان، والإنسان هو الذي يملي عليهما الكتابة، فهما يُسطران ويصنفان جميع ما يُملي عليهما هذا الإنسان، فهو المؤلف وهما الكتبة.

قال تعالى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١ـ١٢] حتى إذا جاء يوم القيامة يقال لهذا الإنسان: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ الذي أمليته على الكرام الكاتبين عليك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وفي هذا تنبيه للإنسان أنْ يراقب ربه في أعماله وأقواله، وليعلم أنَّ هناك ملكين موكلين به، يتلقيان جميع ما يصدر عنه، ويسطرانه عليه؛ ولو كان صغيراً، لأن الله تعالى يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ أي: ولو كان كلمة غير مفهومة، ولا معنى لها، فينبغي على الإنسان أن يُحَسِّن أقواله وأعماله، أي: أن يجمِّل ويحسن ويجيدَ تأليف كتابه الذي يؤلفه حتى إذا قيل له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ قرأه وهو عنه راض، دون أن يفضح نفسه على رؤوس الأشهاد.

وجاء في الحديث: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله تعالى مَا كان يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يكتب اللَّهُ تعالى له بها رضوانه إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله، ما كان يَظُنُّ أن تَبْلُغُ مَا بَلَغَتْ، يكتب الله له بها سخطه إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»[(١)].

وقالوا رضي الله عنهم: إنَّ كل ما يصدر من القول فهو مكتوب، سواء كان مفهوماً أم غير مفهوم.

ولهذا لما اشتد مرض الإمام أحمد رضي الله عنه وجعل يَئِنُّ، فقيل له ـ يعني بلغه ـ عن التابعين: أنَّ الأنين مكتوب. فأمسك نفسه عن الأنين.

---

(١) رواه الإمام مالك في (الموطأ) كتاب الجامع، ما يؤمر به من التحفظ في الكلام /١٨٠٤/ والترمذي في كتاب الزهد، باب في قلة الكلام /٢٣٢٠/ (٧٨/٧)، وابن حبان في صحيحه /٢٨٧/ (١/٢٥٢) والحاكم في (المستدرك) (١/٤٥) عن سيدنا بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه.

واعلم أن الأنين يُكتب، لكنَّ الحساب عليه يكون على حسب حال من يئنّ، فإن كان أنينه صادر عن شكوى لله تعالى، ورضاً بما قضى الله عز وجل: فأنينه في صحيفة الحسنات، وإن كان أنينه صادراً عن سخط لقضاء الله تعالى، وضجر وعدم رضاً عنه: فإنّ أنينه يكون في صحيفة السيئات.

وبعد ما كَتب الملكان أعمال الإنسان وأقواله، وانقضى أجله، وانتهى أمره إلى الموت، وتَم تصنيفه لكتابه طوي الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] أي: مهما طال عمر الإنسان فلا بد له من الموت.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ وهو: الذي يَفر من الموت حباً في الدنيا، أما المؤمن فَيَلْقَى الله تعالى وعليه الفرح عند الموت، لأنه سيلقى ربه سبحانه وتعالى.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠] وهذا بعدما مات الإنسان وانتقل إلى البرزخ، ومضت عليه مُدة في عالم البرزخ، ثم ينتقل إلى عالم الحشر.

واعلم أنَّ حال الإنسان في البرزخ هو حال أعماله في الدنيا، وصور الأرواح في برازخها إنّما هي صور أعمالها في الدنيا، فمن كان عمله في الدنيا صالحاً فحاله في البرزخ صالحٌ، وصورته حسنة وصالحة، وَمَنْ كان سيئ العمل في الدنيا ساءت صورته في البرزخ، وساء حاله في البرزخ. ونسأل الله العافية.

و﴿ٱلصُّورِۚ﴾: هو مجمع الأرواح، فلما يُنْفخ فيه، يُحشر الناس إلى أرض المحشر.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: ٢٠] وهذا يشمل الفجار والأبرار، لقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ﴾ يسوقها إلى أرض المحشر، وإلى مقرها فيه، ﴿وَشَهِيدٞ﴾ يشهد عليها.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي: يقال لهذا الغافل ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ٢٢] وهذا يقال لمن كان غافلاً في الدنيا، وصار في البرزخ، ثم انتقل إلى المحشر.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي: ولم تكن تحسب للآخرة حساباً، ولا تبالي بها فيقال له في البرزخ: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: الغطاء الجسماني المحدود، المقيد في عالم الدنيا وانفصلت عنه الروح؛ فصار يرى مالا يَرىٰ مِنْ قبل.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أي: حاد نافذ، ترى أموراً ما كنت تراها في عالم الدنيا، كالملائكة والأرواح وغيرها.

ولما جاء للحشر؛ وقُدِّم للحساب والسؤال، قال القرين الملكي للإنسان؛ قال لرب العالمين: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: حاضر بذاته وأعماله.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ وهذا هو القرين الملكي الموكل على كل إنسان، وهو غير الكاتب، فيقول لرب العالمين: يارب هذا ما لدي حاضر، وهو الذي أمرتني به، ووكلتني به.

فيقول سبحانه: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ﴾ وهذا الخطاب للمَلَكَيْنِ الكرام الكاتبين، أو الخطاب موجه للقرين الملكي ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾

على عادة العرب قد تُطْلِقُ الأمر بالتثنية وتُرِيْدُ الواحد، أو المراد (ألقِيَنْ) أي: أنه مقلوب عن نون التوكيد، والخطاب للقرين الملكي.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ كثير الكفر والجحود ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند معرض عن الحق بعد ما ظهر له ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ لا يفعل خيراً مع خلق الله ﴿مُعْتَدٍ﴾ عليهم بالظلم ﴿مُّرِيبٍ﴾ مُشكِّكٍ فيما أخبر الله تعالى به. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

ولما أمر الله تعالى الملائكة أنْ تسوق الكافر إلى جهنم، راح الكافر يحتج وقال يا رب: إنَّ هذا القرين الشيطاني الجني قد أضلني، فقال قرينه الشيطاني: ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: أنا لَمْ أُجْبره على فعل المعاصي والفسوق، وإنما وسوست له بذلك، فقام وارتكب المخالفات.

هذا لأن كل إنسان له قرينان موكلان به: قرين من الملائكة يدله على الخير، وقرين من الجن والشياطين يدله على الشر.

كما جاء في الحديث[1]: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الْجِنِّ، وقَرِينُهُ مِنْ الملائكة».

قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ: «وَإِيَّايَ، إِلاَ أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلاَ يَأمرني إِلاَ بِخَيْرٍ».

---

(١) الذي رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/٤٠١) والإمام مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياهُ لفتنة الناس /٢١٨٤/ (٥/٢٦٩٣) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وهذه الرواية «فأسلمَ» هي الراجحة على رواية: «فأسلمُ»، لأن قوله: «فأسلمُ» أي: من شروره ووساوسه، فكيف يقول: فلا يأمرني إلا بخير، والشياطين لا تأتي إلا بالشر(١).

فالرواية الراجحة هي رواية: «فأسلمَ» أي: أن هذا القرين الشيطاني أسلم وصار من المسلمين، وهذا من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما كانت الملائكة لا تأتي إلا بالخير، ولا تدعوا إلا بالخير فكيف والحديث: «مَا مِنْ يوم يَطلعُ يصبح العباد فيه إلاَ مَلَكَانِ ينزلان فيَقُول أحدهما: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويقول الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفاً»(٢) فالمراد تلفاً في الخير.

أي: يُتلف مالَه في عمل الخيرات، فَوَفِّقْهُ يارب لذلك! وهذا محض الخير.

أو أعط ممسكاً تلفاً أي: أتلف ماله حتى لا يستمر في شحه وبخله، ويقف عند حده في معصية الله. وهذا محض الخير. اهـ

فلما جرى الخصام بين الكافر وقرينه الشيطاني، قال الله سبحانه: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨ـ ٢٩].

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي: لقد ذَكَّرتكم، وجاءت الرسل وبَيَّنَتْ لكم

---

(١) كما في شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٥/٢٦٩٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ /١٤٤٢/ (٣/٣٠٤) ومسلم في كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك /١٠١٠/ (٢/١٠٥٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

الحق، فالقول حق، والحق حق، والله يحكم بالحق، ومن يحكم بالحق فليس بظالم، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣٠] وهذا تذكير بأيام الله تعالى، وهو من أيام وعيده سبحانه، والمعنى: اُذكر لهم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾.

وجهنم اسم من أسماء النار، والعرب تقول عن البئر العميق السحيق الذي لا يوصل إليه بسلام تقول عنه: بئر جهنام.

فمن صفات النار: أنها جهنم أي: سحيقة عميقة مظلمة ضيقة، ولذلك يتكدس أهلها فوق بعضهم تكديساً، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُوا۟ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان: ١٣] أي: حشراً وتكديساً فوق بعضهم.

﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ هل هذا القول منها استزادة أم استكفاء ؟أي: هل أنها.

تطلب الزيادة، أم أنها اكتفت، وقالت: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ أي: هل بقي من زيادة ؟

ذهب الجمهور إلى أَنَّ قولها من باب الاستزادة، أي: تطلب الزيادة حتى تمتلئ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى مخبراً عن النار ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ أي: ما بقي فيها مكاناً فارغاً فقد امتلأت بأهلها كلهم.

والحق أنّ كلا الأمرين حق: فإن الله سبحانه وعد جهنم أن يملأها: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وجاء في الصحاح[1] عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيْهَا وتقول: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ حَتَى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيْهَا قَدَمَهُ، فَينزوي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَدْني قَدْني» أي: كافي كافي.

كما أنه سبحانه وعد الجنة أن يملأها، كما جاء في (المسند) و(الصحيحين)[2] عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «احْتَجَّتْ النَّارُ وَالجَنَّةُ ـ وفي رواية: «تَحَاجَّتْ الجَنَّةُ وَالنَّارُ» ـ فَقَالَتْ النَّارُ: فِيَّ الجَبَّارون والْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالتِ الجَنَّة: فِيَّ ضُعَفَاء النَّاسِ وَمَسَاكِيْنُهم».

ومعنى «الْمُتَكَبِّرُونَ» أي: المتعاظمون في نفوسهم.

«وَالْمُتَجَبِّرُونَ» المتعالون على الله، وعلى خلق الله، فلا يقبلون الحق، ولا يعترفون بالحق، ولا يُعاملون الناس بالحق، ولا يدينون لله بالحق.

ومعنى قول الجنة: «فِيَّ ضُعَفَاء النَّاسِ وَمَسَاكِينُهم» ليس المراد مساكين الفقر، وإنما المراد مساكين النفس، أي: بالتواضع واللين، وإلا قد يكون رجلاً فقير المال جبار النفس متكبراً.

---

(١) (مسند) الإمام أحمد (٣/ ٢٣٤) واللفظ له، وصحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ /٤٨٤٨/ (٨/ ٥٩٤) ومسلم في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء /٢٨٤٨/ (٥/ ٢٧١١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه وينظر (المسند) (٣/ ٧٨).

(٢) (المسند) (٣/ ٧٨ـ٧٩) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، البخاري كتاب التفسير/ ٤٨٥٠/ (٨/ ٥٩٥) مسلم في كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، /٢٨٤٦/ (٥/ ٢٧٠٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

«فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي ـ اللهم اجعلنا منهم ـ وقال للنار: أنت عذابي، أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تعالى قدمه عليها، فهناك تمتلئ، ويزوى بعضها إلى بعض فتقول: قطْ قطْ» أي: كفى.

ومعنى يضع الله تعالى رجله: أي: يخلق لها خلقاً مناسباً يقدمهم لجهنم وهم أهل لها.

فَقَدَم: أي خَلْقٌ مقدَّمُون إلى جهنم، يخلقهم الله تعالى، مِنْ هِمَم وَنيات وعزائم الكفار، لأنك لو سألت الكافر في الدنيا هل تنوي الإسلام يوماً ما ؟ فيقول: لا. فيخلق الله من نيته وعزيمته خلقاً يُحشرون مع الكافر إلى جهنم، ليزداد في عذابه.

قال: «ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة» وهم مخلوقون من هِمَم وعزائم أهل الجنة، لأن نية أهل الجنة البقاء على الإيمان والعمل الصالح أبد الآبدين.

وعلى هذا تمتلئ الجنة بأهلها، وتمتلئ النار بأهلها، ولكل واحدة منكما ملؤها، كما وعدهما سبحانه.

واعلم أن قَدَمَ أهل النار المقدمون إلى النار هم مظهر اسم الجبار، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «حَتَى يَضَعَ الله تعالى فِيْهَا قَدَمَهُ».

وأما المقدمون إلى الجنة فهم مظهر اسم الرحمن الرحيم، ولهذا قال للجنة: «أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي».

وعلى هذا فالنار لا تمتلئ وتطلب الزيادة ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ استزادة، حتى يُقدم لها الله تعالى لها خَلَقاً ثم تمتلئ، فبعد ما تمتلئ تقول:

﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ استكفاءً، أي: ما بقي فيها موضع، وهذا ما يُحمل عليه كلام ابن عباس رضي الله عنهما، وأما كلام الجمهور فيحمل على الحالة الأولى قبل أن تُملأ.

ومن هنا تفهم أنَّ أهل الجنة يتنعمون بذواتهم ونياتهم الصالحة، كما أن أهل النار يعذبون بذواتهم ونياتهم السيئة.

والجنة إنما هي: مظهر الفضل الإلٓهي، والنار هي: مظهر العدل الإلٓهي.

وإن الجنة أوسع من النار بما لا يقاس، وإن أقل المؤمنين في الجنة له من الملك قدر الدنيا وعشر أمثالها.

وبعد أن ذكر سبحانه يوماً من أيام الوعيد، وذكَّر به، وَخَوَّف منهُ وهو قوله: ﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ...﴾ ذكر سبحانه يوماً من أيام وعده للمؤمنين، وذكَّر به، حتى يسارع الإنسان إليه فقال سبحانه: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] أي: قُرِّبت لهم في جميع العوالم، حتى دخلوها سالمين آمنين.

ففي الدنيا تتراءى لهم بقلوبهم، حتى إذا انتقل الإنسان إلى القبر وهو مؤمن غير مصر على المعاصي؛ تراءت له جنة المأوى، وفُتح بينه وبينها طاقات واسعة، فيرى مقعده في الجنة، وتَهب عليه نسيم الجنة ورياحينها العليلة، وهو في جنة البرزخ في عالم البرزخ.

وهذا التقريب هو من باب التنزلات في العوالم، وإلا فإن جنة المأوى في مكانها عند ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٤].

ثم ينتقل إلى جنة البرزخ في الحشر، ثم إلى جنة برزخ الصراط، وكلما انتقل إلى عالم دخل جنته المناسبة له، وكلها متصلة بجنة المأوى، حتى يأوي إليها أبد الآبدين.

وقد بَيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ المؤمن في قبره يُعرض عليه مقعده في النار، ومقعده في الجنة، ويراهما جميعاً[1]، وإنما يُريه الله مَقعده في النار حتى يحمد الله تعالى، إذْ لو كان كافراً لدخل النار، وحتى يعرف فضل الله عليه، وأَنْ جعله مؤمناً من أهل الجنة.

ولا يعرف الإنسان فضل الشيء وَقَدْره ونعيمه إلا إذا رأى ضده. وبضدها تتميز الأشياء.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: قربت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ في عوالمهم ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

ولما صاروا في المحشر تراءت لهم جنة المأوى، وصاروا يمشون على الصراط بسرعة ونشاط، لأن المقصود أمامهم غير بعيد عنهم.

والمتقون هم الذين تَوَقَّوْا غضب الله وعذاب الله، بامتثال أمره واجتناب نهيه، وقيل لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢] هذا أي: الجنة وما فيها من ألوان النعيم.

والأواب هو: الرَّجَّاع إلى الله تعالى في أوقات غفلة الناس عن الله، فمن رجع إلى مولاه في وقت غفلت الناس عن ربها فهو أوَّاب.

وهناك مرتبة عالية في الأوب إلى الله سبحانه، وهو الذي يؤثر طاعة الله في أوقات اعتراك العمل وانشغال الناس ومن هذا قيام الليل، فَمَنْ قام الليل وصلى لله فيه والناس في غفلة النوم فهو من الأوابين.

---

(١) كما في البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال /١٣٣٨/ (٣/٢٠٥) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار /٢٨٧٠/ (٥/٢٧٢٤) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومن صَلَّى وقت الضحوة الكبرى فهو من الأوابين، لأن الناس في غفلة وانشغال في أسباب الدنيا.

ومن صَلَّى لله تعالى بين المغرب والعشاء فهو من الأوابين، لأنه صَلَّى لله تعالى في وقت غفلة الناس عن ربهم، بسبب انشغالهم في آخر النهار وانصرافهم إلى بيوتهم.

واعلم أنَّ مراتب الأوابين مختلفة، وبَيَّن سبحانه وأثنى على داود عليه السلام أنه أواب، فقال سبحانه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ مَنْ هُو الحفيظ ؟

قال: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] ولم يقل سبحانه لكل أواب حافظ، بل حفيظ، وذلك لعموم معنى الحفظ، وشموله على مراتب الحفظ كلها.

والحفيظ هو: مَنْ حفظ أوامر الله تعالى، وأهم الأوامر العملية البدنية الصلاة، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

كما أنَّه حافظ على طاعاته وصلواته من الضياع، لئلا يحبط ثوابها وأجرها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩] يحافظون عليها في أوقاتها، ويحافظون عليها من الضياع، وذلك بحفظ حدودالله تعالى.

والحفيظ هو الحافظ لحدود الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ١١٢].

والحفيظ هو: الذي حفظ حقوق الله، وحفظ العهود بينه وبين خلق

الله، وانظر تفصيل ذلك في بيان منزلة الرعاية عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] أي: يرعون حق الله وحق عباده، ويحفظون العهود مع الله ومع خَلْقِهِ.

أما العهود مع خلق الله تعالى: فهناك العهود القولية كالبيع والشراء، وهناك العهود بحفظ الحرمة، وحسن العشرة، ووفاء الوعد، وهذا لابد منه في الإيمان.

وإن أحفظ العالمين وُداً، وأحسنهم عهداً، وأوفاهم وعداً، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وَمِنْ هذا ما جاء في الحديث(١) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو عندي، والسيدة عائشة جالسة. أي: لا خلوة هناك فافهم.

فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم: «كَيْفَ أَنْتُمْ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ؟ كَيْفَ أَنْتُمْ بَعْدَنَا»؟ وأقبل عليها مُرحباً وملاطفاً.

فقالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

فلما خرجت قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟!!

فقال: «يَا عَائِشَةُ إنها كَانَتْ تَأْتِيْنَا زَمَانَ خَدِيْجَة، وَإِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيْمَانِ».

---

(١) الذي رواه الحاكم في (المستدرك) كتاب الإيمان، باب حسن العهد من الإيمان (١/١٦) والبيهقي في (شعب الإيمان) الشعبة الثانية والستون، باب في المكافأة بالصنائع /٩١٢٢/ (٦/٥١٧).

فَبَيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن هذه المرأة كانت تتردد إلى السيدة خديجة رضي الله عنها، حين كان في مكة، وإنّ حسن العهد وحفظ الود من الإيمان، وليس من باب الامتنان.

والحفيظ هو: مَن حفظ ما أعطاه الله تعالى من النِّعَمِ، وصرفها في مواضعها، كالسمع والبصر والحواس والمدارك كلها ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ».

قَالُوا: يا رسول الله إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَتَذْكُرْ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»(١).

ومعنى: «**أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى**» أي: احفظ رأسك عن الحرام، كما تحفظ يدك، واحفظ ما وعاه رأسك عن الحرام ـ أي: ما جمعه الرأس ـ ولقد جمع الرأس سائر المدارك والحواس.

ففيه العقل، والسمع والبصر، والشم واللسان والذوق، فاحفظها أن تقع في حرام.

وأن تحفظ «**الْبَطْنَ وَمَا حَوَى**» من مآكل ومشارب، فاحفظ بطنك عن أكل الحرام، وعن الشهوات المحرمة، بأن تصرفها في مصارفها المشروعة.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب /٢٥/ حديث رقم /٢٤٦٠/ (١٦٤/٧) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ومن تحقق بمراتب الحفظ كلها كان حفيظاً، ومن كان حفيظاً حفظه الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»[1].

والمعنى: احفظ الله في كل أمر ونهي، واحفظ حدود الله، واحفظ حقوق الله، بأن لا تنسى الله سبحانه، وعلى قدر حفظك له يكون حفظه لك سبحانه وتعالى.

أما حفظه لك سبحانه وتعالى: بأن يحفظ عليك دينك، ويحفظك من آفات دنياك.

وإن أحوج ما يكون إليه الإنسان المؤمن أن يحفظ الله تعالى عليه دينه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «يَا عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ دِيْنَكَ دِيْنَكَ، إِنَّمَا هُوَ لَحْمُكَ وَدَمُكَ، فانظر عمن تأخذ، خُذْ عَنْ الَّذِيْنَ اسْتَقَامُوا، وَلاَ تَأْخُذْ عَنِ الَّذِيْنَ مَالُوا»[2] الحديث.

أي: احفظ دينك احفظ دينك، أشد من حفظك وحرصك على لحمك ودمك، لأن دينك هو لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا على شرع الله، ولا تأخذ عن الذين مالوا للأهواء والآراء.

وإن السبيل لكي يحفظ الله على المؤمن دينه، وأن لا تدخل عليه الشبهات والضلالات هو أن يحفظ الله تعالى.

ولقد كان من دعاءه عليه الصلاة والسلام في الصباح والمساء، وفي هذا تعليم للأمة: «اللهمَّ إِنِي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللهمَّ إِني أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايْ، وَأَهْلِيْ وَمَالِيْ، اللهم استر

---

(١) رواه الترمذي من حديث طويل في كتاب صفة القيامة، باب /٦٠/ حديث رقم /٢٥١٨/ (٧/٢٠٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أورده الخطيب في (الكفاية) باب ما جاء في الأخذ عن أهل البدع والأهواء.

عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني مِنْ بَيْن يديَّ وخلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»[1].

ولما سأل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه النبيَ صلى الله عليه وآله وسلم أن يعلمه دعاءً قال: «قل: اللهم احْفَظْنِي بِالإِسْلاَمِ قَائِمَـاً، اللهم احْفَظْنِي بِالإِسْلاَمِ قَاعِداً، اللهم احْفَظْنِي بِالإِسْلاَمِ رَاقِداً، اللهم لاَ تُشَمِّتْ فِيَّ عَدُوّاً ولا حَاسِداً»[2].

أي: أن يحفظ الله عليك الإسلام في جميع حالاتك، وأن تكون جميع حركاتك وسكناتك إسلامية إيمانية، ومن حفظ الله حفظه أيضاً من الآفات والعاهات والبليات الدنيوية، كما قال سبحانه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

قوله تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ﴾ [ق: ٣٣ـ ٣٤].

والمعنى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾وإن كان لم ير الرحمن بعيني بصره، وإنما يُشاهده ببصيرة قلبه، ويوقن به، فهو يخشاه وإن لم تره عيناه، بل يشهده بقلبه ويعرفه بعقله، ويوقن أن لا إله إلا الله.

أما رؤية الذات في عالم الدنيا فالبصر عاجز عن ذلك، إلا ما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة.

---

(١) كما في (المسند) (٢/٢٥) وسنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح /٥٠٧٤/ (٥/٣١٥)، وابن ماجه /٣٨٧١/ (٢/١٢٧٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٢) كما في (المستدرك) كتاب الدعاء (١/٥٢٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وينظر (فيض القدير) للعلامة المناوي.

وقد أحال الله النظر والبصر إلى الآيات لا إلى الذات، لأنَّ رؤية الذات تحتاج إلى إعداد وإمداد، ولها موقف خاص في عالم خاص.

ومن جملة معنى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: عن الناس كما يخشاه بين الناس.

وجاء في الحديث: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّه يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَ ظِلُّهُ...» وذكر منهم «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[(١)].

ويجب على المؤمن أن يكون عنده خشية من الله تعالى، ولا ينال هذا إلا من كان على مراقبة لله تعالى دوماً.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: جاء الآن إلى الله بقلب منيب، فلا يدخل المؤمن حضرة رب العالمين حتى يأتي إلى الله بقلب منيب إليه.

ومن أراد الوصول على الأصول دون ادعاء ولا فضول فعليه بالقلب المنيب، ولهذا يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ـ٨٩].

والقلب المنيب هو القلب المتعلق بالله تعالى والسليم من الآفات والداءات القلبية، ومن سلم قلبه وأناب إلى ربه فقد تَهيّأ للدخول إلى حضرة رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] أي: يقال

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٤٣٩/٢) والبخاري في كتاب الأدب، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد /٦٦٠/ (١٤٣/٥) ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة /١٠٣١/ (١٠٦٩/٢) وغيرهم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

لهم ادخلوها بسلام، والقائل هو الله سبحانه، ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ﴾، والملائكة تقول لهم: ادخلوها بسلام، فيدخلونها بسلام من الله عليهم، وبسلام من الملائكة عليهم.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ لا نفاد له ولا انقطاع فيه، وإنما أبدٌ في آباد، **وهل هم في خلودهم متنعمون بنعيم متجددٍ ؟ أم في نعيم محدد ؟!**

قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٥] أي: لهم ما شاؤوا، ولهم ما يشاؤون وعلى طول الآباد، فيحصل لهم كل ما يتمنون ويريدون، فهم دائماً في الترقي في النعيم والازدياد منه.

وفي هذا جاء الحديث: «يُقَالُ لصاحب القرآن: اقْرَأْ وَارْقَ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها»(١).

﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ أي: زيادة على ما يريدون، وزيادة على ما يشتهون ويطلبون، لأنَّ المشيئة والطلب تابع للعلم، وعلومهم مهما كانت عظيمة فإنها متناهية، فالله تعالى يفيض عليهم ويُذَكِّرهم بطلبات، ويُعرفهم أموراً فيطلبونها، ويزيدهم من فضله سبحانه، وأعظم فضل يتفضل به سبحانه على أهل الجنة، ويزيدهم نعيماً فوق كل نعيم؛ إنما هو رؤية رب العالمين سبحانه.

وقد ورد في الحديث(٢) أنّ يوم الجمعة يُسمى في الملأ الأعلى وفي الجنة: يوم المزيد، لأنّ فيه زيادة فضل وإكرام من الله تعالى على أهل الجنة، وهي أن يتجلى على جميع أهل الجنة بالرؤية.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة /١١٦٤/ (١٥٣/٢) والترمذي في كتاب ثواب القرآن الكريم /٢٩١٥/ (١١٧/٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) كما روى الطبراني بالثقات انظر (مجمع الزوائد) (١٦٣/٢).

واعلم أن في الجنة زمان مناسب لعالم الجنة، وليس كهذا الزمان القائم على حركة الشمس والقمر، وهذا كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

فهناك يمر عليهم يوم المزيد وهو يوم الجمعة، وهناك التجليات الخاصة لأهل الجنة على حسب مراتبهم، وهذا يكون في أيام خاصة.

وهذا التجلي بالرؤية كما ورد في الحديث[١] يكون في عالم الكثيب ـ تلال المسك ـ في واد أفيح، وفيه المراتب المرتبة، فالمنابر النورانية للأنبياء، والمنابر الذهبية المكللة بالياقوت للصديقين والشهداء، والمنابر المجوهرة لمن دونهم في المقام، وهكذا كل منهم يأخذ مقامه المعين له، ثم بَعد ذلك يتجلى رب العالمين.

وفي الحديث الذي رواه الإمام الشافعي بسنده، ورواه ابن جرير[٢] وغيرهما، أنّ الله تعالى يقول لأهل الجنة وقد تجلى عليهم: «إِنِّي أَنَا رَبُّكُمْ، وَقَدْ صَدَقْتُكُمْ وَعْدِي، فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ».

قال: «فيقولون: رَبَّنَا نَسْأَلُكَ رِضْوَانَكَ » أي: رضوانك الأكبر كما قال سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

«فيقول سبحانه: رَضِيتُ عَنْكُمْ، وَأَعْطَيْتُكُمْ مَا تَمَنَّيْتُمْ، وَلَدَيَّ مَزِيْد».

واعلم أنَّ الله تعالى يعدهم ويمدهم بالقوى والقابلية، لأنهم يرون ربهم وكل منهم يَرىٰ بمنظار إيمانه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢ـ٢٣].

---

(١) الذي رواه الطبراني وأبو يعلى، (مجمع الزوائد) (١٠/٤٢١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) ينظر (الدر المنثور)، للحافظ السيوطي عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

وجاء في الحديث [1] أَنَّ أهل الجنة يُحبون يوم الجمعـة ـ يوم المزيد ـ لِمَا يعطيهم الله فيه من الخير الكثير.

روى مسلم في صحيحه[2] عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قـال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللَّهُ تبارك وتعالى لَهُم: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟

فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ـ ظاهراً وباطناً ـ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّـةَ وتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَـيْهِمْ مِـنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عز وجل» ثم تـلا صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم هـذه الآيـة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أي: للـذين أحسـنوا الحسـنى مقابل إحسانهم وأعمالهم، وزيادة. أي: وزيادة فضل من الله تعـالى، وهـي التجلي بالرؤية.

واعلم أنَّ أهل الجنة قبل أَنْ يذهبون إلى عالم الكثيب الذي يتجلـى الله عزَّ وجل فيه عليهم بالرؤية، يَمُـرُّون علـى أسـواق لا بيـع فيهـا ولا شـراء، ويتحلون بأجمل الهيئات والصور، لأنه لابد لكل تجلي مِن تَحَلِّي.

كما أن تجلياته سبحانه بالرؤية على مراتب: فهناك تجليات تأخـذ بهـم عن نفوسهم، وهناك تجليات يبقون فيها في صحو، وهناك وهنـاك ولـذلك قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ـ ٢٣].

واعلم أن رؤية الله تبارك وتعالى لا تُشبه رؤيتـك للمخلوقـات، وإنمـا ترى بعينك وبكـل ذرة فيـك، لأنَّ كـل ذرة فيـك لهـا حظهـا في رؤيـة رب العالمين، لأنه هو خالقها وبارئها، فهي تحبه وتحب أن تنعم برؤيته.

---

(١) انظر (الدر المنثور) (٧/٦٠٥).

(٢) في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهـم سـبحانه وتعـالى /١٨١/ (١/٣٤٩) عن سيدنا صهيب رضي الله عنه.

ومن هنا تعلم أن نعيم رؤية رب العالمين ليس لها حد تُحد به، ولذلك فإن نعيم الرؤيا فوق كل نعيم، ولذلك قال: «فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَ إِلَيْهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِم» اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: الكفار ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: طافوا البلاد، ولكن ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦] أي: هل من مفر وخلاص لهم من لقاء رب العالمين، والوقوف بين يديه سبحانه.

وبعد ما ذكر سبحانه هذه الأمور قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي: تذكير من الله ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فليتذكر المؤمن بتذكير الله تعالى حتى يَرِقَّ بها قلبه، وتتلطف نفسه، ويدخل نور كلام الله إلى قلبه، وتنكشف له الحقائق.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُذَكِّرُ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بأيام الله تعالى، وفي هذا تذكير للأمة كلها، لأن الصحابة وجه هذه الأمة، وقد نقلوا ذلك إلينا رضوان الله تعالى عليهم.

وفي هذا يقول سيدنا علي رضي الله عنه: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُذَكِّرُنَا بِأَيَّامِ الله تَعَالَى، حَتَى يُعْرَفَ ذَلِكَ فِيْ وَجْهِهِ الشريف صلى الله عليه وآله وسلم)[1].

أي: حتى يُرى أثر التذكير والخشية من الله سبحانه؛ يُرى على وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن مَرْدويه، عن سيدنا علي أو الزبير رضي الله عنهما.

وإنّ أيام الله سبحانه التي ذَكَّرَ بِهَا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتي يجب علينا أن نَتَذَكَّرها، ونعتبر بها هي أيام عهوده ومواثيقه، وأيام وَعْده ووعيده.

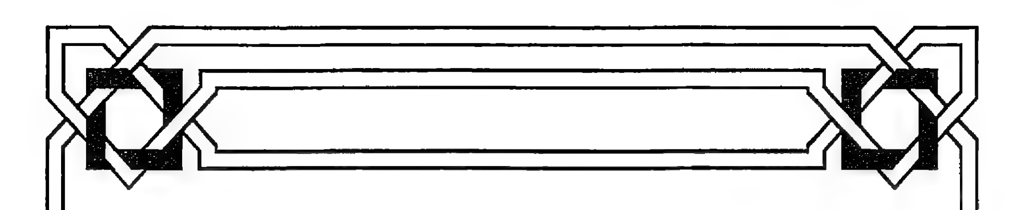
فكل عهد وميثاق هو من أيام الله، وكل وعد ووعيد جرى في الدنيا أو سيجري، أو في الآخرة سيجري إنما هو من أيام الله سبحانه.

والله تعالى أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

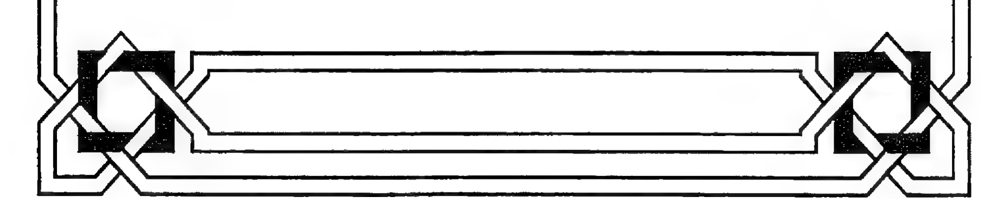


المحاضرة الثالثة حول

التذكير القرآني

التذكير بآيات الله * وبآلائه سبحانه

وبأيام الله تعالى



لقد تقدم الكلام على أن الله تعالى أرسل سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم، وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة.

ومن هذه المواقف أَنَّ الله تعالى أرسله مذكِّراً وواعظاً للعالمين، قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يشمل التذكير بآيات الله تعالى، والتذكير بآلاء الله ونِعَمه، والتذكير بأيام الله تعالى، ولكل نوع من التذكير أثره في النفس، وأثره في القلب.

قال تعالى في بيان التذكير بِنِعَم الله تعالى وآلائه: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وهناك الآيات القرآنية المتلوَّة، وهناك الآيات الكونية المشهورة، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨] يعني: أنّ القرآن بآياته يُذكِّر ويُنبِّه الغافل، ويُعَلِّمُ الجاهل، ويرقق القلوب.

وهناك التذكير بأيام الله كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] وهي: أيام وَعْده وبشائره للمؤمنين، وأيام وعيده وتهديده للكافرين، وأيام عهده ومواثيقه، وأيام نِعمه ونقمه، نعمه ونصره وفضله على المؤمنين، وأيام انتقامه وإهلاكه للكافرين.

كما كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكِّرُ الناس بآيات الله الكونيَّة، ومنها آيات السماوات وآيات الأرض، وآيات البحار، وآيات

النبات، وهكذا، فما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً إلا ذكره، كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (لقد تَركَنَا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَما في السَّماء طَائِرٌ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْه إلاّ ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمَاً)[1].

ولقد جاء في القرآن الكريم ذِكر الآيات الكونية، وقال سبحانه لرسوله الكريم: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: من كل صنف من الثمار: الحلو والحامض والأحمر والأصفر، والمتنوّع في أشكاله ومذاقه ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٥ـ٨] أي: إن في ذلك تبصرةً لكل صاحب بصر، وذكرى تذكِّر كل عبد منيب.

ثم ذكر سبحانه آيات النفس فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ فهو سبحانه وتعالى أعلم بما يجول في نفس الإنسان من نفس الإنسان ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] أي: أقرب إليه علماً وقدرة وإحاطة، وسمعاً وبصراً، قرباً يليق بجلال الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ وهما: الملكان الموكلان بالإنسان ليكتبا ما يصدر منه.

ثم ذكر سبحانه ما يعتري الإنسان من سكرات الموت ثم الحشر والنَّشر، ثم مآله إما إلى الجنَّة إن كان مؤمناً صالحاً، وإما إلى النار إن كان

---

(1) عزاه في (مجمع الزوائد) (٨/٢٦٤) إلى الطبراني وله شاهد عند الإمام أحمد (٥/١٥٣) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

فاجراً. ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يعني: إن في القرآن وآياته الكونية والنفسية والتدوينية المتلوّة إن في ذلك لذكرى تذكر الإنسان بربِّه، وبقدرته سبحانه، وكلها مذكِّرات تدل على عظمة علمه سبحانه وإحاطته.

ولكن هذه الذكرى لا ينتفع بها إلا من كان قلبه حياً سليماً، وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلب حيٌّ يَقِظ ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

والناس في انتفاعهم من الذكرى على ثلاثة مراتب:

١ـ **رجل قلبه حيٌّ بالإيمان الفطري** لم يتغيَّر، ولم تتبدَّل فطرته الإيمانية التي فطره الله تعالى عليها، فهذا حين يسمع آيات الله المتلوّة، أو يُذكَّر بآيات الله الكونية: يزداد إيماناً على إيمان، ونوراً على نور وهذا صاحب القلب الحي السليم.

٢ـ **وهناك رجل اعترى قلبه الداء والسقم والغفلة، ولم يمت قلبه** فهذا يحتاج إلى علاج قلبه ليبرأ ويَسلم، وذلك بأن يُلقي سمعه لمن يذكِّره بآيات الله تعالى، وآلائه، وأيامه سبحانه، ويحضِّر قلبه حتى يبرأ شيئاً فشيئاً من داء الغفلات والشبهات والضلالات، ويَسلم بإذن الله تعالى ويصح ويستنير.

٣ـ **ورجل مات قلبه بالضلال والكفر بسبب إصراره وإعراضه**، فمهما سمع وذُكِّرَ بآيات الله تعالى تراه يُعرض ويجحد، قال تعالى في فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦].

فقولــــه تعــالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] يدل على أن التـذكير بآيـات الله تعـالى، وبـنعم الله وآلائه، والتذكير بأيام الله تعالى؛ كل ذلك ينفع الإنسان بنص القرآن الكـريم ومن زعم أن حضور أو سماع دروس العلم، ومجالس التذكير والـوعظ، لا فائدة منها فقد كـذّب كـلام الله تعـالى الـذي قـال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

* * * * *

أثر التذكير المحمدي في النفوس

لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يَحرصون كل الحرص على سماع تذكير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا إذا سمعوا تذكيره رقّت قلوبهم، وتلطّفت نفوسهم، وعرجوا في معارج الملكوت العالية، كما قال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: (قلنا يا رسول الله: مَالَنَا إِذَا كُنّا عندك رقّتْ قُلُوبُنَا، وَزَهِدْنَا فِيْ الدُّنْيَا، وَرَغِبْنَا فِيْ الآخِرَةِ)؟[1].

وعن حنظلة بن الربيع رضي الله عنه قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ لي: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟

قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ.

قَالَ: سُبْحَانَ اللَّه ماذا تَقُولُ؟!

قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ ـ وهذا من جملة التذكير بأيام الله تعالى، أيام وعده ووعيده ـ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ عَافَسْنَا[2] الأَزْوَاجَ وَالأَولاَدَ. وفي رواية[3]: فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ ضاحكت الصِّبْيَانَ، ولاعبت المرأة.

فذكرا ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إن لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ ـ أي: في حال التذكّر

---

(١) تقدم تخريجه ص /١٩/.

(٢) أي: خالطنا.

(٣) عند الإمام مسلم (٥/٢٦٣٢).

الدائم ـ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً»[1].

يعني: لا بد من ساعة تسمو بها النفس، ويصفو بها القلب حتى يشهد ما يشهد، ولكنه باعتباره بشراً يعيش بين الناس فلا بدَّ له من مخالطتهم ومعاشرتهم، فيتغير عليه الحال.

ومن جملة **التذكير بآيات الله تعالى** قوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠ ـ ٦٤].

وفي هذه الآيات القرآنية التدوينية المتلوّة، يُذكِّر سبحانه العباد بالآيات الكونية والآفاقيَّة التي يشهدونها مِنْ حولهم.

فهذه الأرض الواسعة بما فيها من جبال ووديان وسهول، وما أودع

---

(١) تقدم تخريجه ص /٢٠/.

الله تعالى فيها من المعادن والمنافع للإنسان والحيوان... هذه الأرض مَنْ الذي خلقها ؟!!

وإن بني آدم لا يستطيعون خلق أرض ولو اجتمعوا، فلا بُدَّ إذاً مِنْ قُدرة فوق قدرة البشر، تقدر على خلق الأرض والسماوات وما بينهما، وهذه قدرة الله تعالى التي لا تتناهى.

ومَنْ زعم أن هذه الأرض وما فيها، والسماوات وما فيها، قد وُجِدتْ بنفسها من نفسها ـ وهذا ما يعبِّر عنه الجاحدون الملحدون بالطبيعة ـ فيُقال في سياق الرد والجواب:

إذا مررتَ بمصنع كبير، ورأيت ما فيه، فَلِمَ لا تَزعم أنّ هذا المصنع قد وُجِد بنفسه مِن دون صانع ومخترع ؟!

بل في الواقع أنّك تثبت وجود المخترع والصانع بمجرد رؤيتك للمصنوع، ولا يتبادر إلى ذهنك إطلاقاً، أنّ هذا المصنع قد وُجِد بنفسه دونما مخترع وصُنَّاع.

فانطلق بفكرك إلى عالم السماوات والأرض، وإلى هذا المصنع الكبير، وتساءل بعقلك: كيف وُجِد ؟ ومن أوجَدَه ؟

نعم لقد أشار إلى ذلك ربنا سبحانه بقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وانظر إلى الأشجار المتناثرة على وجه الأرض في الغابات التي لا يصلها الإنسان، وفي الأشجار التي غرسها الإنسان، مَنْ الذي أنبتها ؟!

هذا هو الله الذي أنزل من السماء ماء فأنبت به، فهو المنبِتُ وليس الماء أو الإنسان.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ أي: ليس بقدرتكم أن تنبتوا الأشجار من بطن الأرض، وتجعلوها تنمو وتُزهر وتثمر.

وهل لأحد شركة مع الله تعالى في ذلك ؟! لا إنّه الله وحده الحيُّ القيُّوم الباقي الذي لا يموت، وهو الذي يُحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وَمَنْ زعم غير ذلك فقد عدل عن الحق، وهذا قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يَرون الحق ويعدلون عنه، ولا يعترفون به.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: لا تضطرب ولا تميد، رغم أنها في فضاء واسع تحيط بها السماء الأولى من كل جانب، فهو سبحانه الذي أقرّها وَثَبَّتَها، ولو شاء لزلزلها بأهلها كما يوقع ذلك في بعض أطرافها، حتى إذا جاء يوم القيامة زلزلها الله تعالى كلها، وهذا قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مستقرة لا تضطرب ولا تهتزّ، بحيث تمشون عليها، وتزرعون أرضها، وتبنون فوقها.

وهذا قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي: عن أماكنهما ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أي: تغيّر مكانهما ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي: ما أمسكهما عن الزوال والاضطراب ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فلا أحد غير الله تعالى يقدر على أن يمسك الأرض إن هي مادت أو تزلزلت أو تحركت عن موقعها الذي أوقعها الله فيه من الفضاء، ولكنه سبحانه يمسك السماوات والأرض عن الزوال حلماً بعباده ورحمةً بهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

قولـه تعـالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ فهو سبحانه الذي فجّر الينـابيع مـن الأرض، وأجرى الأنهار خلال الأرض لمصلحة الإنسان والحيوان والنبات.

وهو سبحانه الذي خلق في الأرض حواجز تفصل بين الأبحر الكبيرة، وهي الجزر المعروفة في بقاع الأرض وغيرها، فلا يطغى ماء البحر عليهـا، وقد يكون مستوى الحاجز الأرضي أخفض من مستوى ماء البحر ومع ذلـك فلا يغرقه، فمن الذي أمسكه وحبسه عن الطغيان على اليابسة ؟ هذا هـو الله رب العالمين.

كما أنه سبحانه جعل بين ماء البحر المالح وماء البحر العذب حـاجزاً، فـلا يختلط أحدهما بالآخر، بل يمر عبره كالانبوب المعزول . ويعرف ذلك أهله.

فهناك الحاجز المشهود، وهناك الحاجز المعقول، ولكنه غير مشـهود بالأبصار.

قولـه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ والمضطر هو الذي استحكم به الضُرُّ، وانقطعت عنه أسباب الفرج والنجاة فلجـأ، إلى الله تعالى داعياً، وهو يُـوقن أنـه لا منقـذ ولا مجيـب ولا مغيـث لـه إلا الله تعالى، فيجيبه الله تعالى، ويكشف الضر والسوء عنه.

وقد ذكر أهل الصلاح والتقوى في هذا الباب عدة وقائع جرت معهـم أو مع غيرهم، وقد ظهرت فيها إغاثة الله تعالى لمن استغاثه ولجأ إليه، وهو مضطر قَدْ فَقَدَ الأمل والرجاء إلا من الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك ما نقله الحافظ ابن كثير في تفسيره[1] عـن ابـن عسـاكر: أنَّ رجلاً كان يُكاري على بَغْل له مِنْ دمشق إلى بلد الزبداني.

---

(١) عند تفسير الآية /٦٢/ من سورة النمل.

قال الرجل: فركب معي ذات يوم رجل، فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ من هذه الطريق فإنها أقرب.

فقلت: لا خبرة لي فيها.

فقال: بل هي أقرب، فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر، وواد عميق وفيه قتلى كثيرة.

فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل، فنزل وتشمّر وجمع ثيابه، وسلّ سكيناً معه وقصدني، ففرت من بين يديه، وتبعني فناشدته الله وقلت: خذ البغل بما عليه.

فقال: هو لي، وإنما أريد قتلك. فخوّفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه، وقلت: إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين.

فقال: عجِّل، فقمت أصلي فأُرتج ـ أي: أُغلق ـ عليَّ القرآن، فلم يحضر لي منه حرف واحد، فبقيت واقفاً متحيّراً وهو يقول: هَيَّه افْرُغ ـ أي: عجّل ـ فأجرى الله تعالى على لساني قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فإذا بفارس قد أقبل من فم الوادي، وبيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده، فخرَّ صريعاً، فتعلقت بالفارس وقلت: بالله من أنت؟

فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً.

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: عَلَّمَني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دُعاءً: «اللهم فَارِجَ الْهَمِّ، كَاشِفَ الْغَمِّ، مُجِيْبَ دَعْوَةِ المَضْطَرِيْنَ، رَحْمَنَ الدُّنْيَا

وَالآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا، أَنْتَ تَرْحَمُنِيْ فَارْحَمْنِي رَحْمَةً تُغْنِينِي بِهَا عَنْ رَحْمَةِ مَنْ سِوَاكَ»[1].

ومن فوائد هذا الدعاء قضاء الديون لمن أثقلته هموم الديون كما ورد ذلك عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى أحمد في (مسنده)[2] أَنَّ أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: يَا محمد إِلَى مَ تَدْعُو؟

قَالَ: «أَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، الَّذي إِنْ كان بك ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وإن أصابك عام ـ أي: قحط ـ فَدَعَوتَه أنبت لك، ومَنْ إذا كنتَ فيْ أَرْضٍ قَفْرٍ فأضللت ـ أي: دابتك ـ فَدَعَوْتَهُ رَدَّ عَلَيْكَ» أي: رَدَّ عَلَيْكَ دَابَّتَكَ إن أَنْتَ أَضْلَلْتَهَا فِيْ صَحْرَاءَ لاَ دَلِيْلَ فِيْهَا.

قَالَ: آمَنْتُ بِكَ، فَأَوْصِنِي.

قَال صلى الله عليه وآله وسلم: «لاَ تزهد في المعروف، ولَوْ ببسط وجهك إلى أخيك» يعني هذا من الصدقة.

ومن جملة التذكير بآيات الله تعالى قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية: ١٧ـ٢١] أي: فذكّر يا رسول الله بهذه الآيات، وذكّر أيضاً بأيام الله تعالى، وبآلاء الله تعالى.

---

(١) كما في (مجمع الزوائد) (١٠/ ١٨٦).

(٢) (٤/ ٦٥و٥/ ٤٦ـ٣٧٧).

فانظر أيها العاقل في جبال الأرض لترى اختلاف أشكالها وارتفاعها وألوانها، فَمَنِ الذي نَصبها ؟ لقد نصبها الله تعالى بقدرته، وأقامها بقيُّوميّته، ولذلك أدرك هذا عقلاء العرب والعجم وغيرهم فصدقوا وآمنوا.

فمن ذلك ما جاء عن سيدنا أنس رضي لله عنه قال[1]: بَيْنَا نَحْنُ مع رسول الله فِي الْمَسْجِدِ إذ دخَلَ رَجُلٌ عَلَى نَاقَةٍ له فَأَنَاخَهَا، ثُمَّ عَقَلَهَا، ثُمَّ دخَلَ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ؟ وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يجلس مع أصحابه فلا يعرفه الداخل لأول مرة، لأن دهشة الدخول تغلبه، خاصة أن أنوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسطع في وجوه الصحابة الجالسين مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فَقُلْنَا: هَذَا الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ. وفي رواية: هَذَا الأَمْغَرُ المُرْتَفِقْ ـ يعني: الأبيض المشرب بحمرة، وهذا غاية في الحسن والجمال، ولذلك أشار إليه الصحابة بصفة الجمال والبهاء.

فَقَالَ لَهُ ـ يعني: الأعرابي ـ : ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلب !

فَقَالَ لَهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وآله وَسَلَّمَ: «قَدْ أَجَبْتُكَ».

وقد ناداه الأعرابي: ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لأن عبد المطلب كان معروفاً بين قبائل العرب بذكائه ونجدته وكرمه وفطانته، وذلك أن الله تعالى يبعث الرسل في أفضل وأشرف الأنساب والأحساب.

أما النسب فهو طهارة الآباء والأجداد، وأما الحسب فهو مفاخر

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/١٦٨) ورواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام /٤٦/ (١/١٠٦) ومسلم في كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام /١٢/ (١/١٢٤) والترمذي في كتاب الزكاة، باب ما جاء إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك /٦١٩/ (٢/٣٨١) وانظره برواياته مفصلاً في السيرة الشامية (٦/٥٣٨).

وفضائل الآباء والأجداد، ولا نسب ولا حسب أفضل وأشرف من نسب وحسب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك افتخر رسول الله بأنه ابن عبد المطلب يوم غزوة حنين، عندما تقدَّمَ جهة الأعداء وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد الطلب».

يعني: أنا ابن ذلك الرجل الشهم المعروف بفضله وكرمه، والمشهور بسخائه ومروءته.

ثُمَّ قَالَ الأَعْرَابِيُّ: إِنِي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المَسْأَلَةِ، فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ» (١).

فقال: أَسَأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آلله أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِم ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم نَعَمْ».

وفي رواية مسلم: قَالَ الرَّجُلُ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاء ؟ قال: «الله».

قال: فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ ؟ قال: «الله».

قال: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيْهَا مَا جَعَلَ ؟ قال: «الله».

وكان هذا الأعرابي يعترف بذلك، ولكن سؤاله عن ذلك من باب الإقرار والتأكيد والقسم.

---

(١) قال سيدنا أنس رضي الله عنه: نُهِينَا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن شيء، وهذا النهي في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، لئلا يُشدَّد عليهم في الأحكام، فكان يُعْجبنا أن يأتي الرجل الأعرابي العاقل من أهل البادية فيسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: فَبِالَّذِيْ خَلَقَ السَّمَاء، وَخَلَقَ الأَرْضَ، وَنَصَبَ الجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيْهَا مَا جَعَلَ: آللهُ أَرْسَلَكَ؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم نَعم».

وفي رواية البخاري: أن الأعرابي سأله عن الصلوات الخمس والصيام والصدقة.

وفي رواية الترمذي: وسأله عن الحج أيضاً.

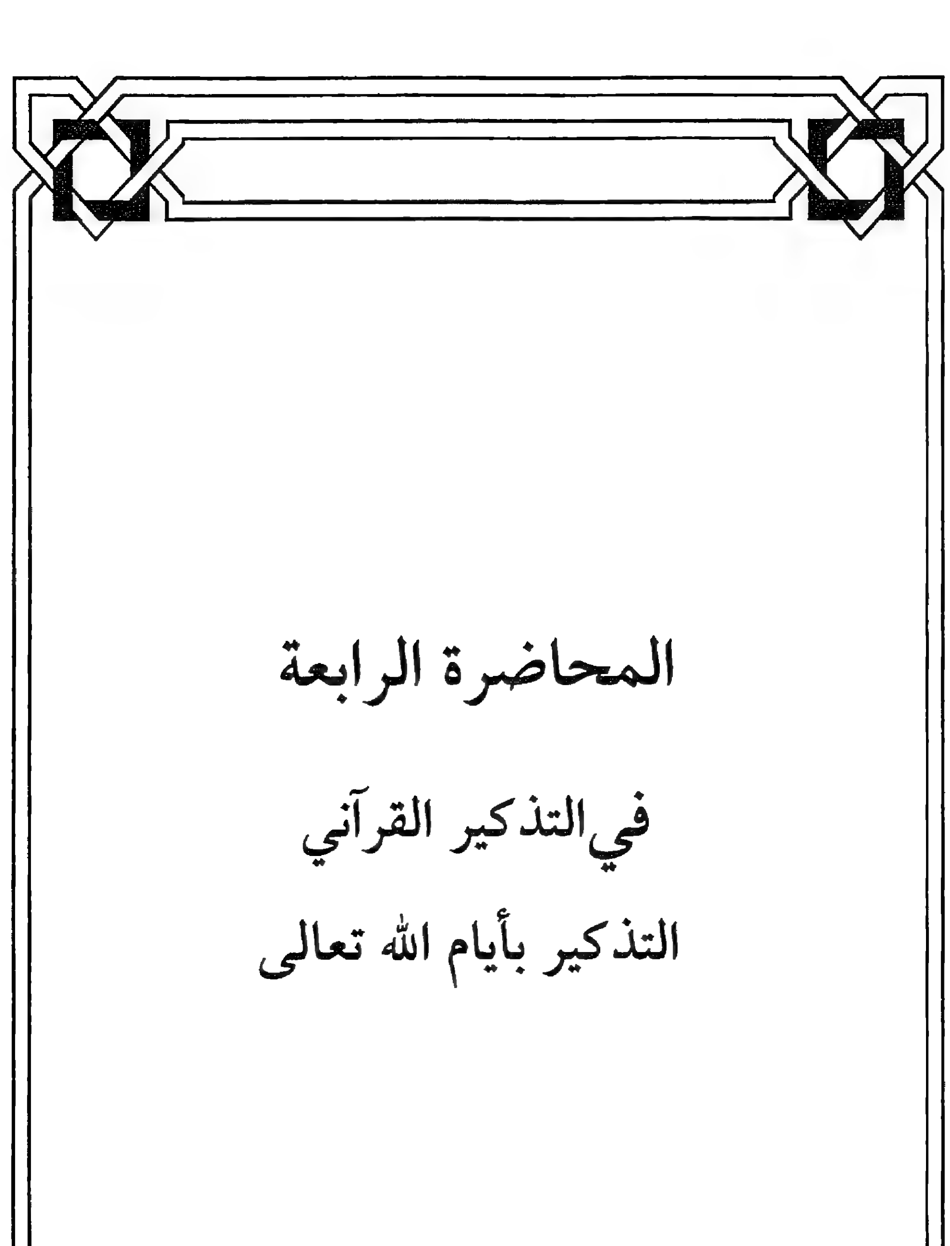
ثُمَّ قَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِيْ مِنْ قَومِيْ، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ... الحديث.

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكِّر بآيات الله تعالى، وأيام الله تعالى، وآلاء الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *



المحاضرة الرابعة

في التذكير القرآني

التذكير بأيام الله تعالى

التذكير القرآني

قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية: ٢١].

فلقد كان من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أن الله تعالى أرسله مذكِّراً لهم، يذكِّر الناس بآيات الله تعالى، ويذكر الناس بأيام الله تعالى، ويذكِّر الناس بآلاء الله تعالى ونعمه سبحانه، ولكل ذلك أثره في النفوس، وله اعتباره في دين الله تعالى.

أما التذكير بأيام الله تعالى، فلقد قال الله تعالى لموسى عليه السَّلام: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: ٥] وهذا يدخل تحت قوله سبحانه لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ فقد أمره سبحانه بالتذكير المطلق، ودخلت أنواع التذكير كلها، ومنها التذكير بأيام الله سبحانه.

أما المراد بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ فهي أيام وعده ووعيده، وأيام ميثاقه وعهوده، وأيام مِنَحِه ومِحَنِه، وأيام نِعَمِه ونِقَمِه.

وهذا ما دلت عليه الآيات القرآنية من أيام الوعد الماضية والآتية، وأيام وعيد الله الماضية والآتية.

فمن جملة أيام الوعيد الآتية قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣٠] وغير ذلك مما تقدم بيانه والحمد لله.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يذكِّر الناس بأيام وعده ووعيده سبحانه، فيذكرهم بالجنة والنار، فإن الجنة وعد، والنار وعيد.

ومن جملة ما جاء في أيام وعده سبحانه في الآخرة، وما جاء في بشائر أهل الإيمان قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤١ـ٤٤].

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ أي: يوم يلقى المؤمنون الذاكرون ربَّهم، فإنّ تحيتهم منه سبحانه هي: السلام عليهم، فذاك يوم من أيام وعد الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أي: ليكن ذكركم لله تعالى مُستغرقاً أوقاتكم كلها، بحسب ما يقتضيه كل وقت من أنواع الذكر، من التسبيح والتحميد وتلاوة القرآن، وصلوات النافلة، وصلوات على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كل ذلك كما جاء بيانه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسيأتي بيانه ضمن البحث حول ذكر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ يعني: أن هذا ما يترتب من جزاء المؤمنين المكثرين لذكر الله تعالى، إذ ينالون صلاة الله تعالى عليهم، وصلاة ملائكته سبحانه عليهم.

وما أعظم صلاة رب العالمين على عبده، وما أعظم صلاة ملائكة الله على العبد المؤمن الذاكر !! نعم قال سبحانه: ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ أي: من ظلمات الدنيا وهمومها وكُرُباتها وشدائدها إلى النور.

و﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في عالم البرزخ إلى النور، و﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ في مواقف الآخرة إلى أن تلقوا ربكم ويحييكم بالسلام. قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾.

وأول لقاء يلقى العبد ربه هو حين موته، إذ تصعد روحه إلى بارئها ويَلقى ربه.

ونعمت الروح التي تلقى ربها وهو عنها راض، وبئست روح الكافر التي تلقى ربها وهو عليها غضبان.

إذاً فأيام لقائه سبحانه هي من جملة أيام وعده سبحانه للمؤمنين، إذ يُقبل عليهم سبحانه ويتلقاهم بالتحية والسلام عليهم.

ومن جملة أيام الوعد للمؤمنين وأيام الوعيد للكافرين قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧-٧٠].

يعني أنه سبحانه ينادي المؤمنين يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ ويطمئنهم أنهم في أمان الله وسلامه، فهذا يوم من أيام وعده تعالى للمؤمنين بالأمان والاطمئنان والنعيم.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: أنَّ كل خليل لم تقم خلته ومحبته على تقوى الله تنقلب هذه الخلة يوم القيامة إلى عداوة وبغضاء.

وقولـه تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ جمع خليل، والمراد الأحباب المتـوادون فيما بينهم، المجتمعون على بعضهم، ستنقلب خلّتهم ومحبتهم وصداقتهم إلى عداوة، وتلاعن وسبّ وشتم يوم القيامة، إذ لم تكـن خلتـهم لبعضـهم مبنيّة على إيمان بالله وتقوى له سبحانه.

وهذا هو قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين بنوا محبتهم على تقـوى الله، واجتمعـــوا علـــى تقـــوى الله، وطاعـــة رســـوله صـــلى الله عليـــه وآله وسلم.

وفي هذا قال سيدنا علي[1] رضـي الله عنـه وكـرم الله وجهـه: **خلـيلان مؤمنان، وخليلان كافران:**

فأما الخليلان المؤمنان: ـ أي: رجـلان مؤمنـان متحابـان في الله تعـالى ـ مات أحدهما فلقي الله تعالى وهو عنه راضٍ، وأكرمه ربـه فقـال: اللـهم إنَّ لي أخاً في الدنيا اللهم لا تُمِتْه حتى تُرضيَه كما أرضـيتني ـ يعـني: أن تتوفـاه علـى الإيمان وتكرمه ـ حتى إذا مات صاحبه جمع الله بين أرواحهمـا، فقـال تعـالى: لِيُثْنِ كل منكم على صاحبه، فيقول كل منهم: نَعم هذا الخليل خليلـي، ونَعَـمْ هذا الصاحب صاحبي، كان يأمرني بطاعـة الله، وبطاعـة رسـول الله صـلى الله عليه وآله وسلم، ويثني كلٌّ على صاحبه بما يعلمه من خير.

وأما الخليلان الكافران: فإذا مات أحدهما ولقي العذاب وسـخطَ اللهِ، فيقول: يارب إنَّ لي خليلاً في الدنيا كان يضلّني، ويطغـيني، ويمـنعني مـن الصلاة والإيمان، اللهم أضله كمـا أضـلّني، واسـخط عليـه كمـا سـخطت

---

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والإمـام عبـد الـرزاق وغيرهـم، كمـا في (الـدر المنثور) للسيوطي، ومثل هذا لـه حكم المرفوع.

عليَّ، فيموت ذاك الكافر، فيجمع الله بين أرواحهما، ثم يقال: لِيُثْنِ كلٌّ منكم على صاحبه، فيقول كلٌ منهم: بئس الخليل أنت خليلي، بئس الصاحب أنت صاحبي، كنت تمنعني من طاعة الله ورسوله، كنت تضلّني وتزيّن لي المعاصي.

فتنقلب المحبة بينهما في الدنيا إلى عداوة يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فأول ما تنقلب المحبة بينهما إلى عداوة في عالم البرزخ.

وأول ما تظهر آثار المحبة الإيمانية بين المؤمنين في عالم الدنيا في عالم البرزخ، فالمحبة الإيمانية تنفع في الدنيا، وبعد الموت، وفي الحشر والنشر، وفي عالم الجنة، ولقد جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث كثيرة تُبيّن فضل التحابب بين المؤمنين وخطر التباغض والشحناء بينهم.

فَمِنْ ذلك أنَّ من أراد أن يحبَّه الله تعالى فليحبَّ المؤمنين والصالحين من عباد الله تعالى؛ مَحَبَّةً إيمانية لصلاحهم وتقواهم.

روى مسلم في (صحيحه)(١) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ رَجُلاً زَارَ أَخَاً لَهُ فِيْ قرية أخرى، فَأَرْصَدَ لَهُ على مدرجته مَلَكَاً ـ يعني: بصورة رجل ـ.

فلما أتى عليه قال: أَيْنَ تُرِيد ؟

قَالَ: أُرِيْدُ أخاً لي في هذه القَرْيَةَ.

---

(١) في كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الحب في الله تعالى /٢٥٦٧/ (٥/٢٥١٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وينظر في مصنف الحافظ عبد الرزاق (١١/٢٠٣).

قال: هَلْ لَكَ عليه من نعمة تَربُّها ؟

قَالَ: لاَ. غير أني أحببته فِيْ الله عز وجل.

قال: فَإِنيْ رَسُولُ الله إِلَيكَ، بأَنَّ الله تَعَالَى قَدْ أَحبَّكَ كَمَا أَحَبَبْتَه فيه».

ومن أراد أن تثبت له محبة الله تعالى على وجه لا يمحى ولا يبدّل؛ فعليه أن يحب أولياء الله تعالى في الله، وليحبَّ المؤمنين لإيمانهم وصلاحهم لا لأغراض شخصية أو دنيويّة.

وقد روى أحمد والترمذي، وأصله في صحيح مسلم[1]، عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيِّ رضي الله عنه ـ وهو من التابعين ـ قَالَ: دَخَلْتُ جامع دِمَشْق فإذا فتىً شابٌ، براق الثنايا، وإذا الناس معه، وإذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه، وصدروا[2] عن قوله، فسألت عنه، فقيل: هذا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَّرْتُ ـ أي: ذهب باكراً إلى الجامع ليجتمع به بدون زحام ـ قال: فرأيته قَدْ سَبَقَنِي بالتهجير، فَجِئتُ إِلَيْه فَسَلَّمْتُ عَلَيْه وقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّكَ لله ـ يعني: لأنه من أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وله شأنه ومقامه ـ.

فَقَالَ له معاذ رضي الله عنه: آللَّهِ ـ أي: بالله تحبني في الله ؟ ـ.

قال: والله. فاستحلفه ثلاثاً.

قال معاذ رضي الله عنه: أبشّرك بأني سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

---

(١) (المسند) (٥/٢٤٧) (السنن) في كتاب الزهد، باب ما جاء في الحب في الله /٢٣٩١/ (٧/١١٩) و(صحيح) مسلم في كتاب البر والصلة والأداب، باب في فضل الحب في الله تعالى /٢٥٦٦/ (٥/٢٠١٥) وكلهم بمعناه، ونصه هنا في (الموطأ) للإمام مالك رحمه الله تعالى، باب ما جاء في المتحابين في الله.

(٢) أخذوا واعتمدوا.

عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قال اللَّهُ تبارك وتعالى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فِيَّ - أي: يزور بعضهم بعضاً في الله ولله تعالى - والمتَبَاذِلِينَ فِيَّ» أي: يبذلون النفس والنَّفِيْس في الله ولله.

وهذه المحبة الإلّهية أوجبها سبحانه على نفسه لهؤلاء، ومن أوجب الله تعالى محبته على نفسه فلا تُمحى ولا تبدّل أبد الآبدين. اللهم اجعلنا منهم - آمين.

وكذلك من أراد أن ينال حق المحبة من الله تعالى فليحبَّ أولياء الله تعالى، والمؤمنين بالله في الله ولله.

وليحذر كل مؤمن أن يبغض غيره من المؤمنين الصالحين، إذ أن إيمان المؤمن يُطالبه أن يُحب المؤمنين كلهم لإيمانهم، والصالحين لصلاحهم، وإلاّ فمحبة كلٍّ منهم على حسب إيمانه وصلاحه وتقواه.

روى الإمام أحمد[1] عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول عن الله عزَّ وجلَّ قال: «حقت محبتي للمتحابين فيَّ، وحَقَّتْ مَحَبَّتي للْمُتَزَاوِرِيْنَ فيَّ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِيْنَ فِيَّ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَواصِلِيْنَ فِيَّ».

ومن المواصلة في الله أن تصل أخاك في الله، وتتفقد أحواله، وتسأل عن حاجاته، وتُعينه في الملمات وهكذا.

ومن أراد أن يُدخله الله في ظلال أنواره ورحمته: فعليه أن يتحقق بالمحبة في الله تعالى.

وإن لله تعالى ظلالاً كثيرة متنوعة: منها ظلال الأنوار، وظلال الأسرار، وظلال الرحمات، وظلال البركات. ولكلٍّ منها اعتباره وأحكامه.

---

(١) (المسند) (٥/٢٣٩).

ففي الحديث(١): «يقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة: أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي؟ الْيَومَ أُظِلُّهُم فِيْ ظِلِّي يَومَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي».

فهم في ظلال رحمة الله تعالى وأنواره يوم تشتدّ الأهوال والشدائد على غيرهم من أهل الموقف.

وروى البخاري ومسلم(٢) أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم الله في ظله يَومَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّه: الإِمَامُ الْعَادِلُ» يعني: الحاكم العادل «وَشَابٌ نَشَأَ بِعِبَادَةِ الله» لأنه جاهد نفسه وأوقفها عند حدود الله؛ رغم قوة شهوته وميوله.

قال: «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ» أي: يحب الصلاة فيها، والجلوس فيها لذكر الله تعالى، وما حبُّه للمساجد إلا حبٌّ لرب المساجد، ألا ترى إلى ذلك الذي يحبُّ بيت فلان، فما أحبَّ بيته إلا لحبِّه صاحب البيت.

وإن المساجد هي بيوت الله تعالى، فيها يُعبد الله تعالى ويُذكر، وهي مواضع تجلِّياته وأنواره سبحانه، فمن أحبَّها لهذا السَّبب فقد أحبّ الله تعالى.

قال: «وَرَجُلاَنِ تَحَابّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ» يعني: أنَّ كُلاًّ منهما أحب الآخر لإيمانه وصلاحه، وكان ذلك سبب اجتماعهما وتواصلهما، ولم تجمع بينهما شهوات الدنيا وما فيها.

قال: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتَ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ـ أي: إِلَى نَفْسِهَا ـ فَقَالَ:

---

(١) الذي رواه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والأداب، باب فضل الحب في الله تعالى /٢٥٦٦/ (٢٥١٥/٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري في كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد /٦٦٠/ (١٤٣/٢) مسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة /١٠٣١/ (١٠٦٩/٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

إِنِي أَخَافُ الله» أي: امتنع عن فعل المعصية خوفاً من الله تعالى، بعد أن تهيَّأت وتيسَّرت له أسباب الفجور.

قال: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُه يَمِيْنُه» أي: ابتعد عن الرياء والسمعة وأخلص في صدقته لله تعالى.

قال: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله تَعَالَى خَالِيَاً ـ أي: عَنِ النَّاسِ، فَخَشَعَ قَلْبُهُ ـ ففَاضَتْ عَيْنَاهُ» أو أنه ذكر الله تعالى خالياً قلبُه عن الأغيار؛ وإن كان بجسمه بين الناس، فَخَلّى قلبه مع الله فذكر الله فخشع قلبه وفاضت عيناه، فَمِثْل هذا يُكرمه الله تعالى يوم القيامة، ويجعله في ظلاله.

واعلم أيها المؤمن العاقل أن دخولك الجنة موقوف على صفاء قلبك تجاه خلق الله المؤمنين، وطهارة قلبك من الغل والحقد، والغش والحسد والبغضاء.

فمهما صليت وصمت، وذكرت الله، وتصدقت، إلا أنك تحمل على فلان وفلان، وتتكلم في فلان؛ فإنّ ذلك يمنعك من دخول الجنة حتى تطَّهر من هذه الصفات الذميمة، ومَنْ لم يتب في الدنيا وَيَطْهُر ويطيب فإنّ أهوال البرزخ تطّهره، وَمَنْ لم يَطْهُر لكثرة وتحكم صفات الحقد فيه، فإنَّ أهوال الحشر تطهِّره، وهكذا إن لم يطهر على الصراط، فإن غمسات جهنم تطهره، حتى إذا طهر وطاب أُذن له بدخول الجنة، وهذا ما بيّنه صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره[1]: «دَبَّ إِلَيكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قبلكم الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وهِيَ الْحَالِقَةُ، لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ؛ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم: أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ».

---

(١) الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب /٥٧/ حديث رقم /٢٥١٢/ (٧/١٩٩)، والبزار (مجمع الزوائد) (٨/ ٣٠) عن سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه.

واعلم أن مما يجب على كل مؤمن إذا بلغه شيء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصغي بسمعه، ويتفهَّم بعقله ما يرد عليه من آيات الله تعالى، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن فيها مصالح العباد وسعادتهم في الدنيا وفي الآخرة.

ففي الحديث المتقدم يخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر غيبيّ سيقع في هذه الأمّة، وخاصة آخر الزّمن، وهو الحقد والحسد والبغض، الذي سينتشر فيما بينهم، وسيكون من أسباب ضعف شوكتهم وتمزّقهم وتشتّتهم، وهذا ما حصل في الأمم السابقة.

فلقد نبّه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته إلى ذلك، وحذّر من خطورة البغض والحسد بين المؤمنين، وأيّ سعادة أو هناء تُرجى لمجتمع انتشرت بين أفراده البغضاء والتنافر ؟!!

ثم بيّن صلى الله عليه وآله وسلم خطورة ذلك على الأمة، ودلَّ على سبيل انتشار المحبة والمودة فيما بين المؤمنين فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا» وكأنه قيل: نحن مؤمنون يا رسول الله.

فبيّن الرسول أن الإيمان يشمل الاعتقادات القلبيّة، والأمور العمليَّة كالصلاة وغيرها، ويشمل أيضاً الأخلاق والآداب.

وَمَنْ لم يتحقّق بشُعَب الإيمان كلها فإنَّه ممنوع من دخول الجنة حتى يطهر ويطيب.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا» أي: لا تؤمنوا حق الإيمان، وإن صليتم وصمتم وتصدقتم «حَتَّى تَحَابُّوا» أي: يحب بعضكم بعضاً.

ثم بيّن صلى الله عليه وآله وسلم طريقة تحقيق ذلك فقال: «أفلاَ أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ».

فإذا انتشر وشاع السلام فيما بين المؤمنين، صفت قلوبهم، وكان ذلك مَدعاة للتحابب والتناصح فيما بينهم.

وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم خطورة البغض والشحناء، وأنها تمنع العبد عن الإجابة والقبول عند الله تعالى، ومَنْ أراد أن يُفتَح له باب العطاء فليحبَّ كلَّ مؤمن لإيمانه، وَمَنْ لم يتحقَّق بذلك فيُقَال له: ما الفرق عندك بين المؤمن والكافر ؟!!

روى الطبراني، وابن حبان في (صحيحه)[١] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَطَّلِعُ الله تعالى إلى جَمِيع خَلْقِهِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَيَغْفِرُ لجَمِيع خَلْقِهِ ـ أي: أهل الإيمان ـ إلاَ لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ».

والمشاحن هو: مَنْ كان بينه وبين أخيه شحناء وبغضاء لأغراض شخصية أو دنيوية.

ومما جاء في فضل ليلة النصف من شعبان:

ما رواه البيهقي[٢] عن السيدة عائشة رضي الله عنه قالت: قَامَ رسول

---

(١) الطبراني (مجمع الزوائد) (٨/٦٥) برجال الثقات، ابن حبان /٥٦٣٦/ عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) انظر (الترغيب) للحافظ المنذري في باب الترغيب في صوم شعبان.
أما اللفظ المشهور: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك، من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» فهو عند الإمام مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود /٤٨٦/ عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وأبي داود في كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر /١٤٢٧/ عن سيدنا علي رضي الله عنه، والترمذي في كتاب الدعوات /٣٤٩١/ عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

الله صلى الله عليه وآله وسلم من الليل، فصلى فَأَطَالَ السُّجُودَ، وَسمعته يَقُولُ فِيْ سُجُودِهِ: «أَعُوذُ بعفوك مِنْ عقابك وأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ إليك، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» وبعد أن سلَّم وفرغ من صلاته قال: «يا عَائِشَةُ أَتَدْرِيْنَ أَيَّ لَيْلَةٍ هَذه» ؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هَذِهِ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، إن الله عز وجلّ يطلع على عباده في ليلة النصف من شعبان: فيغفر للمستغفرين، ويرحم المسترحمين، ويؤخر أهل الحقد كما هُمْ».

وروى ابن ماجه في (سننه)[1]، عن سيدنا علي رضي الله عنه وكرّم وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَقُومُوا لَيْلَهَا وَصُومُوا يَومَهَا ـ أي: اليوم الذي يليها ـ فَإِنَّ اللَّهَ تعالى يَنْزِلُ فِيهَا لِغُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى السَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: أَلاَ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ، أَلاَ من مُسْتَرْزِقٍ فَأَرْزُقَهُ، أَلاَ من مُبْتَلًى فَأُعَافِيَهُ، أَلاَ كَذَا أَلاَ كَذَا حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ».

وإنَّ ليلةَ النصف من شعبان ليلةٌ يتجلى الله تعالى فيها على عباده بالغفران والرحمة والعطاء والفضل.

ويبدأ التجلي من أول الليلة من غروب الشمس؛ حتى طلوع الفجر.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَقُومُوا لَيْلَهَا» ليس المراد إحياء تلك الليلة بعدم النوم مطلقاً، وإنما نَدَبَ رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان /١٣٨٨/ (١/٤٤٤).

وسلم ورغَّبَ إلى قيام ليلها ـ يعني: إلى جزء واسع من الليل ـ ويحسن للإنسان أن يقوم أول تلك الليلة وآخرها، وَمَنِ استطاع إحياءها فليفعل.

أما ليلتا العيد، فقد رغَّب صلى الله عليه وآله وسلم إلى إحياء ليلتي العيد بقيام تلك الليلة كلّها، فقال: «مَنْ أَحْيَا ليلة الفطر وليلة الأضحى: لم يمت قَلْبُهُ يَومَ تَمُوتُ القُلُوبُ»[1] يعني: يكون في أمان الله من الفتن والضلالات.

واعلم أن الله تعالى أجلّ وأكرم من أن يدعوك إلى سؤاله ودعائه ثم يحرمك الإجابة والعطاء. وما على الإنسان إلا أن يتوب من الذنوب التي تحجبه عن الفضل والعطاء الإلّهي، وهي: قطيعة الرحم، والشحناء بين المؤمن وأخيه، وعقوق الوالدين، والإدمان على الخمرة.

ونسأل الله تعالى التوفيق للعمل الصالح، والكلم الطيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

(١) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٢/١٩٨) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قوة تذكيره ووعظه

صلى الله عليه وآله وسلم

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبذل جهده في التذكير والوعظ، حتى يتذكر الغافل، ويرتقي المؤمن المتذكِّر، إذ لا بدّ للتذكير من أثر في النفس كما قال سبحانه: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ [عبس: ٤] وقال جلَّ وعلا: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فالتذكير إن كان للغافل فيتنبه، وإن كان للجاهل فيتعلم ويعتبر، وإن كان للعالم فيزداد فهماً وترقِّياً وكمالاً.

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحرصون كل الحرص على سماع تذكيره ووعظه صلى الله عليه وآله وسلم، مع صفائهم وطيب قلوبهم ورقة نفوسهم، ولا يستغنون عن تذكير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل إذا سمعوا تذكيره الشريف سمت نفوسهم، وارتقوا في مدارج الكمالات.

وإن لتذكير ووعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أثراً كبيراً في النفوس والقلوب، وذلك أولاً لأنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم إنّ لكلامه صلى الله عليه وآله وسلم روحاً تسري في القلوب، كما أَنَّ حاله صلى الله عليه وآله وسلم عند التذكير والوعظ يَبعث الخشية والمهابة والوجل في قلوب الصحابة.

فكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكّر تأثروا بتذكيره صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا ذَكّرَ ذَكّرَ عَلَى مَرأى وشهود، وليس تذكيره صلى الله عليه وآله وسلم تذكير الغافلين أو المحجوبين.

بل كان يُذكّر بالنار والجنة وما هنالك من أيام الله، وهو على مرأى ومشهد منها، ولذلك كان له صلى الله عليه وآله وسلم حالٌ عجيبة حين يُذكّر الناس أو يعظهم.

ومن ذلك ما روى أحمد في (مسنده)[1]، عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يخطب في أصحابه يذكّرهم بأيام الله تعالى، وكأنه منذر جيش، يُعرف ذلك في وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ــ يعني: أن الصحابة كانوا يرون أثر التذكير في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

وفي الصحيحين[2] عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، أن رسول الله قال يوماً: «اتَّقُوا النَّارَ» ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ـ أي: التفت ـ.

ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ» ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ.

ثم قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ».

قال عدي: فلقد عرفنا ذلك في وجهه، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ ينظر إليها.

ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

---

(١) (المسند) (٣/٣١١) وهو عند مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة /٨٦٧/ (٢/٩٢٣).

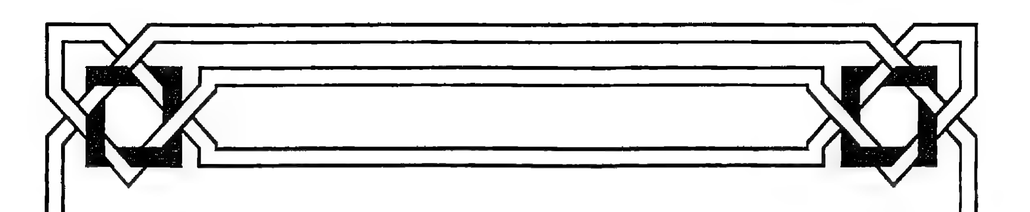
(٢) البخاري في كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب /٦٥٤٠/ (١١/٤٠٠) ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة.. /١٠١٦/ (٢/١٠٥٦).

فكان صلى الله عليه وآله وسلم تتمثل له العوالم الغيبية فيراها، فَيُـذكّر ويعظ عن مشاهدة ومعايَنَةٍ، ويظهر أثر ذلك عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين.

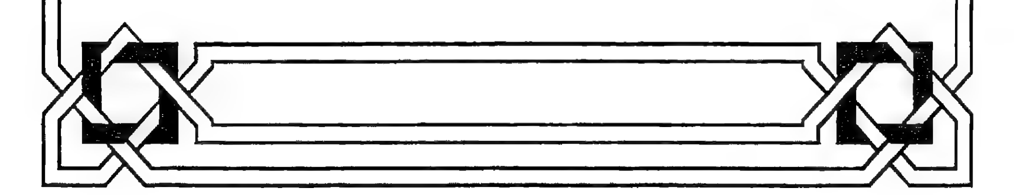
* * *



المحاضرة الخامسة

في

التذكير بآلاء الله تعالى



التذكير بآلاء الله تعالى

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكّر الناس بآيات الله تعالى، وبأيام الله، وبآلاء الله، يعني: بفضل الله ونعمه على عباده، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣] وقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تنكروها بل اذكروها بشكر الله عليها.

وإنّ نعم الله على الإنسان لا تحصى كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وإن أعظم النعم الإلهية على المؤمن هي نعمة الإيمان.

ولا يعرف الإنسان ذلك إلا إذا تذوّق حلاوة الإيمان، ورأى عاقبة الإيمان، وجزاءه في الآخرة، فيعرف عندئذ قيمة وفضل نعمة الإيمان.

وهناك نعمة السمع، ونعمة البصر، ونعمة الصحة والعافية من الأمراض والبلاء، وهناك نعمة المال إنْ أحسن الإنسان التصرف فيه على وجه مشروع.

ولا تظنّنَّ أنَّ نعمة المال لمن وسّع الله عليه في ماله أنها أعظم النِّعم، إذ لو أنَّ غنياً فَقَدَ بصره أو سمعه، وأنفق جميع ماله في العلاج والدواء لَمَا استطاع أن يردّ بصره أو سمعه حتى يشاء الله تعالى.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُذَكِّر الناس بآلاء الله تعالى، ويذكرهم بفضل الله تعالى عليهم، ويذكرهم بكرمه تعالى، فمن ذلك ما رواه الشيخان[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَمِينُ الله مَلأَى، لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاء اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ المِيْزَانَ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ».

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَمِينُ اللَّهِ مَلأَى» أي: بالخيرات كلها.

«لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ» أي: لا تنقص مهما أنفق على الخلائق كلها.

«سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» أي: تسحّ يمينه جلّ وعلا في الليل والنهار بالفضل والنعم والكرم على خلقه، وهي تسحّ عليهم سحّاً بلا شحّ ولا انقطاع، منذ خلق الخلق إلى ما شاء الله، ولا ينقص ذلك مما في يمينه تعالى أبداً.

وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم سَعة فضل الله وكرمه على خلقه، وأنَّ كرم الله تعالى وجوده واسع كبير لا حد له ولا انتهاء.

فقد روى مسلم في (صحيحه)[2] عن أبي ذر رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: فيما يرويه عن ربه جلَّ وعلا أنه قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَ مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ» مِنْ هذا تعلم أَنَّ

---

(١) البخاري في كتاب التفسير باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود/٧] /٤٦٨٤/ (٨/٣٥٢)، ومسلم كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف /٩٩٣/ (٢/١٠٤١).

(٢) في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم /٢٥٧٧/ (٥/٢٥٢١).

الكافر لو سأل الله تعالى الهداية بصدق لهداه الله تعالى، ولكنه لا يريد الهداية، بل يُحِب أن يبقى على شهواته وهوى نفسه الفاسد، ويريد أن يبقى على ما هو عليه من الضلالة، فيزيده الله ضلالاً كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

أما أهل الإيمان، الذين يسألون الله الثبات عليه والزيادة منه، فيزيدهم الله إيماناً وهدىً، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] اللَّهُمَّ اهْدنا فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنا فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لنا فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنا وَاصْرِفْ عَنا شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي بِالحَقِ وَلاَ يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لاَ يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، ولا يَعِزُ من عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا قَضَيْتَ، نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ.

قوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ» يعني أَنَّ كل إنسان على حسب مقامه لا يخلو عن الوقوع في الصغائر والهفوات والغفلات، ومن ذنوب أخرى، فلا غنى لكل إنسان عن مغفرة الله تعالى، وسبيل ذلك أن يستغفر الله تعالى، كما بَيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

«يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَ مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَ مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي» يعني: أن حسنات العبد له وسيئاته عليه، والله تعالى غني عن ذلك كله، كما قال سبحانه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦].

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ - وفي رواية

الترمذي[1]: «وَحَيِّكُمْ وَمَيِّتِكُم، وَرَطْبِكُم ويابِسِكُمْ» ـ قَامُوا فِي صَعِيْدٍ وَاحِدٍ» أي: في أرض واحدة «فَسَأَلُونِي» أي: سألوا الله تعالى كل حاجاتهم في زمن واحد. قال: «فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ».

وقد **يقال**: إنه ينقص شيء من الماء لا يذكر، ولكن يمكن تصوره في العقل؟

فيقال: إنّ هذا الشيء الصغير الذي نقص سيعود في الحقيقة إلى البحر بتبخره وتكثفه، فهو نقص تصوّري لا نقص حقيقي.

فلما أمر سبحانه العباد أن يذكروا نعمته عليهم فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٣١] ولما ذكّر رسولُ الله بآلاء الله ونعمه: ينبغي على العاقل عندئذ أن يسرع إلى سؤال الله من فضله، كما قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢] فهو سبحانه ذو الفضل العظيم الذي لا ينقص ما عنده.

وقد أمر سبحانه عباده بالدعاء، وفتح لهم باب الرجاء، وعلى قدر همّة العبد وسؤاله يعطيه الله تعالى من الأجر والفضل، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود: ٣] ومَنْ زَعَمَ أنه سأل الله ودعاه في كذا وكذا من حاجاته ولم يجد إجابة أو عطاءً؟

فيُقال له: إنّ إجابة الله تعالى لك تكون على مقتضى علمه وحكمته سبحانه، وبما فيه نفْعُكَ وصلاح أمْرِكَ، ولو أَجَابَكَ لِمَا تُرِيدُ أحياناً لكان

---

(١) في كتاب صفة القيامة /٢٤٩٧/ (١٨٧/٧).

في ذلك ضرر لك؛ لا يبدوا لك أنت، لكنه هو العليم الحكيم، الذي يعلم مصالح عباده، ويجيبهم لِمَا فيه صلاحهم ونفعهم.

وإليك مثالاً للتقريب إلى الفكر والاعتبار به لا للتشبيه والمماثلة :

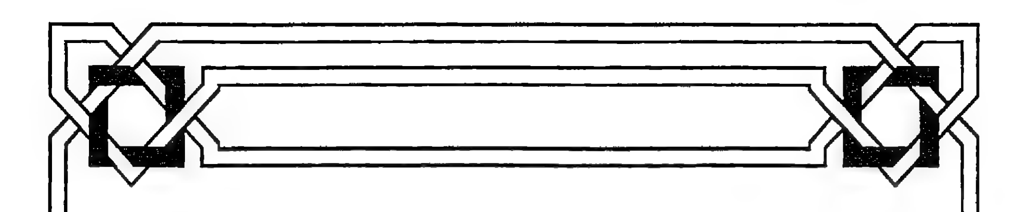
لو أَنّ ولداً صغيراً غَير مميز رأى مال والده الغني، فطلب منه أن يُعطيه شيئاً كثيراً، فما هو موقف الوالد منه ؟ إنْ أعطاه فهو جاهل أحمق، لأنّ الولد سيبعثر المال ويضيّعه، وإنْ منعه ولم يعطه شيئاً فقد أحزنه وأبكاه، نَعم إنّ التصرف اللائق في مثل هذا الموقف أن يعطيه شيئاً يسيراً من المال، يشتري به الولد حلوى مثلاً، أو يدّخرها ويفرح بها، أَو أَنّ الوالد قد يَعد ابنه بالكلام الطيب، ويدخل السرور على قلبه بشيء آخر، حتى إذا كبر الولد شيئاً فشيئاً، وراح عقله ينمو في مراحل النضوج والكمال، فإنّ الوالد يتعامل مع ذلك بزيادة العطاء لابنه، حتى إذا بلغ أشده، ورأى والده منه حسن التصرف فربما أعطاه الوالد سؤاله وزاده.

وهكذا ـ ولله المثل الأعلى ـ فإنّ الله تعالى يُعطي عبده السائل حاجاته بنسب معينة، حسب ما يعلم من مصلحته، حتى يرتقي به الحال شيئاً فشيئاً وهكذا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

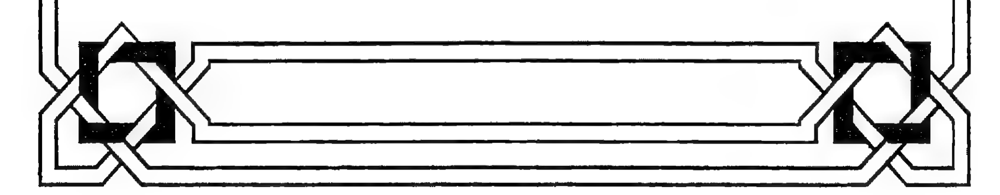
* * * * *



المحاضرة السادسة

في

التذكير بأيام الله تعالى



وعده للمؤمنين بالجنة، ووعيده للكافرين بالنار، وقد ذكَّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجنة، ورغَّب فيها، وذكر نعيمها وأوصافها، وذكّر بالنار وخوَّفَ منها، وأمر الصحابة أن يسألوا الله الجنة، ويستعيذوا به من النار.

وكان من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إِنِي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَولٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ»[١].

ومن ذلك أيضاً بيانه صلى الله عليه وآله وسلم لأوصاف الجنة، فقد رَوى الإمام أحمد والترمذي[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله الجنة ما بِنَاؤُهَا ؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لَبِنَةٌ مِنْ فضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلاَطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ، وحَصْبَاؤُهَا اللُّؤلؤ وَالْيَاقُوت، وَتُرْبَتُهَا الزَّعَفَرَانَ، مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ وَلاَ يَيْأَس، ويخلد ولا يموت، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُم، وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُم».

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لَبِنَةٌ مِنْ فضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ» أي: مِن فضةِ وذهبِ الجنة، والملاطُ هو الطينة التي تُمسك اللبنتين إلى بعضها،

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٦/١٤٧) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) (المسند) (٢/٣٠٤) السنن في كتاب صفة الجنة /٢٥٢٨/ (٧/٢١٠) في حديث طويل.

وهذا الملاط هو المسك الأذفر، وهو من مسك الجنة، والأذفر هو الخالص القوي الرائحة.

«وحَصْبَاؤُهَا» وهي: حصى أرض الجنة، التي يطأ عليه أهل الجنة، فهو من اللؤلؤ والياقوت، وترابها الناعم بين الحصباء هو من الزعفران.

وتفكر أيها العاقل في كرامة المؤمن على الله تعالى، وفضل نعمة الإيمان، فإن أهل الجنة يطؤون بأقدامهم فوق اللؤلؤ والياقوت، الذي يحرص أهل الدنيا على اقتنائه والحفاظ عليه في الخزائن الخاصة، ويتفاخرون و يتباهون به.

وذلك لأن الجنة دار ضيافة الله تعالى ربِّ العالمين، وهي دار السلام، وسقفها عرش الرحمن، وهي مقعد الصدق عند مليك مقتدر.

وفي الجنة مُرافقة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفيها تجليات الله تعالى ومحاضراته وسلامه جلَّ وعلا، فهو سبحانه يحاضر أهل الجنة، أي: يكلمهم كِفاحاً بلا حجاب ولا ترجمان، ويُغدق عليهم ألوان النعيم والعطاء الذي لا ينفد.

وفي الجنة تجليات رب العالمين على أهل الجنة بالرؤيا والرضوان، وفيها من النعيم مالا يعلمه إلا الله تعالى.

وَمَنْ عَلِمَ هذا وآمن به فينبغي عليه أن يسارع إلى أن يكون من أهل الجنة، بأنْ يعمل عمل أهل الجنة، ويتحقق بصفاتهم حتى يدخلها، وينال الفوز العظيم.

وينبغي على كل مؤمن أن يسأل الله الجنة، كما علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، في كثير مما ورد عنه في أدعيته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن[1] ذلك أَنَّ الأعرابي لَمَّا سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان معاذ رضي الله عنه معه قال: يا رسول الله إِنِّي لاَ أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلاَ دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، إِني أَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ النَّارِ. يعني: أنه لا يعلم ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا ما دعا به معاذ رضي الله عنه، غير أنه سأل الله الجنة واستعاذ به من النار.

فَقَالَ لـه رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: «حَوْلَهَا نُدَنْدِن» يعني: كلنا نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار.

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُذكر الصحابة بالجنة والنار، وليس أمر التذكير والوعظ يقتصر على عوامِّ الناس فقط، فإنَّ في الصحابة العرفاء والأولياء والصالحين، والصديقين والأكابر رضي الله عنهم أجمعين.

وروى الترمذي[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَقَالَ لي: يَا مُحَمَّدُ[3] أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلاَمَ، وَبَشِّرهُم أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، ولاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله الْعَلِيِّ العَظِيْم».

---

(١) ينظر الحديث في (المسند) (٣/٤٧٤) و(سنن) أبي داود في كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة /٧٩٢/ (١/٥٠١).

(٢) في كتاب الدعوات /٣٤٥٨/ (٩/١٤٨) إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم «والله أكبر» وعند الطبراني زيادة: ولا حول ولا قوة إلا بالله» كما في الترغيب /٢٢٩٣/.

(٣) وقد أراد بهذا النداء الوصف لا الاسم العَلَمي المجرد، والمعنى: يا صاحب المقام المحمود الذي يَحمده الأولون والآخرون.

فلقد أرسل سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، أرسل لهذه الأمة المحمدية، ولكل مؤمن ومؤمنة سلاماً وبشارة، بواسطة حبيب الرحمن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أما ردُّ السلام فأن نقول: على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

وقوله: «وَأَنَّهَا قِيعَانٌ» أي: أراضٍ واسعة كبيرة صالحة للزراعة، ومَن أراد الغرس فيها والزراعة فليكثر من قول: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، ولاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَ بِالله الْعَلِيِّ العَظِيْم».

وَمَن ثبّت الله تعالى له غرسة في الجنة: فقد ثبت عليه الإيمان حتى يموت على الإيمان، ويدخل الجنة، ويتمتع وينعم بغراسه الذي غرسه فيها لمَّا كان في الدنيا.

وفي هذا تنبيه للمؤمن أن يكثر من قوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، ولاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَ بِالله الْعَلِيِّ العَظِيْم» خاصة في شهر رجب، لأنّ الإسراء والمعراج وقع في شهر رجب، وجاءت هذه البشارة في هذا الشهر الأغرّ.

وكلمة رَجَبَ من الترجيب وهو: التكريم والتعظيم، وإن الملائكة تُكْثر من الترجيب لله تعالى في هذا الشهر، أي: تكثر من تسبيح الله وتقديسه سبحانه.

وينبغي للمؤمن أن يتشبه بملائكة الرحمن عليهم السلام، ويكثر من هذه الصيغة في هذا الشهر.

* * * * *

ومن التذكير بأيام الله تعالى

التذكير بأيام وعده ووعيده

وهي وعده للمؤمنين بالبشائر والمكارم، ووعيده للكافرين بالعذاب والخذلان، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣١].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي: واذكر لهم يا رسول الله وذكِّرهم بذلك اليوم الذي ﴿تَجِدُ﴾ فيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ فيتمثل عمل الخير بصورة حسنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: تجد أيضاً ما عملت من سوء محضراً ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا﴾ أي: النفس ﴿وَبَيْنَهُۥٓ﴾ أي: ذلك اليوم.

﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي: حينما ترى النفس عملها السيئ، تودُّ لو أن بينها وبين ذلك اليوم زمناً طويلاً لا آخر له.

وتتمنى النفس أيضاً أن يكون بينها وبين ما عملت من سوء أمداً بعيداً، فالضمير في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهَا﴾ عائد للنفس.

وقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُۥٓ﴾ عائد إما إلى اليوم، أو إلى العمل السيئ، ويكون المعنى: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير في الدنيا تجده يوم

القيامة محضراً، وما عملت من سوء في الدنيا تجده أيضاً محضراً، وَتَوَدُّ لو أن بينها وبين عملها السيئ المحضر أمامها أمداً بعيداً.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ ومن رأفته بالعباد أن ذكّرهم بذلك اليوم، وأمر رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أن يَذكُر لهم ذلك اليوم، ويبين لهم عما يجري في ذلك اليوم، قبل أن يأتي عليهم ذلك اليوم؛ رأفة ورحمة بهم.

واعلم أيها المؤمن أن الأعمال والأقوال، والأحوال والهمم، والنيّات والمعاني، كل ذلك يتمثل بصور محسوسة، يراها الإنسان في عالم الآخرة، وهذا يرجع إلى عالم المثال.

وأول برزخ من برازخ الآخرة تنكشف فيه الأمور الغيبية، ويرى فيها صور المعاني، والأقوال والأعمال، والعقائد، إنما هو عالم القبر، الذي يكون بعد الموت ومن الأدلة على ذلك:

ما رواه ابن حبان وغيره[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « إنَّ المَيتَ إذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، إنَهُ لَيَسْمَعُ خفق نعَالِهِم حِيْنَ يُوَلُّون مُدْبِرِيْنَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنَاً ـ أي: كامل الإيمان صالح الأعمال ـ كَانَتْ الصَّلاَةُ عِنْدَ رَأْسِهِ ـ أي: وقفت صلاته عند رأسه ـ وَالصِّيَامُ عِنْ يَمِيْنِهِ، وكَانَتْ الزكَاةُ عَنْ شماله، وكان فِعْلُ الخَيْرات مِنَ الصَّدقة والصِّلَةِ وَالمَعْرُوفِ والإحسان إِلَى النَّاسِ عَنْدَ رِجْلَيه» وأما الفقير الذي لا زكاة عليه فإنّ نيته الصادقة أنْ لو كان غنياً لأدّى الزكاة؛ هذه النية تتمثل، وتكون عن يساره وهكذا.

---

(١) (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) /٣١٠٣/ وقد رواه الطبراني بالسند الحسن (مجمع الزوائد) (٣/٥١ـ٥٢).

يعني: أنَّ الميت قد أحاطت به أعماله القلبية والعملية والقولية.

قال صلى الله عليه وآله وسلم «فَيُؤتى من قِبَلِ رأسه ـ أي: تأتي الأهوال والكربات القبريّة حتى تحزنه وتؤلمه ـ فتقول الصلاة: مَا قِبَلِي مدخل ـ أي: لا مدخل للشدائد من قِبَلي عليه، فقد كان رجلاً مصلّياً ـ ثم يؤتى عن يمينه، فيقول الصيام: مَا مِنْ قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثم يؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: مَا مِنْ قِبَلي مَدْخَلٌ، ثم يؤتى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْه، فَيَقُولُ فعل الخَيْرات من الصدقة والصلة والمعروف وَالإحسَانِ إِلَى النَّاسِ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ».

وهذا يعني: أنّ أعمال الإنسان تُحافظ عليه في قبره، وتحيط به، وتدافع عنه، وهي أمان وحرز له، وهو يراها كلها بصُورةٍ نورانية محسوسة.

وَمَنْ لم يكن من أهل الصلاح والتقوى، تسرّبت إليه الأهوال والشدائد من جهاته، ولقي من العذاب على حسب ذنوبه.

وروى أحمد وغيره(1) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تَجيء الأَعمَالُ يَومَ القِيَامَة ـ أي: تحضر الأعمال ويراها صاحبها ـ فَتَجيء الصَّلاَة فَتَقُولُ: يَارَب أَنَا الصَّلاَة ـ يعني: أنا صلاة فلان ـ فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: إِنَّكِ عَلَى خَيْر، فتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصِّيَامُ فيَقُولُ: أي يَارب أَنَا الصِّيَامُ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ».

ثم قال: «ثم يجيء الإِسْلاَمُ»: أي: الاعتقاد بدين الإسلام «فَيَقُولُ: يَارب أَنتَ السَّلاَمُ، وَأَنَا الإِسْلاَمُ، فَيَقُول عز وجل: إِنَكَ عَلَى خَيْر، بِكَ

(1) (المسند) (٢/ ٣٦٢) وعزاه في (مجمع الزوائد) (١٠/ ٣٤٥) إلى أبي يعلىٰ والطبراني عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

اليَومَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي» يعني: المسؤولية والمحاسبة هي على عقيدة الإسلام، وعلى أعمال الإسلام. ثُمَّ قَرأَ قَولَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمرآن: ٨٥].

قولـه تعـالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي: يحذركم عذابه وعقابه، ومِنْ رَأفته سبحانه بكم أن ذكَّركم بذلك اليوم قبل وقوعه، حتى تستعدوا وتعملوا لذلك اليوم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ فيه نهي عن البحث في حقيقة ذات الله جلَّ وعلا، فإنَّ حقيقة ذات الله تعالى لا تدركها العقول، ولا تحيط بها الأفكار، وإنما على الإنسان أن يبحث ويتعرف إلى الله تعالى بأسمائه وكمالاته التي ذكرها سبحانه في القرآن، وبيَّنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديثه.

وإنّ أسماء الله تعالى وكمالاته لا نهاية لها، وإنما ذَكَرَ سبحانه للعباد من أسمائه ما ظهر أثرها في عالم الدنيا، وهناك أسماء سيظهر أثرها في برازخ الآخرة، وهكذا فأسماء الله تعالى وصفاته لا تتناهى، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم «أسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْم هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي...»[١].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في موقف الشفاعة يوم القيامة:

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/٣٩١) عن سيدنا عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

«ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي»[١].

وفي رواية[٢]: «ويُلْهِمُنِيْ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي» يعني: أن الله تعالى يعلمه تلك الأسماء الإلّهية في ذلك العالم الأخروي.

وإذا كان الإنسان عاجزاً عن إدراك والإحاطة بأسماء الله تعالى كلها، فَمِنْ باب أولى أنه عاجز عن إدراك حقيقة ذات الله تعالى.

وقد قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا من غاية معرفته القصور عن معرفته. يعني: أنّ اعتراف العبد بقصور عقله عن إدراك حقيقة ومعرفة ذات الله تعالى هو غاية المعرفة.

ولقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بروايات متعددة[٣] وأسانيد متعددة قوله: «تَفَكَّرُوا فِي الخَلْقِ، ولاَ تَفَكَّرُوا فِي الخالق، فَإِنَّكُم لاَ تَقْدِرُونَ قدره».

قوله «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ الله» أي: في مخلوقاته سبحانه.

وفي رواية: «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ الله، ولاَ تَفَكَّرُوا فِي الله فَتَهْلِكُوا».

وفي رواية: «تَفَكَّرُوا فِي كل شيء، ولاَ تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ الله تعالى،

---

(١) الحديث في البخاري في كتاب التفسير /٤٧١٢/ (٣٩٥/٨) ومسلم في كتاب الإيمان /١٩٤/ (١/ ٣٨٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر (الفتح) (٤٣٧/١١).

(٢) في (المسند) (٤٣٦/٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تنظر في (الفتح الكبير) للعلامة النبهاني رحمه الله تعالى.

فإن مَا بَيْنَ السَّمَاء السَّابِعَةِ إلى كرسيه سَبْعَةُ آلاَفِ نُورٍ» أي: سبعة آلاف حجاب نوراني، فأنّى للعقل أن يعرف ما هنالك ؟

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ فلا أحد مِنْ خلقه تعالى من مَلَك مقرّبٍ أو غيره، لا أحد يستطيع معرفة كُنْهِ الله تعالى، أو الوقوف على معرفة ذاته سبحانه.

وهذا من التكبير الذي أمر الله به عباده بقولهم: الله أكبر. أي: أجلُّ وأعظم مما يتصورون.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾.

أي: اذكر لهم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك اليوم، فإنّه من أيام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: أن كل إنسان يرى في ذلك اليوم ما قدَّمت يداه في الدنيا ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [عم: ٤٠] يعني: يتمنى الكافر لو بقي في الدنيا تراباً، ولم يُخْلَق بشراً، أو يتمنى لو أنه صار تراباً، والمعنى: ياليتني صرت تراباً.

وذلك لمّا رأى أهوال الآخرة ودِقّة الحساب والجزاء، حتى إنّ البهائم لَيُقْتَصُّ منها، حتى يَقْتَصَّ سبحانه من الشاة القرناء للشاة الجمّاء، كما ورد ذلك في أحاديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم(١).

وفي (مسند) أحمد (٢): «وحتى الذَّرَّة من الذرة» أي: من النملة الصغيرة إذا بَغَتْ على نملة أخرى.

---

(١) ينظر (الدر المنثور) للإمام السيوطي عند تفسيره لآخر سورة ﴿عم﴾، و(المسند) (٢/٢٣٥و٣٢٣و٤١١).

(٢) (٢/٣٦٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن جبلاً بغى على جبل لَدُكَّ الباغي.

فتفكَّر أيها العاقل أنه إذا كان القصاص يجري على سائر المخلوقات والجمادات، أفلا يقتص من الإنسان إذا بغىٰ على غيره ؟! كيف لا وقد جاءت شرائع الله لتهذيبه وتزكيته.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا»[1] يعني: لا بُدَّ من أداء الحقوق إلى أهلها في الدنيا.

وروى أحمد في (مسنده) وغيره[2]، عن جابر بن عبد الله، أنه رحل إلى عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه مسيرة شهر في حديث واحد، لأنه فاته أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فحدَّثه به عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يَحْشُرُ الله العِبَادَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً بُهْماً»[3] يعني: لا شيء من الدنيا معهم «فَيُنَادِيهِمْ؛ فَيَسْمَعُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُ مَنْ قَرُبَ، فَيَقُولُ سُبْحَانَه: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ» يعني: أنه سبحانه هو المالك لرقابهم، والمتصرف فيهم بالعدل، لأنه الملك الحق، وهو الديَّان سبحانه، يعني: المحاسب والمجازي لهم «لاَ يَنْبَغِيْ لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَقٌّ، و لاَ يَنْبَغِيْ لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّة أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطْلُبُهُ بِحَقٍ؛ حَتَى أَقْتَصَّ مِنْهُ، حَتَى اللَّطْمَةَ».

---

(١) كما في (المسند) (٢/٣٢٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (المسند) (٣/٤٩٥) والحاكم في (المستدرك) (٢/٤٢٧) وانظر طرقه وتخريجه مفصلاً في كتاب (الرحلة في طلب الحديث) للخطيب البغدادي.

(٣) كالليل البهيم الذي لا يرى فيه شيء.

قالوا: يا رسول الله كيف وهم بُهْمٌ ؟. أي: ليس شيء من الدنيا وأموالها معهم ؟

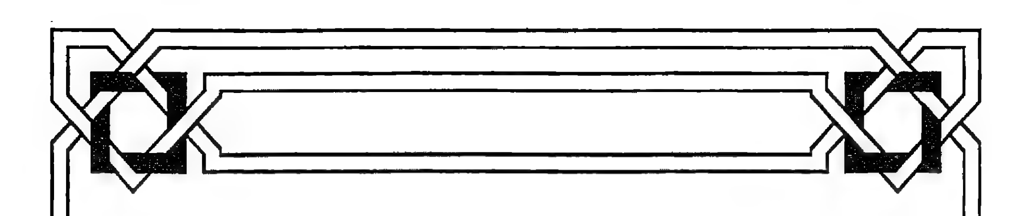
قال: «بِالحَسَنَاتِ وَالسَيِّئَاتِ».

ولما رأى الكافر أن الله تعالى قد أعاد البهائم والوحوش تراباً بعد أن جرى القصاص فيما بينها، تمنى الكافر أن يكون تراباً مثلها، لكن الله تعالى قد أقام الحجة على عباده وبعث الرسل فيهم، وبلّغوا شرعه سبحانه، فما للكافر عذر ولا حجة عند الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

والحمد لله رب العالمين

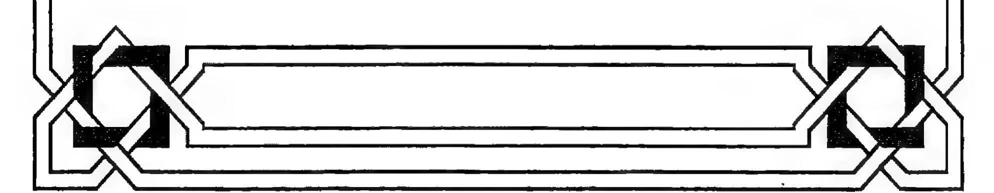
* * *



المحاضرة السابعة

في

التذكير القرآني بأيام الله تعالى



قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ـ ١٠٧].

والمعنى: واذكر لهم يا رسول الله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فذاك يوم تبيضّ فيه وجوه أهل الإيمان والأعمال الصالحة، وتسودّ فيه وجوه الكفرة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا لما آمنوا بربهم في عالم الذرِّ، لَمّا أخذ الله عليهم العهد والميثاق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: أنت ربنا، فاعترفوا وآمنوا كلهم بالله في ذلك العالم، ولَمَّا جاؤوا إلى الدنيا كفروا، مع أن الله تعالى أرسل رُسله تذكِّرهم بذلك العهد والميثاق الأول ؛ لكنهم أعرضوا وعاندوا.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ إذ نَوّر الإيمان والعمل الصالح وجوههم، لأنّ الأعمال لها أثر في العامل. كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: في الجنَّة. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقد بيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن للأعمال الصالحة آثاراً نورانية، ينصبغ بها العامل، فقد روى ابن حبان في (صحيحه)،

وأحمد في (مسنده)[1]، عن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذَكَرَ الصَّلاَةَ ـ أي: الصلوات المفروضة وعظَّمَ شأنها ـ وقَالَ: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً وَبُرْهَاناً وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهَانٌ وَلاَ نَجَاةٌ، وكان يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ».

وفي الحديث الآخر: «وَالصَّلاَةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ...» الحديث[2].

فالصلاة نور يظهر أثره على وجه المصلي، ويظهر له ذلك في برازخ الآخرة، فيضيء له على الصراط.

وهي برهانُ صدقٍ على إيمانه تدافع عنه.

وهي نجاة له. أي: أمان له من المخاوف والشدائد في الآخرة.

وروى مسلم في (صحيحه)[3]، عن صهيب بن سنان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تبارك وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟

فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟، أَلَم تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟

قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، ثُمَّ قَرأَ قول الله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ

---

(١) ابن حبان /١٤٦٥/، (المسند) (٢/١٦٩) (مجمع الزوائد) (١/٢٩٢).

(٢) طرف من الحديث الذي رواه مسلم في أول كتاب الطهارة /٢٢٣/ (١/٤٠٤) والترمذي في كتاب الدعوات /٣٥١٢/ (٩/١٧٩) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى /١٨١/ (١/٣٤٩) وهو عند الترمذي /٢٥٥٥/.

وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أي: للذين أحسنوا مع الله، أي: آمنوا وأحسنوا في عبادتهم لله، وفي معاملتهم مع خلق الله، فجزاء هؤلاء الحسنى أي: الجنة.

﴿وَزِيَادَةٌ﴾ فالحسنى مقابل أعمالهم، والزيادة هي زيادة فضل الله عليهم، بالتجلّي عليهم برؤيته سبحانه.

ومن التذكير القرآني بأيام الله تعالى: أيام وعده ووعيده، فمن أيام وعده للمؤمنين قوله سبحانه: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨] وهذا لَمّا يَحشر الله تعالى الخلائق كلهم، وتشتد على الكافرين الأهوال والمخاوف، يُنادي سبحانه أهلَ الإيمان ويبشرهم بالسلامة والأمن والنجاة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

وَمَنْ هُمْ هؤلاء العباد ؟ وما هي صفاتهم ؟

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٩] أي: آمنوا بآيات الله القرآنية المتلوّة، النازلة على رسلهم صلوات الله عليهم وأعظمها الآيات التي جاء بها سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وهؤلاء العباد آمنوا أيضاً بآيات الله الكونية: الآفاقية، والسماوية، والأرضية. والبحرية والنباتية، فأيقنوا أنها آيات تدل على الله تعالى، خالقها رب العالمين، وأنها مظهر قدرة الله تعالى، ومظهر علم الله وحكمته سبحانه، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: الدالَّةِ على قدرة الله وعظمته وحكمته وكمالاته ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ

﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣] يعني أن الله تعالى حق، وأنَّ هذه العوالم كلها تدل عليه، وأنها مظهر كمالاته وأسمائه فكيف يُنكره الجاحدون ؟!! وقد رأوا آياته ومصنوعاته ومخلوقاته، وَمَنْ رأى الآيات بعيني بصره فقد رأى رب الآيات ببصيرة قلبه، فيا عجباً كيف يَعصيه العاصي، ويجحده الجاحد.

وَلله في كُلِّ تحريكة وَتَسْكينة أبداً له شَاهدُ
وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ تَدُلُّ على أَنَّه واحِدُ

فكيف ينكر الجاحد وجود الباني وهذا بناؤه قد رآه وعاينه ؟!! وكيف ينكر الجاحد وجود الصانع وقد رأى مصنوعاته ؟!!.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ [السجدة: ٧].

فقوله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: التدوينية والتكوينية. ﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ أي: مستسلمين لأمر الله عز وجل، فيعملون بما أمر به، وينتهون عما نهى عنه.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

أما الصِّحاف فهي الأواني الواسعة، وهي من ذهب الجنة، وفيها المآكل المتنوِّعة.

وأما الأكواب فهي للشرب من شرابات الجنة، وفيها ما تشتهيه الأنفس من كافة المشتهيات، وفيها ما تلذ الأعين بالنظر إليه، ويختلف الأمر على حسب الناظر.

ففي الحديث الذي رواه الترمذي وأبو يعلى [1] عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجنَّةِ منزلة ـ أي: أضعف أهل الجنة مرتبة ونعيماً ـ لمَنْ يَنْظُرُ إِلى جنانه، وأزواجه، ونعيمه، وخَدَمِه، وسُرُرِه مَسِيْرَةَ أَلْفِ سنة، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى الله تَعَالَى: مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وجهه غُدْوَةً وَعَشِيًّاً».

* * * * *

(١) الترمذي في كتاب صفة الجنة /٢٥٥٦/ (٧/٢٣١) وأبو يعلى /٥٧١٢/ وانظر: (مجمع الزوائد) (١٠/٤٠١).

ومن جملة أيام الله تعالى وعداً ووعيداً قوله تعالى :

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٥ ـ ٨٧]

والمعنى: ذَكِّرهم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واذكر لهم يوم ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ ...﴾ الآيات.

فقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾ فيه وعد للمتقين، وهو من أيام الله تعالى، ثم ذكر يوم وعيد فقال: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ فلقد نُشروا، ثم حُشروا إلى الحضرة الرحمانية، الجامعة لكل خير وبر وفضل، ووفدوا إليها مكرَّمين مُعظَّمين.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهم غير المتقين ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي: عِطاشاً، لا يملكون الشفاعة، فلا يملكون أن يشفعوا، ولا أن يُشفع بهم. لأنهم كفار مجرمون.

ثم نبه سبحانه وتعالى من الذي يَشفع ويُشفَّع. أي: من يُشفع به، و يَشفع بغيره ؟

فقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ فإن هذا يشفع به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَيُؤذن له أن يشفع بغيره.

وأعظم شفيع، وأعظم مُشفع، وهو الذي يفتح باب الشفاعات، إنما هو الشفيع الذي لا شفيع له، هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فما هو عهد المؤمن عند رب العالمين، والذي يُخَوِّل المؤمن أن يُشَفع به، ويَشْفَع بغيره ؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العهد بين العبد وبين ربه هو: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. اهـ

وهذا العهد انطوت تحته سائر العهود، وتفرعت عنه جميع العهود الإيمانية، والمواثيق العملية، ومن ذلك عهد الصلاة.

كما جاء في السنن(١)، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ الله عَلَى العِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ ولَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئَاً، اسْتِخْفَافَاً بِحقِّهِنَّ: كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ الله أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ» أي: هذا راجع لمشيئة رب العالمين، والمشيئة حسب الحكمة، والحكمة ترجع إلى العلم، والله أعلم بخلقه سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فأصل العهد هو الإيمان الذي مبدؤه: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويتفرع عنه جميع الشعب الإيمانية.

وإن قوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا﴾ المراد بالمتقين أهل التقوى الكاملة، لأن الإطلاق يقتضي الكمال دائماً، فهم الذين تحققوا بأنواع ومراتب التقوى.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب فيمن لم يوتر /١٤٢٠/ (٢/١٣٠)، والنسائي في باب المحافظة على الصلوات الخمس (١/٢٣٠)، وابن حبان في (صحيحه) /١٧٢٩/عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

وتأمل أيها الإنسان في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي: أنهم حُشروا من عالم الحشر إلى الجنة، إلى رب العالمين، إلى الحضرة الرحمانية، فأين هُم من الحساب والسؤال ؟! مِمَّا يدل على أنهم دخلوا الجنة بغير حساب !!

نعم لقد حُشِروا من قبورهم إلى الجنة بغير توقف على الحساب والسؤال، لأنهم أهل التقوى الكاملة، وجمعوا مراتب التقوى كلها: القلبية والقالبية، في السِّرِّ والعلانية.

رُبَّما يقال: إن الذين يدخلون الجنة بغير حساب، هم الذين جاء ذكرهم في الحديث: «سَبْعُونَ أَلْفَاً، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفَاً»[(١)]، وفي رواية[(٢)]: «مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفَاً».

فاعلم أَنَّ هؤلاءِ هم الزمرة الأولى، الذين يدخلون الجنة بغير حساب، إلا أَنَّ هناك أُناس يدخلون الجنة بغير حساب بسبب أعمالٍ عملوها وتحققوا بها.

كما ورد في صفة السبعين ألف: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي يَومَ القِيَامَةِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ».

قيل: مَنْ هُم يا رسول الله.

قَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لاَ يَكْتَوونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[(٣)].

---

(١) الحديث في (المسند) (٥/ ٢٥٠و٢٦٨)، والترمذي في كتاب صفة القيامة /٢٤٣٩/ (٧/ ١٥١) عن سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) ينظر (الفتح) (١١/ ٤١١) وحاشية صحيح مسلم (١/ ٣٩٥).

(٣) البخاري في الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب /٦٥٤١/ (١١/ ٤٠٥) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب /٢١٨/ (١/ ٣٩٦).

أي: أن أول زمرة تدخل الجنة بغير حساب هم أهل التوكل الخاص، ثم هناك أهل الزهد الخاص يدخلون الجنة بغير حساب، وهناك أهل الورع الكامل يدخلون الجنة بغير حساب.

كما أن قُوَّام الليل المتهجدون فيه يدخلون الجنة بغير حساب أيضاً، وإليك أدلة ذلك:

روى البيهقي[1] عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُحْشَرُ الناس فِيْ صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَومَ الْقِيَامَة، فيُنَادِيْ مُنَادٍ فيقول: أين الَّذِيْنَ كَانُوا تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ، فَيَقُومُونَ وَهُمْ قَلِيْلٌ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

كما أن أهل الورع الذين يتورعون عن فعل الحرام، وأكل الحرام، والمال الحرام، ويتركون ما يُوصِلُ إلى الحرام؛ فإنهم يدخلون الجنة بغير حساب.

روى الطبراني والأصبهاني[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ الله تعالى نَاجَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِمَائَة أَلْفٍ وأَرْبَعيْنَ أَلَف كَلِمَة؛ فِيْ ثَلاَثَة أَيَامٍ، فَلَمَّا سَمِعَ كَلاَمَ الآدَمِيِّيْنَ بَعْدَ ذَلِك مَقتَهُمْ» لأنه ذاق حلاوة كلام رب العالمين، وَسَرىٰ ذلك في مسامعه وذراته، فلما رجع إلى قومه وسمع كلامهم مقتهم، لأنه تَعَوَّد أن يسمع كلام الله تعالى.

ومعنى: «مَقَتَهُم» نفر منهم، وبقي مدة على ذلك.

---

(١) في (شعب الإيمان) /٣٢٤٤/ عن السيدة أسماء بنت يزيد رضي الله عنها.

(٢) الطبراني (مجمع الزوائد) (٢٩٦/١٠) والأصبهاني في (الترغيب والترهيب) /٤٧٩/.

وكان فيما ناجاه سبحانه: «ياموسى إنه لم يتصنع لي المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا» أي: لم يصنع العابدون معي صنعاً مثل الزهد، وذلك أن يزهدوا فيما يُشغلهم عن الله تعالى.

«ولم يتقرب إليَّ المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم، ولم يتعبد لي المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي» فالبكاء من خشية الله عبادة من أعظم العبادات. فافهم.

«فقال موسى عليه السلام: يا رب البرية كلها، يا مالك يوم الدين، ويا ذا الجلال والإكرام، ماذا أعددت لهم» ؟ أي: للزهاد والورعين والبكائين من خشيتك.

«قال: أما الزهاد في الدنيا: فإني أبحتهم جنتي يتبوؤون منها حيث شاؤوا، وأما الورعون عما حرمت عليهم: فأدخلهم الجنة بغير حساب».

والوَرِعُ هو: الذي تَوَرَّع عن الحرام، وعمَّا يَجُرُّ إلى الحرام من مشتبهات، فقد حاسب نفسه في الدنيا فعلام يحاسب يوم القيامة ؟!!

«وأما البكاؤون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى».

والبَكَّاء هو: كثير البكاءِ من خشية الله تعالى، فتراه تدمع عيناه كلما ذُكِّرَ بآيات الله سبحانه.

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيري البكاء من خشية الله سبحانه، حتى خَطَّت دموعهم خطوطاً في وجوههم، ومنهم الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم أجمعين، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] فلا تظن أن البكاء ودمع العين صفة العوام، وإنما هي صفة الأكابر والعارفين والعلماء العاملين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩﴾ [الإسراء: ١٠٧ـ ١٠٩] وعلى هذا فهناك زُمَرٌ يدخلون الجنة بغير حساب لأمور وأسباب رتبها الله سبحانه، ومنهم أهل التقوى الكاملة، وهذا قولـه تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي: بغير حساب.

ما هي التقوى وما هي آثارها:

التقوى هي: توقي سَخط الله وعذابه، وطريق ذلك بامتثال ما أمر به سبحانه، واجتناب مانهى عنه.

وقد بين صلى الله عليه وآله وسلم في أول خطبة جُمعة لـه حين قدم المدينة، قال عليه الصلاة والسلام: «أُوْصِيكُمْ بِتَقَوَى الله تعالى، فَإِنَّهُ خَيْرُ مَا يُوصِيْ بِهِ المُسْلِمُ المُسْلمَ، أَنْ يَحُضَّهُ عَلى الآخرَةِ، وأَنْ يَأْمُرَهُ بِتَقْوى الله تعالى، وَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُم الله مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لاَ نَصِيْحَةَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلكَ، وَلاَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلكَ ذِكْرَى ـ أي: أنَّ هذا أفضل التذكير والنصائح ـ اتَّقُوا الله فِيْ عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وَآجِلهِ بِالسِرِّ وَ العَلاَنِيَةِ، فَإِنَّ تَقْوَى الله تَقِي غَضَبَهُ، وَإِنَّ تَقْوَى الله تَقِيْ سَخَطَهُ، وَإِنَّ تَقْوَى الله تَقِي مَقْتَهُ جلَّ وعَلاَ» الحديث [(١)].

فالتقوى وقاية للمتقي من سَخَطِ الله، وعذاب الله ومقت الله، سبحانه، وَمَنْ لم يَتَّقِ لا وقاية لـه من غضب الله ، ولا وقاية لـه من عذاب الله.

وقال رجل من التابعين لأبي هريرة رضي الله عنه: ما هي التقوى ؟

فقال: أما سلكت طريقاً فيه شوك ؟

قال: بلى.

(١) كما في البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢١٣).

قال: فماذا فعلت ؟

قال: إذا مررتُ على الشوك كنت أتوقى فأبتعد من هنا وهنا، وآخذ بثيابي حتى ما يصيبني الشوك.

فقال له أبو هريرة رضي الله عنه: هذا هو التقوى[1].

إن الإنسان في عمره وحياته الدنيا إنما يمشي في طريق نتيجته الآخرة، فعليه أن يُعامل نفسه معاملة الذي يمشي في طريق شائك، فكيف يتجنب الشوك؛ ولو كانت صغيرة، لأنها ربما أخذت به وأفسدت عليه جسمه.

وكذلك التقوى فهي التوقي عن المحارم بكبائرها وصغائرها، ولا يستصغر ذنباً، فربما أصر عليه وأفسد دينه بذلك.

مراتب التقوى :

هناك تقوى الجوارح والأعضاء، كاليد والرجل، والسمع والبصر واللسان، وهي تقوى الأعمال، وذلك بالسر والعلانية.

وهناك تقوى القلوب، وذلك بتخلية القلب عن الشهوات والغفلات والأمراض، كالحسد والغل، والحقد والكبر والعجب وغيرها من الآفات الذميمة.

ومن ارتكب واحدة منها فقد وقع في الإثم القلبي قال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ومن جملة تقوى القلوب تعظيم شعائر الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

---

(١) هكذا الخبر في جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب الحنبيلي، وينظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٠).

وشعائر الله هي معالم دينه ومواضع عبادته كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وإن أعظم شعيرة جامعة لشعائر الله كلها، تدل على الله تعالى، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فَمِنْ تقوى القلب أن يُعظِّم المتقي سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يحترمه ويوقره كما أمر سبحانه بذلك.

ومن جملة ذلك تعظيم العلماء العاملين، وتوقيرهم واحترامهم، وتعظيم كلام الله تعالى، وبيوت الله تعالى.

وكذلك احترام أهل الإيمان لإيمانهم وصلاحهم.

ومن تقوى القلوب الحب في الله، والبغض في الله، وتعظيم ما عَظَّم الله، وأن يكره المؤمن ما يكرهه الله من الفسوق والمعاصي.

فَمَنْ جَمع مراتب التقوى كلها، وتحقق بها، كان مِمَّن قال الله فيهم: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾.



من آثار التقوى :

واعلم أنّ التقوى هي الميزان في القيمة والاعتبار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، كما أن سبب السلامة والنجاة هو التقوى، فبينما يمر الإنسان على الصراط والصراط هو داخل جهنم تكون النجاة لأهل التقوى، لأن عليهم وقاية من العذاب ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: أن هذا حُكْمٌ رباني مبني على حكمة ربانية، فجميع المربوبين من عالم التكليف لا بد أن يمروا على هذا الصراط، حتى تظهر النتائج والعواقب. قال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

كما أنّ حسن العواقب وخير العواقب في الدنيا والآخرة لا تكون إلا بالتقوى، قال سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] أي: أن حسن العواقب المحمودة إنما هي للمتقين في الدنيا وفي الآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فمن أراد أن تحسن عواقبه في الدنيا وفي الآخرة فعليه بتقوى الله تعالى، وقد يَمر عليه بعض أمور يكرهها في الدنيا، لكن العبرة للعواقب، وحسن العواقب هي للمتقين.

اللهم حَسِّنْ عاقبتا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وإنّ أمراً يجري على الإنسان ويُسَرُّ به، ويفرح من أجله، لكنه ليس

مبنياً على تقوى الله فعاقبته الندامة والحسرة، أما إذا كان مبنياً على تقوى فالعاقبة للتقوى.

وإن التقوى هي وصية رب العالمين لعباده:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: وأنتم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] وقد أوصى بذلك صلى الله عليه وآله وسلم في كثير من أحاديثه: «أُوْصِيكم بِتَقْوَى الله» الحديث (١).

من فضائل التقوى:

١ـ إن من تحقق بتقوى الله سبحانه ظفر بولاية الله الخاصة له: قال سبحانه: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ـ٦٣].

كما أنه يكون من أولياء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي: أحبابه والمقدمون عنده، ورفقاؤه صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِيْ المُتَّقُونَ مَنْ كَانُوا، وَحَيْثُ كَانُوا»(٢).

---

(١) طرف من حديث رواه أبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة /٤٦٠٧/ (٥/١٣) والترمذي /٢٦٧٨/ وغيرهما عن سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) الحديث في (المسند) للإمام أحمد (٥/٢٣٥) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه.

وروى البخاري في (الأدب المفرد)[1]، والبزار وغيرهما[2]، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اجْمَعْ لِيْ قَوْمَكَ» ـ أي: قريشاً ـ فَجَمَعَهُم.

فَخَرَجَ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلامُ فقال: «إِنَّ أَوْلِيَائِيْ مِنْكُمْ المُتَّقُونَ، لاَ يَجِيء النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالأَعْمَالِ، وتأتون بِالأَثْقَالِ» وهي: الذنوب والمعاصي.

فبين لهم صلى الله عليه وآله وسلم أن أولياءه ـ أي: أحبابه والمقربين عنده ورفقاءه ـ إنما هم المتقون.

٢ـ كما أن التقوى سبب التأييد الإلهي.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] أي: معهم بالنصر والتأييد.

٣ـ التقوى فيها النجاة:

قال سبحانه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الإسراء: ٦١].

معنى التقوى: التَّوقي من غضب رب العالمين وعقابه سبحانه، **وأما السبيل إلى ذلك** فبأخذ الوقايات، وهي الأعمال الصالحة، وترك المحرمات، ولهذا تفسر التقوى بأنها: امتثال الأوامر، واجتناب المناهي.

---

(١) في باب مولى القوم من أنفسهم، حديث رقم /٧٥/ عن سيدنا رفاعة بن رافع رضي الله عنه.

(٢) (مجمع الزوائد) (١٠/٢٦).

وهـذا التفسـير لازم معناهـا، وإلا فـالتقوى هـي: تـوقي غضـب الله وعقابه، وَمَنِ امتثل الأوامر واجتنب المناهي وقاه الله غضبـه وعذابـه، كمـا بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته: «وإِنَّ تَقْوى الله تُوقِيْ مقته، وتوقي عقوبته، وتوقي سَخَطَهُ»[1].

وقد سُئِلَ سيدنا علي رضي الله عنه ما هي التقوى ؟فقـال: (هـي الخـوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا من الدنيا بالقليل ـ أي: لا تكـن طماعـاً في الدنيا ـ والاستعداد ليوم الرحيل). وهو يوم ترحـل عـن أهلـك وأصـحابك ومالك، ترحل إلى الله سبحانه، ولا بد لهذا الاستعداد من عمل وتقوى.

قال الله تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨].

وقوله رضي الله عنه: (العمل بالتنزيل)، هـو مـا نَزَّلـه الله تعـالى علـى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي القرآني والوحي النبوي.

ومن هنا تفهم أنه لا تقوىٰ للمتقي إلا بعد العلم بما نـزل علـى رسـول الله صلى الله عليه وآله وسـلم، وَتَفَهّـم بياناتـه صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم وإرشاداته.

مراتب التقوى. أي: الأمور التي يجب توقِّيْها:

أولاً: تقوى الكفر وما يجر إليه:

وتشمل تقوى الكفر العملي والقـولي، لأنّ هنـاك أعمـالاً تكفـر، وهنـاك أقوالاً تكفر، وهناك أمور قلبية اعتقادية تكفر، كمن استحل حراماً قطعيـاً جـاءت حرمته بنص القرآن؛ أو بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد كفر.

---

(١) طرف من أول خطبة خطبها صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم في المدينـة المنـورة كمـا في (البداية والنهاية) لابن كثير (٣/٢١٣).

ومثال هذا: كمن استحل ترك الصلاة، أو استحل عمل الربا، أو عمل الميسر، أو استحل الخمر والزنا.

فإن قيل: كيف تكفره وهو يصلي ويصوم.

فيقال: إنَّهُ باستحلالِه لأمر حرَّمَهُ الله تعالى لم يدخل في الإسلام حتى نخرجه عنه، لأن من جملة اعتقاد الإسلام أن تعتقد بحلال ما أحل الله، والاعتقاد بحرمة ما حرمه الله، فمن استحل حراماً قطعياً معلوماً من الدين بالضرورة فقد خرج عن الملة.

ثانياً: تقوى المعاصي:

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: أهل البلاد العامرة، وما حولها ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] أي: أنهم بالإيمان خرجوا عن الكفر، وهذا قوله سبحانه: ﴿ءَامَنُواْ﴾.

أما معنى: ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ أي: تركوا ما حرم الله تعالى، وامتثلوا ما أمر به سبحانه وتعالى.

وفي هذا يقول عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلاَ تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»[1].

---

(١) الحديث في (المسند) (٢/ ٣١٠) و(سنن) الترمذي في كتاب الزهد، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس /٢٣٠٦/ (٧/ ٦٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وإن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ» أي: ما حرَّم الله تعالى. والسبيل إلى ذلك أن تتفهم وتتعلم ماذا حرم الله تعالى، فلا بد للمؤمن مِنْ عِلْمٍ تصح به عقيدته، ويعلم منه فرائض دينه وواجباته، حتى يقوم بها، وأن يعلم ما حرَّم الله تعالى حتى يتجنبها، وهذا يدل على أنه لا تقوى بدون علم.

«وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ» فليس أغنى الناس من هو أكثر الناس جمعاً للمال، وإنما أغنى الناس مَنْ قَنع ورضي بما أعطاه الله تعالى.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[1].

«وَلاَ تُكْثِرْ الضَّحِكَ» أي: اضحك إذا كانت الأسباب الحاملة على الضحك مشروعة، ولكن لا تكثر الضحك «فإن كثرة الضحك تميت القلب» أي: الجسماني، وتميت القلب الروحاني المودع في القلب الجسماني، بأن تستولي عليه الظلمة والغفلة.

ثالثاً: تقوى الشبهات:

وهي الأمور التي تُشبه من وجه أنها حلال، وتشبه من وجه أنها حرام، فالتقوى هي ترك هذه الأمور المتشابهة والابتعاد عنها، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد في الصحيحين[2] عن النعمان بن

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/٢٦١)، والبخاري في الرقاق، باب الغنى غنى النفس /٦٤٤٦/ (١١/٢٧١)، ومسلم /١٠٥١/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه /٥٢/ (١/١٢٦) ومسلم في المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات /١٥٩٩/ (٣/١٦٤٧).

بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الْحَلاَلُ بَيِّنٌ والْحَرَامُ بيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَات فقد اسْتَبْرَأَ لِدِينِه وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِك حِمًى، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ».

«الْحَلاَلُ بَيِّنٌ والْحَرَامُ بَيِّنٌ» أي: عند المسلم، أما الكافر فلا يعلم الحلال من الحرام.

فالواجب عل المسلم أن يتعلم ما أحلَّ الله تعالى، وأن يتعلم ما نهى الله عنه، أمَّا أنْ تَرَى مسلماً وتسأله هل الخمر وسائر المسكرات التي تضر بالعقل والجسم حرام أم لا ؟ فيقول: ليس بحرام، لأنه لم يَرِدْ نَصٌّ في القرآن على تحريمه، ولم يقل سبحانه صراحة في كتابه حرمت عليكم الخمر أو نحو هذا، فيقال له: أنت في وادٍ والإسلام في واد.

أَلَمْ يقل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] فلو قال: إنّ الاجتناب لا يدل على التحريم، فيقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] أي: اجتنبوا الأصنام، وعبادة الأصنام، فالاجتناب يدل على التحريم، وإلا لكانت عبادة الأصنام ليست بحرام، لأنه لم يقل: حرمت عليكم الأوثان.

وإنّ معنى الاجتناب يكون أحياناً أقوى من التحريم، لأن الاجتناب يعني المباعدة. أي: أن تجعل نفسك في جانب، والحرام في جانب آخر.

ثم من ناحية أخرى إنَّك تزعم أن كلمة الاجتناب لا تدل على التحريم.

فاعلم أَنَّ الذي نَزَل عليه القرآن هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم صاحب البيان عن القرآن قد حرَّم الخمر، وَحَدَّ شارِبَهُ، فهل أنت أفقه وأعلم أم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟!!

فلا يجوز لك أن تفهم شيئاً من القرآن وتستقل به، إلا بعد الرجوع إلى صاحب البيان عن القرآن، الذي قال الله له: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩] أي: أن نبين لك معاني القرآن الكريم، وقال له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فالأمور المشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، أي: بل يعلمهن قليل من الناس، وهم أهل العلم وذلك بعد البحث والنظر والتحقيق.

فَمَنِ اشتبه عليه أمر ولم يجد دليلاً يرجح فيه تحريمه أو تحليله، فما عليه إلا بترك هذا الأمر، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فقد اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ» أي: برَّأ دينه عن النقص والخلل.

«أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ ـ جسمياً صلح الجسم، وإذا صلحت إيمانياً ـ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ» فمن صلح قلبه بالإيمان تحركت أركانه إلى فعل الطاعات، وهذا لأنَّ القلب بمنزلة المَلِكِ، وأما الأركان فبمنزلة الرعية.

رابعاً: تقوى المباحات:

وهي ترك المباح خوفاً من أن يجر إلى المكروه أو المحرم، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم، كما روى الترمذي وغيره [1]: «لا يَبْلُغُ

---

(١) الترمذي، كتاب أبواب صفة القيامة /٢٤٥٣/ (٧/١٦٠) وابن ماجه في كتاب الزهد باب الورع والتقوىٰ / ٤٢١٥/ (٢/١٤٠٩) والحاكم في (المستدرك) وصححه (٤/٣١٩) عن سيدنا عطية بن عروة السعدي رضي الله عنه.

العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ» أي: الكُمَّل «حَتى يَدَعَ» أي: يترك «مَالاَ بَأسَ بِهِ، حَذَراً مِمَّا بِهِ البَأس» أي: يترك المباحات خوف الوقوع في المكروهات أو المنهيات.

خامساً: تقوى الله حق تقواه:

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

ومعنى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ فقد رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً[(١)] ـ أي: مَرّة رفعه إلى جناب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومرة حكاه عن نفسه. ولكن مثل هذا الكلام لا يُدرك برأي، ولا بد أنه سمعه من بيانات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فله حكم المرفوع ـ.

قال ابن مسعود رضي الله عنه في معنى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هو: «أَنْ يُطَاعَ فَلاَ يُعْصَى، وأَنْ يُشْكَرَ فَلاَ يُكْفَر، وأَنْ يُذْكَر فَلاَ يُنْسى».

سادساً: من مراتب التقوى:

وهي تقوى الأغيار كلها، بأن لا ينشغل القلب بغير الله سبحانه، وهذه من صفات أهل الكمال، وأهل القرب الخاص.

* * * * *

---

(١) هذا نص رواية الطبراني كما في (مجمع الزوائد) (٦/٣٢٦) وينظر (المستدرك) (٢/٢٩٤) و(الدر المنثور) للسيوطي عند تفسير هذه الآية الكريمة.

الأسباب التي تحمل الإنسان على تقوى الله سبحانه

أولاً: أن يراقب العبد مراقبة الله عليه، وأن لا يغفل عن ذلك أبداً، وقد بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] فَمَنْ راقب مراقبة الله عليه: حمله ذلك على تقوى الله، ومن أعرض عن الله وغفل عنه: أعرض عن تقواه.

ثانياً: أَنْ يوقن العبد أَن الله مُطَّلع عليه أينما كان وكيفما كان، وهو يراه ومحيط به، وهو سبحانه أقرب إليه من حبل الوريد، وإن ملاحظة هذه الأمور، ومراقبة الله في ذلك: تحمل العبد على أن يتقي الله في جميع أموره، وأن يجعل الله أمامه دائماً، وإلا كان كمن قال فيهم سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢].

وسُئل الحارث المحاسبي رضي الله عنه عن معنى مراقبة الله تعالى فقال: هو علم القلب بقرب الرب.

أي: أن تعلم علماً قلبياً جازماً أن الله تعالى قريب منك، فإنّ هذا يحملك على الحياء والخوف من الله تعالى.

وقيل للإمام الجنيد رضي الله عنه ـ أي: قال له بعض المريدين ـ: بم أستعين على غض البصر ؟ أي: عن المحرمات.

قال: أن تعلم أَنَّ نظر الله إليك، هو أسبق إلى ما تنظر إليه. اهـ

أي: راقب أنك في نظر الله تعالى، مما يحملك على تقواه والخشية منه سبحانه، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ»[1] أي: بالسر والعلانية، وبالخلوات والجلوات.

وقد أَثَّرَتْ هذه الموعظة المحمدية في معاذ رضي الله عنه، وتحقق بوصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما رجع من بني كلاب أيام خلافة عمر رضي الله عنه وقد بعثه ساعياً عليهم، قالت له امرأته: بماذا جئتنا ـ من هدايا ومال ـ ؟

فقال لها: كان معي ضاغط ـ موهماً لها أَنّ عمر رضي الله عنه بعث معه رقيباً، والحال هو يريد أن الله تعالى رقيب عليه ـ فراحت تشكو عمر رضي الله عنه إلى نسائها[2].

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على مراقبة لله سبحانه في أمورهم كلها، حتى قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (كُنَّا نتقي الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هيبة أن ينزل فينا القرآن)[3] أي: لأنّ فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والوحي ينزل عليه، فربما كَشف حالهم، ولهذا كانوا يراقبون أنهم في مراقبة الله، وأنهم في نظر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم أولياء، وكلهم أكابر رضي الله عنهم ونفعنا بهم.

---

(١) طرف من حديث رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس /١٩٨٨/ (٦/ ٢٠٤).

(٢) الخبر في كنز العمال (١٣/ ٥٨٤) معزواً إلى الحافظ عبد الرزاق، والمحاملي في (أماليه).

(٣) كما في (المسند) (٢/ ٦٢) ـ واللفظ له ـ و(صحيح) البخاري في كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء /٥١٨٧/ (٩/ ٢٥٣).

وقد بين الله تعالى طريق الولاية الكبرى:

فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الآيات من سورة يونس عليه السلام].

والمعنى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: في أيّ شأن من الشؤونات ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ ثم عمَّ فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ﴾ أي: حينما تدخلون في العمل وتتلبسون فيه، فإن الله شاهد عليكم، وغير غائب عنكم، يعني: حتى إنه سبحانه يخبركم بأعمالكم يوم القيامة: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] عن أخبارهم وأعمالهم التي عملوها في الدنيا بعلم منا، فالله محيط بهم، ونقول لهم: ما كنا في الدنيا غائبين عنكم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ أي: وما يغيب ﴿عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أنَّ من لا حظ هذه الأمور، وراقب مُشاهدة الحق لـه حمله على التقوى فهو من المتقين ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

وقال بعض العارفين رضي الله عنهم: منذ أربعين سنة ما تحركت بحركة نفسانية إلا عن مراقبة لله تعالى. اهـ

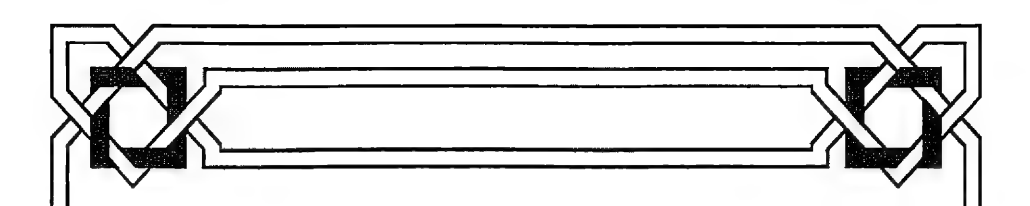
أي: لم يتحرك حركة دفعته نفسه إليها إلا بعد أن يزن الحركة على ميزان الشريعة، ويُحسن النية فيها. لأن الرقيب قريب.

فعلى المؤمن أَنْ يُراقب ربه في جيمع حركاته وسكناته، وأعماله وأقواله، ونياته. ونسأل الله التوفيق لذلك، ونسأله سبحانه أن يجعلنا مِمّن يخشاه وكأنه يراه، واجعلنا يا مولانا من أهل المراقبة، حتى نرتقي إلى مقام المشاهدة اللهم آمين.

وصلىٰ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

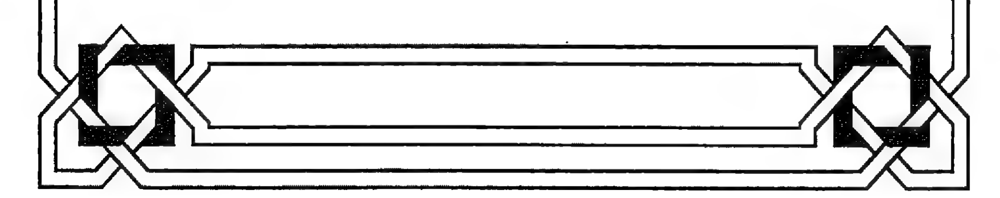
والحمد لله رب العالمين

* * * * *



المحاضرة الثامنة

في التذكير بأيام الله تعالى



من التذكير القرآني بأيام الله تعالى
والتي أمر الله تعالى رسوله سيدنا محمداً
صلى الله عليه وآله وسلم
أن يُذكر بها

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ ٱللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

وهي التي ذكرها الله تعالى بقوله ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] [1] أي: هم الكفار لا يخافون أيام الله، أي: أيام وعيده لهم، ولا يرجون ثواب الله، وهي أيام وعده للمؤمنين، وأيام الله تعالى هي: أيام وعده ووعيده الماضية والآتية، والتي ستقع يوم القيامة،

(١) ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذه الآية مكية النزول قبل أنْ يُفْرَض الجهاد، وفيها يأمر الله تعالى المؤمنين أن لا يقابلوا أذى المشركين، وأن يصبروا على ذلك، ولا ينتصروا لأنفسهم.
وهناك من قال: بأنها نسخت بعد ما فرض الله الجهاد، والحق: أنها بقيت محكمة، وهي من باب: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وذلك بالصبر على أذى المشركين، دفعاً لتوسع الفتنة، وسداً لذريعة الضرر والأذى، إلا إذا ابتدأ المشركون الأذى ومحاربة المسلمين، فعند ذلك ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] .

لأن يوم القيامة يشتمل على أيام ومواقف، وعوالم وأحوال، لا بد أن يمر عليها الإنسان.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُذَكِّر الصحابة بأيام الله تعالى، حتى قال الزبير رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطبنا فيذكرنا الله حتى نَعرف ذلك في وجهه الشريف» كما رواه الإمام أحمد[1].

ومن أيام وعده للمؤمنين، ووعيده للكافرين قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ...﴾ الآيات من سورة الحديد.

والمعنى: اذكر لهم يارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم وعد الله للمؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي: نور إيمان المؤمن يسعى من بين يديه وبأيمانه، بمعنى أنه مُحيط به من كل جهاته، ويمشي مستنيراً بهذا النور حتىٰ يدخل الجنة.

ونور كل مؤمن على حسب إيمانه، فهناك الإيمان الكامل والأكمل والأكمل وهكذا.

وهذا لأنّ حقيقة الإيمان في قلب المؤمن هو: نور من عند الله تعالى، والنور هو: اسم لكل ظاهر وبه الظهور.

ولَمّا كان البصر يريك الأشياء ويظهرها لك سُمِّيَ نوراً، إلا أن هناك أمر يُظهر لك ما وراء الحجب، وهو العقل؛ فهو أولى أن يُسمى نوراً.

---

(١) (١/١٦٧).

ثم إنّ العقل محدود ومقيد بظواهر الأمور، فإذا وجد هناك شيء يُنور العقل وينفذ به إلى ما وراء الأشياء المعقولة المحسوسة، فهو أولى أن يسمى نوراً، وهو الإيمان بالله سبحانه، لأنه يُعرفك بالمغيبات، والعوالم الكثيرة التي أخبر الله تعالى عنها.

وعلى هذا فإن حقيقة الإيمان في القلب نور من عند الله تعالى، إلا أنَّه يتجلى علانيةً ويظهر حساً في العالم المطلق، لا في عالم الدنيا المقيد.

فإذا انطلق الإنسان من هذا العالم المحدود، ودخل في برازخ الآخرة، وأوَّله عالم القبر ظهر له نور الإيمان ورآه نوراً باهراً قوياً يسعى من بين يديه ومن حوله، ويرى أنوار طاعاته وصلواته وعباداته واضحة جلية، ويرى أنوار المؤمنين، ويرى ما لم يكن يرى في الدنيا، لأنه دخل في العالم المطلق.

وقد بين صلى الله عليه وآله وسلم حقيقة الإيمان في القلب فقال: «إِنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ خَلقه فِيْ ظُلْمَةٍ» ـ أي: ظلمة النفس والهوى والدنيا «ثُمَّ» أي: ما تركهم بل «أَلْقَى عَلَيْهِم مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلكَ النُّورِ اهْتَدَى» إلى الله، لأن النور شأنه الهداية، كما يهديك النور الحسي في طريقك «وَمَنْ أَخْطَأه ضَلَّ»[1].

أي: فاحذر أيها الإنسان أن يخطئك النور، بل عليك بالتماسه وطلبه عند مهبط نور الله تعالى، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال تعالى فيه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (١٧٦/٢) والترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة /٢٦٤٤/ (٢٩٨/٧) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فإذا حل النور في القلب عرف المؤمن ربه وآمن، فيُذْعن ويصدِّق ويعتقد بما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وهو نور الإيمان الذي قال فيه سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ممتداً أمامهم ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي: محيط بهم وبجهاتهم كلها.

ولم يذكر سبحانه لهم شمال لأنهم كلهم يُمن وبركة، وكل جهاتهم أيمان، أي: يُمن وبركة، فقال: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾.

وإنّ هذا النور يظهر لهم في القبور، ويظهر لهم في الحشر، ويظهر لهم حين يمشون على الصراط، وكل على حسب مقامه في الإيمان.

وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ مِنَ المُؤمِنِيْنَ مَنْ لا يُضِيء لَهُ نُورُهُ» أي: نور إيمانه «إلا مَوْضعَ قَدَمَيْهِ، والناس منازل بأعمالهم»(١) أي: أمامه فقط، ولهذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يستزيد من النور، ويُعَلِّم الصحابة وَمَنْ بعدهم أن يطلبوا النور ويزدادوا نوراً على نور، وهو نور الإيمان.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة رضي الله عنه.

ومن هذا دعاؤه صلى الله عليه وآله وسلم في طريقه إلى المسجد: «اللهم اجْعَل فِي قَلْبِيْ نُوراً، وَفِيْ سَمْعِيْ نُوراً، وَفِي بَصَرِيْ نُوراً، وَعَنْ يَمِيْنِيْ نُوْراً، وعَنْ شِمَالِيْ نُوراً، وأمامي نوراً، وخَلْفِي نُوراً، وفوقي نوراً، وَتَحْتِيْ نُوراً، وَفِيْ شَعْرِيْ نُوراً، وَفِيْ لَحْمِيْ نُوراً، وَفِيْ عَظْمِيْ نُوراً، وَفِيْ دَمِيْ نُوراً» الحديث[1].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يدعوا بهذا الدعاء أيضاً إذا فرغ من صلاة الليل.

والمعنى: أن يعم نور الإيمان جميع المدارك والحواس والجهات، فنور القلب هو التصديق والاعتقاد، ونور السمع والبصر والحواس هو الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة وهكذا.

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ثم ذكر سبحانه يوم وعيده للمنافقين فقال: ﴿يَوْمَ﴾ أي: واذكر يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للناس يوم ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ والمنافق هو: الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر في نفق قلبه. والنفق: هو المخبأ.

فلما مشى الناس على الصراط، وأضاء لأهل الإيمان نور إيمانهم، وأضاءت للمنافقين في أول خطوة خطوها أضاءت لهم كلمة لا إله إلا الله،

---

(١) كما في (المسند) (١/٣٤٣) و(صحيح) مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه /٧٦٣/ (٢/٨٥٢) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

فظنوا أَنَّ النور سيرافقهم ويستمر معهم، إلا أنه انقطع عنهم في الخطوة الثانية، وهذا مَكْرٌ بهم، لأنهم مكروا في الدنيا، وهذا خداع لهم، لأنهم كانوا يخادعون الله ورسوله، فكان الجزاء من جنس العمل، وإنّ الظلمة بعد النور أشد وأصعب من الظلمة ونسأل الله العافية.

فلما طفئ نور المنافقين، ورأوا أهل الإيمان يمشون بنور إيمانهم، قالوا: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ لا تسرعوا في السير، وتمهلوا حتى نمشي على نوركم ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي: كُلٌّ يمشي على نوره. فإذا كنتم تريدون النور فارجعوا إلى الدنيا، وصحِّحُوا إيمانكم، وأخلصوا دينكم، حتى تلتمسون النور وتمشون عليه. وهذا من باب التهكم عليهم، لأنه لا رجعة إلى الدنيا، وقد فات الأوان، ومضت الدنيا وصار أهلها في الآخرة.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ حاجز كبير محكم ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي: داخله وما وراءه فيه الجنة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وهي جهنم، أي: فُصِلَ ما بين المنافقين، وما بين المؤمنين بهذا السور، فصار المنافقون ينادون أهل الإيمان ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: ألم نكن معكم في الدنيا، ونجتمع بكم، وربما صلينا معكم وهكذا، فكيف تركتمونا ؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: بالنفاق ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: بأهل الإيمان إذ كنتم تتربصون بهم الدوائر والأذى ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموت والقيامة، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان.

واعلم أن المؤمنين وهم ما شون على الصراط، و رأوا أن المنافقين قد طفئ نورهم جعلوا يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ أي: لا تفعل بنا ما

فعلته بالمنافقين، وإن كان عندنا خطايا وذنوباً ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ الآية أي: أنت القادر على أن تغفر للمذنب والمقصر ولو كان ماشياً على الصراط.

ومن هنا تفهم أنَّ الدعاء والتوجه إلى الله لا ينقطع بعد الموت، وأن الله تعالى يُحِّب ذلك، ويتقبله بعفوه وكرمه سبحانه.

ولو كان دعاؤهم لا ينفعهم، أو أنَّ الله لا يجيبهم لَمَا ذكر الله عنهم الدعاء وكَرَدّه عليهم.

وهذا قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ أي: حتى يُنْعِمَ عليكم بحسن العواقب وتمام الإيمان والنور.

ومعنى التوبة النصوح أي: توبة كاملة غير ناقصة، خالصة لا شائبة فيها، لأن النُصْحَ معناه عدم الغش، ومنه: نَصَحَ العسل، إذا صفا من الشوائب.

ودليل التوبة النصوح أن يندم القلب على فعل الذنب، والندم توبة كما جاء في الحديث[١]، والندم هو: احتراق القلب وأسفه على مافرط في جنب الله تعالى.

---

(١) عند ابن حبان في (صحيحه) /٦١٣/ عن سيدنا أنس رضي الله عنه، وعند الحاكم في (المستدرك) (٤/٢٤٣) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

والتوبة النصوح هي التوبة الكاملة، أي: توبوا إلى الله من كل ذنوبكم، كالثوب الناصح. أي: الثوب الكامل الذي لا شق ولا خروق فيه، كما هو في (لسان العرب).

ويُسمى الخياط في لغة العرب ناصحاً، وتسمى الإبرة التي يخاط بها منصحَة، لأنها تنصح الثوب وترقعه.

فَمَنْ تحقق بالتوبة النصوح إلى الله سبحانه، حلَّ في مقام الرجاء الصحيح بدليل قوله سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

وذلك يوم يُخزىٰ فيه من يُخزىٰ، ويُكْرَم فيه من يكْرَم، وهم أهل الإيمان ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: لا ينجوا من الخزي والذل والخذلان إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين معه.

أما الكفار والفجار والفساق المصرون فهم في خزي وذل وهوان.

والخزي هو: حقارة النفس وصغارها، بسبب انكشاف عارٍ ونقص فيها، أو بسبب قهرٍ من الغير لها.

وأما الكفار فيخزون يوم القيامة بأنواع الخزي ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الآية [النحل: ٢٧] وذلك لأنه ظهر ما في قلوبهم من خبث وفساد، بعد ما كانوا مستترين في الدنيا لأنهم صاروا في يوم ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٦] أي: تُمتحن وتختبر فتظهر، وإذا ظهر على الإنسان عار وهو في مَجمع أصابه الخزي والذل، فكيف في يوم الجمع الذي جمع الله فيه الأولين والآخرين، وتظهر فيه السرائر واضحة كالعلائن.

وفي هذا تنبيه للمؤمن أن يكون ظاهره باطنه، وباطنه ظاهره خوفاً من ذلك اليوم الذي قال فيه سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ

خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]. أي: تظهر فيه الخافية التي كانت في الدنيا تُخفى عن غيركم، فصارت الخفايا ظاهرات، وصارت الظاهرات أشد ظهوراً.

فلما ظهر ما في نفوس الكفار من فساد وخبث، ثم جاءهم القهر والغضب الإلهي، اعتراهم الخزي الأكبر، في الوقت الذي أكرم الله به المؤمنين بسبب نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: بل له الحمد والثناء الحسن، وله المقام المحمود الذي يَحمده عليه الأولون والآخرون، ويظهر مقامه صلى الله عليه وآله وسلم مُحمَّد، ويظهر مقامه أحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومعنى أحمد: أي: أَنَّه أحمد الحامدين لرب العالمين، فهناك يقوم مقاماً يَحمَد فيه رب العالمين، ويثني عليه بمحامد جامعة كما قال: «فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَعْلَمُهَا الآنَ، يُلْهِمُنِيْها الله تَعَالَى» ثم يقال له: «يا محمَّد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع»[1]، ويظهر مقامه المحمدي، وهو شفاعته في أهل الموقف، ويُنْقِذُهم من أهوال الموقف، وينفض أمرهم إلى الحساب، فصاروا يحمدون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويثنون عليه، فهو محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنّ قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ أي: النبي المعروف، الذي هو عَلَم الأعلام، ومعرفة المعارف، والذي هو أول نبي وخاتم الأنبياء، والذي فرض الله على الأوليين والآخرين أن يعرفوه ولا يجهلوه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: أن الله تعالى لا يخزيهم لأنهم معه، فلهم المقامات العالية، إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعيتهم له.

---

(١) تقدم تخريجه ص /١٠٥/.

فكان الإيمان أماناً لهم من الخزي، وكانت معيتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبباً لإكرام الله لهم، وتفضله عليهم بالدرجات والمقامات.

وإن قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ بشارة للمؤمنين بمعية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا شرف وفضل كبير من الله عليهم.

وإنّ أول ما تشمل الآية أهل الإيمان الكامل الأكمل وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ على مراتب في إيمانهم، وإن أعلاهم إيماناً بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذين أدركوه وكانوا معه في عالم الدنيا مؤمنين به.

وفي هذا بيان فضل الصحابة رضي الله عنهم قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد بين صلى الله عليه وآله وسلم فضل أصحابه وقوة إيمانهم وإخلاصهم فقال: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَو أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيْفَهُ»[١] أي: قدر كفه أو نصفه شعيراً، وهذا لقوة الإيمان والإخلاص مع الله سبحانه.

وجاء في (سنن) الترمذي[٢]، و(مسند) أحمد[٣] وغيرهما، عن سعيد

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/٥٤)، والبخاري في فضائل الصحابة، باب لو كنت متخذاً خليلاً /٣٦٧٣/ (٧/٢١) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم في فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم /٢٥٤٠/ (٥/٢٤٩٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في كتاب المناقب، مناقب سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة /٣٧٤٩/ (٩/٣١٩).

(٣) (١/١٨٧و١٨٨).

ابن زيد رضي الله عنه ـ أحد العشرة المبشرين في الجنة ـ قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول ـ وَسَعيد يحدث التابعين ـ «أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ بن مالك فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ» وسكت عن العاشر وهو نفسه رضي الله عنه، تواضعاً منه، فقيل من العاشر فقال: «سعيد بن زيد»، وأشار إلى نفسه.

ثم قال سعيد: والله لمشهد رجل يُغَبِّرُ فيه وجهه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل منْ عَمَلِ أحدكم ؛ ولو عُمِّرَ عُمْرَ نوح عليه السلام. اهـ

أي: لو أن خياركم أيها التابعون عُمِّرَ عُمُر نوح عليه السلام، وشغل عمره بالطاعة والعبادة، لا يبلغ فضل صحابي شهد مشهداً، أو حضر غزوة، أو مخمصةً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتَغَبَّر فيها وجهه.

وما هذا إلا لقوة إيمان الصحابة وإخلاصهم، وشدة الحال التي لقيها الصحابة رضي الله عنهم في مواقفهم مع المشركين والمنافقين وغيرهم من الكفار.

وروى البيهقي في (الدلائل)[1] عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أن جماعة من التابعين دخلوا عليه فقال بعضهم له: هنيئاً لك، أدركت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فنتمنى أن نكون أدركنا ما أدركت.

فقال حذيفة رضي الله عنه: يا أخي لا تتمنى أن تشهد مشهداً غَيَّبك الله عنه، فإنك لا تدري حالك فيه، أهل تكون مع المؤمنين أم مع الكافرين.

ثُمَّ بَيَّن لهم أنَّ الصحابة لاقوا من الشدائد، وبذلوا نفوسهم وأموالهم في سبيل الله، ونصرة لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) (٤٤٩/٣) وما بعدها وانظر سيرة ابن هشام (٢٣١/٣).

فقال: والله لقد بتنا ليلة الخندق، وهي ليلة شديدة مخيفة، إذ تجمعت فيها أحزاب الكافرين والمنافقين واليهود، وكانت ليلة شديدة البرد، لم يتمكن فيها أحدنا أن يخرج من خيمته، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ يَقُمْ مِنْكُمْ فَيُعْلِمَنَا عِلْمَ الْقَوْمِ» ؟ وفي رواية: «فَيَأْتِيْنَا بِخَبَرِ القَومِ» ؟ قَالَ: فَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ.

فَقَالَ: «مَنْ يَقُمْ فَيُخْبِرُنَا خَبَرَ القَوم، وَيَكُونُ رَفِيْقَ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيهِ السَّلام يَومَ القِيَامَةِ» ؟ فَلَمْ يَقُم مِنَا أَحَدٌ . وذلك لشدة الخوف من الأعداء.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ يَقُمْ مِنْكُم وَيُخْبِرُنَا خَبَرَ القَومِ يَكونُ رَفِيْقِي».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: ابعث يا رسول الله حذيفة . ولا شك أن الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم مستعدون لنداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُريد غيرهم. أي: رجلاً غير معروف لدى الأعداء.

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قُمْ يَاحُذَيْفَةُ».

فقلت يا رسول الله: إني أخاف أن أؤسر.

فقال: «إِنَّكَ لَنْ تُؤْسَرَ».

قال حذيفة رضي الله عنه: والله كانت الليلة باردة، وكنت أخشى أن أترك الخيمة من شدة البرد، فقمت والبرد في جسدي، فلما خرجت من الخيمة صِرت في حَمَّام، فتسربت حتى دخلت في خِيَم القوم، وقد أرسل الله رياحاً باردة شديدة، نسفت خيمهم، وقدورهم، وتطايرت الأحجار على عيونهم، فَدَخَلْتُ فيهم وقد اجتمعوا . أي: اجتمع صناديدهم حتى يُقَرِّرُوا ماذا يفعلون ؟

فدخلت بينهم والليل مظلم، فقالوا لبعضهم: كل منكم يأخذ بيد صاحبه حتى لا يكون فيكم رجل من غيركم، قال: فأخذت بيد جليسي قبل أن يأخذ بيدي، وقلت له: من أنت؟ وهذا من باب الحيلة والمكر، لأنّ الحرب خدعة، فقرروا أن يرجعوا، وانهزموا في الليل.

ورجع حذيفة رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره بذلك، ففرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان مراد حذيفة رضي الله عنه أن أحدكم أيها التابعون قد لا يستطيع الثبات على هذا الموقف، أو غيره من المواقف الشديدة.

ودخل[1] جماعة من التابعين على المقداد بن الأسود رضي الله عنه، وقد شهد بدراً وغيرها، فقال له بعضهم: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَدِدْنا أنا كنا نشهد ما شهدت، وندرك ما أدركت.

فلما سمع المقداد رضي الله عنه قوله: وددنا أنا كنا نشهد ما شهدتم، أي: من الغزوات والمعارك، قال له: لا يتمنى أحدكم أن يشهد مشهداً لو شهده ما يدري أنّىٰ يكون في ذاك الوقت، وكيف يكون حاله، وهل يكون من المؤمنين أم من الكافرين؟

وقال: يا أخي إن الله تعالى بعث النبي عليه الصلاة والسلام على أشد حالٍ بُعث فيها نبي، وهي كثرة المشركين، وكانوا أفضل ما يرون عندهم عبادة الأوثان، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفرَّق بين الحق والباطل، فكان الرجل منا ـ أي: من الصحابه ـ يفتح الله قُفل قلبه للإيمان، ولكن يبقى أبوه كافراً، وأمه كافرة، وولده كافراً، وزوجته كافرة، وأخوه

(١) ينظر الخبر في (الحلية) (١/١٧٥).

كافراً ـ أي: هذا ما حصل أحياناً ـ فهو يتحسر في نفسه، ويقول: إن هلكوا على الكفر صاروا في النار، ثم عليه أن يقاطعهم. أي: فَمَنْ منكم يتحمل ذلك ويصبر عليه؟ ولهذا كان أحدنا يدعو: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] فاحمدوا الله تعالى أن الله أخرجكم من آباء مؤمنين، وأنكم صدقتم نبيكم، وكفاكم البلاء بغيركم، أي: بالصحابة رضي الله عنهم.

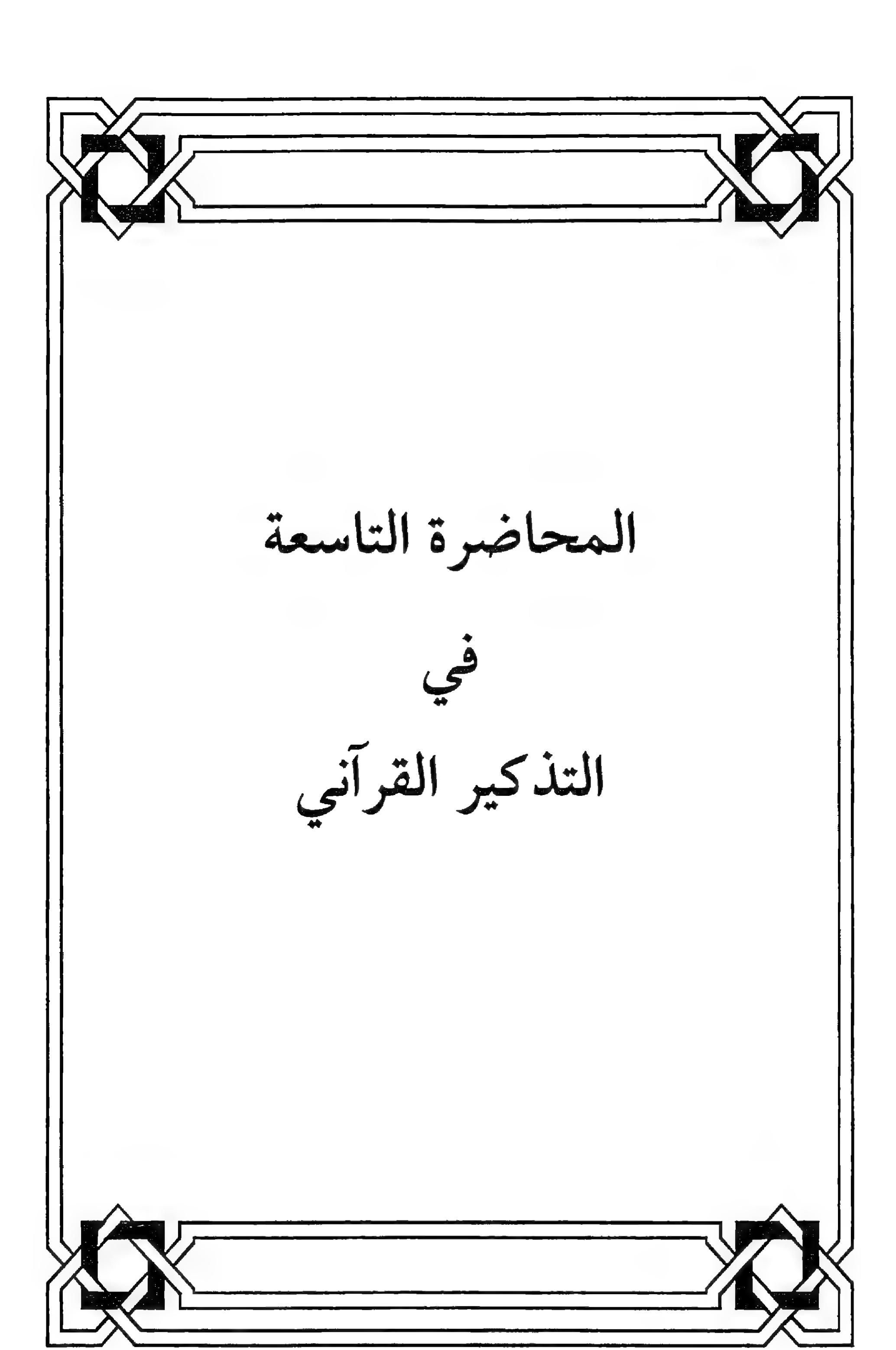
أي: فليس عند كل أحد استعداد وقابلية أن يكون من الصحابة، وليس عند كل أحد ذلك التصديق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والامتثال لأمره، لا سيما أنَّ أمره صلى الله عليه وآله وسلم أمر مطاع لا تَخَلّف فيه، كهجر المال والعيال، والنهوض إلى الغزوات وغير ذلك، وَمَنْ تخلف خَرَج عن الملة، وَمِنْ هنا تعلم فضل الصحابة، وعلوّ مكانتهم على سائر هذه الأمة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾.

وهو نور الإيمان الذي اقتبسوه من سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم، واستناروا بنور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفتح الله قلوبهم لأنواره، فأحبوا الإيمان وتعشقوا به، حتى أحاط نور الإيمان بجهاتهم كلها يقولون: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين.

* * * * *



المحاضرة التاسعة

في

التذكير القرآني

قال تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ
ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ
﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾
فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ
نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ
أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ
ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا
كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا
لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾
فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

ولقد ذكر سبحانه في هذه السورة المبدأ والمعاد، وعواقب أهل الجنة، وعواقب أهل النار، وما مر على هؤلاء وهؤلاء في الدنيا، وما سيمر عليهم في برازخ الآخرة، بعد ذلك قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ

رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي: فذكر يا رسول الله بهذا القرآن، وبهذه السورة، لِما في التذكير من نفع لمن ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

أما معنى الآيات:

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ أقسم سبحانه وتعالى بعظائم القدرة الإلهية ومظاهرها، كالبحر وما فيه من عوالم، أو السماء المرفوعة وما فيها من الكواكب والشموس والأقمار، ثم هناك البيت المعمور الذي عَمَرَه أهل الإيمان من أهل السماوات والأرض، ثم هناك جبل الطور وآثار التجلي عليه، وكل هذا مظاهر لقدرة الله تعالى، ومجالي لحكمته سبحانه.

ولقد أقسم سبحانه بهذا كله على أن أمر الساعة حق لا بد منه، وأن خراب عالم الدنيا أمر حق، وأن العذاب لابد للكافرين منه، وأن الذي رفع بقدرته السماء المرفوعة وما فيها من عوالم، ونصب بقدرته البحر المحيط لقادر على أن ينقل هذا الإنسان إلى عالم آخر، وأن يقيم الساعة.

﴿وَٱلطُّورِ﴾ هو: الجبل الكبير، والمراد في الآية جبل الطور الذي كلم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام عنده، وإنما سميَّ طوراً لتطوره بعد أن تجلىٰ عليه رب العزة، لأن لتجليات الله تعالى آثاراً، ومنها التطور والترقي، وفي هذا إشارة: وهي أنه إذا كانت تجليات رب العالمين تطور الجبال، فمن باب أولى أنها أشد تأثيراً على قلوب المؤمنين.

وقد ورد أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يتجلى عند جبل الطور ويكلم موسى عليه الصلاة والسلام، أوحى الله تعالى إلى الجبال إني متجل على جبل

منكم، فتشامخت الجبال وتطاولت ورأت في نفسها قابلية واستعداداً لذلك التجلي، إلا جبل الطور فتواضع لله تعالى، وقال: أنا راضٍ بما قسمه الله لي.

فتواضع لله فرفعه الله تعالى، فخص الله تعالى جبل الطور بالتجلي بسبب تواضعه وانكساره لرب العالمين جل جلاله.

وقد حصل للجبل تطور عجيب، وتأثر بالتجلي وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فصار موسى عليه الصلاة والسلام في طَور، والجبل في طور آخر وهكذا.

قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ المراد منه أعظم الكتب، وهو القرآن الكريم المسطور في اللوح المحفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾.

وهو مسطور في صحف الملائكة: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس١٣ـ١٦].

كما أنه مسطور في عالم الأرض كما هو معلوم، وإنما وصف الله تعالى هذا القرآن بأنه كتاب مسطور ليُبيِّنَ أن هذا القرآن مسطور في كل العوالم، ولا يقبل المحو ولا الزيادة ولا النقص، لأنه مسطور، أي: مسطور بأمر رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ لا في رقٍ مهجور، والرق: هو الصحيفة، فالملائكة وأهل السماوات يقرؤون هذا القرآن، ويتقربون به إلى الله سبحانه.

وفي هذا إشارة وتحذير لك أيها المؤمن من أن تتخذ هذا القرآن صحيفة مهجورة مطوية، بل انشره. أي: افتحه واقرأه، كما هو منشور عند أهل السماء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ المراد جنس البيت المعمور ونوعه، أي: البيت المعمور في كل عالم لأن كل عالَم، فيه بيت معمور، فالسماء السابعة فيها البيت المعمور الذي عَمَرته الملائكة والأرواح العالية بالعبادة والطاعات، وقد رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء والمعراج فقال[1]: «ثُمَّ رُفِعَ لِيَ البَيْتُ المَعْمُورُ، فقلت: يا جبريل ما هذا؟، قال هذا البيت المعمور يَدْخُلُهُ كُلَّ يوم سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إذا خرجوا منه لم يَعُودُوا إليه آخر ما عليهم» لأن الدور والنوبة لغيرهم من الملائكة، الذين لم يدخلوا البيت المعمور بعد. فما أكثر ملائكة الله تعالى صلوات الله عليهم أجمعين ؟!!.

وإنّ البيت المعمور هو قبلة السماء السابعة، وقد أسند إبراهيم عليه السلام ظهره إليه، كما رآه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ويخرجون من الباب الأخر، ولا يتيسر لهم أن يدخلوه مرة أخرى لأن الدور لغيرهم.

واعلم أن لكل سماءٍ بيتاً معموراً هو قبلتها، وبيت العزة هو قبلة السماء الأولى، والبيت المعمور في عالم الأرض هو الكعبة المعظمة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] فإليه يتوجه المؤمنون في صلواتهم وحجهم والطواف حوله.

---

(١) طرف حديث الإسراء وهو في (المسند) (٤/٢٠٧) وعند البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة /٣٢٠٧/ (٦/٣٠٢) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم /١٦٢/ (١/٣٢٠) عن سيدنا مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

كما أن الإنسان عالم وفيه بيت معمور، إذا عمره صاحبه بالإيمان؛ وهو القلب.

فلا تترك أيها الإنسان قلبك مهجوراً، وإلا أَوَتْ إليه الشياطين، كما تأوي الحشرات والثعابين إلى البيت المهجور، بل عليك أن تعمر قلبك بالإيمان بالله، وتُخَلِّيه عن الأكدار والخبائث، وتُحَلِّيه بالفضائل والنيات والعزائم الحسنة، وعند ذلك يصير قلبك مأوى للملائكة عليهم السلام.

قوله تعالى ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ ويشمل السقف المرفوع بالنسبة لعالم الأرض وهو السماء ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ الآية [الأنبياء: ٣٢].

كما يشمل السقف المرفوع بالنسبة لعالم السماوات وهو العرش، كما جاء: «وَسَقْفُ الجَنَّةِ عَرْشُ الرَّحْمن»[1].

ومعنى المرفوع: برفعته وإحكامه وإتقانه وشرفه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي: في العالم كله، ففي عالم الأرض هو البحر المحيط، لأن أبحر الأرض متصلة مع بعضها، و﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ هو المملوء بالماء، ومنه الباخرة المسجورة، أي: المملوءة بالأمتعة.

والمعنى الآخر لقوله: ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ المحبوس المكفوف، كما تدل عليه هذه المادة في اللغة.

فقوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي: المملوء ماءً، لكنه ممنوع ومكفوف عن أن يسترسل ماؤه إلى اليابسة، ولولا أن الله تعالى يكف البحر ويحبس ماءه فيه لطفا على البر، وأغرق أهل الأرض.

---

(١) كما في تفسير ابن كثير، والفردوس /٣٥٢٧/ وغيرهما.

وهناك مناطق في الأرض تكون أخفض من مستوى البحر، فَمَنِ الذي أمسك البحر عن التدفق والانهيار إلى البر، هذا هو الله سبحانه الذي خلق البحر بقوله: ﴿ كُن﴾ فكان، فعرف ربه، لأنه هو خلقه وكوّنه، ولذلك فإن البحر حين يرى الكُفر والمعاصي في بني آدم تأخذه الغيرة الإلهية، ويحاول أن يُهلك بني آدم، لكنه تعالى يكفه عن ذلك.

وفي هذا جاء الحديث الذي رواه الإمام أحمد في (مسنده)[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليس مِنْ لَيْلَةٍ إِلاَ وَالْبَحْرُ يُشْرِفُ فِيهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ» أي: يتعالى «يَسْتَأْذِنُ الله أن ينتضح عليكم» أي: يغرق أهل الأرض بكفرهم «فَيَكُفُّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ قال بعض الصحابة رضي الله عنهم، أي: المتوقد المملوء ناراً، كما يُقال: سجر التنور فهو مسجور، أي: متوقد، ولا تنافي في هذه المعاني، لأن البحر تَمر عليه أحوال قُبيل الساعة، فيمر أولاً عليه حالة تَطفِ البحور على بعضها، ثم بعد ذلك تشتعل ناراً، بسبب ظهور مادة محرقة فيها، ثم تجف وتيبس، لأن السَّجْرَ في اللغة أيضاً يدل على التضاد، أي: الاشتعال واليُبْس.

وعلى هذا فقوله سبحانه: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي: المملوء المحبوس في حالة أولى، ثم هو المشتعل المتوقد، وسمي بالمسجور بمعنى اليابس، وهي الحالة الأخيرة التي تمر عليها، وهذا من علامات الساعة، وتخريب هذا العالم حينما يأتي أمر الله سبحانه.

---

(١) (١/٤٣) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ثم بَيَّن سبحانه جواب القسم عليه فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: أن الذي ظهرت آيات قدرته، وعجائب حكمته فيما ذكر من آيات، قادر على إقامة الساعة، ليميز الله الخبيث من الطيب، وأن العذاب على الكافرين حق، ومتى وقع فليس له من دافع يدفعه عن الكفار.

ومتى يكون هذا العذاب نسأل الله العافية؟ ومتى تقوم الساعة؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ أي: تتموج وتضطرب تموجاً وهيجاناً كأمواج البحر.

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي تسير في الجو، كما قال سبحانه ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [عم: ٢٠] كالسراب المتحرك الذي يراه الإنسان من بعيد، فإن الجبال مع صلابتها وقساوتها فإنها يوم القيامة تتلاشى، وتضمحل وتنتشر في الأجواء، حتى يراها الإنسان كالسراب، وكالهباء المنثور، كما بين الله سبحانه ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ وهذا من جملة التذكير بأيام الله تعالى، وهو يوم وعيده للمكذبين.

ثم بعد ذلك ذكر سبحانه المتقين، وما وعدهم من ألوان النعيم، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وإن الذي يتذكر هو الذي ينظر في العواقب، ويتفكر بها. وهم أهل الإيمان.

ولذلك لما سمع سيدنا عمر رضي الله عنه هذه الآيات و هي ﴿وَٱلطُّورِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ لما سمعها من قارئ وكان يتجول في سكك المدينة، ويتفقد أحوال الرعية، أخذت هذه

الآيات من قلبه مأخذاً كبيراً، حتى نزل عن حماره، واستند إلى جدار، ثم أمر من كان معه أن يحمله على الحمار، وذهب إلى بيته، وبقي شهراً مريضاً ـ يعوده الناس لا يدرون ما مرضه ـ من شدة تذكره وتأثره بهذه الآيات، وكأنه لم يسمعها من قبل[1].

وهذا لأنّ للقرآن تنزلات بأنواره وأسراره كلما قُرئ.

وقال جبير بن مطعم رضي الله عنه: أتيت المدينة حتى أكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أسرى بدر، ـ وكان مشركاً وقتئذ ـ فقيل لي إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد، فأتيت المسجد فرأيته صلى الله عليه وآله وسلم يُصلي في أصحابه صلاة المغرب، فسمعته يقرأ: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾.

قال: والله لما سمعت هذا خشيت أن ينزل العذاب فيَّ، فأدخل الله عليَّ الإسلام من ذاك الوقت.

وقال أيضاً: والله ما سمعت أحسن صوتاً وقراءة من محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي رواية قال: حتى كاد أن يطير لها قلبي. وأسلمَ رضي الله عنه[2].

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

---

(١) كذا في تفسير ابن كثير معزواً لابن أبي الدنيا، وأخرجه الإمام أحمد في (الزهد) كما في (الدر المنثور).

(٢) الخبر في البخاري/٧٦٥ و٣٠٥٠ و٤٠٢٣ و٤٨٥٤/ ومسلم /٤٦٣/.

أي: يكذبون بيوم الجزاء والحساب، وهم يخوضون في مخاضات اللهو واللغو في مجالس الأباطيل، التي لا فائدة منها في الدنيا والآخرة، وما خوضهم هذا إلا لعب، لأن كل أمر لا ينفع في المستقبل فهو لعب، والمستقبل الذي لا مفر منه إنما هو الآخرة.

وفي هذا تحذير للمؤمن أن يخوض في الباطل، وأن يتجنب مجالس اللهو واللغو، وأنَّ من شأن العاقل أن يشتغل بما ينفعه، وهو ذكر الله تعالى، والكلام الجد الذي فيه نفع في أمور الدنيا والآخرة، وإذا صلحت الدنيا كما شرع الله تعالى، صلحت للإنسان آخرته، ولا يجوز للمؤمن أن يخوض ويجلس مع أهل الباطل، وإن لم يتكلم بكلامهم الباطل، أو يستمع إليهم، وفي هذا روى الطبراني(١)، عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أَحَبُّ العمل إِلَى الله تَعَالَى سُبْحَةُ الحَدِيْثِ، وَأَبْغَضُ الأَعمَالِ إِلَى الله التَحْرِيفُ».

قلنا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما سبحة الحديث ؟

قال: «يَكُونُ الْقَومُ يَتَحَدَّثُونَ ـ أي: باللهو واللغو ـ والرجل بِهِ يُسَبِّحُ».

قلنا: يا رسول الله وما التحريف ؟

قال: «الْقَومُ يَكُونُونَ بِخَيْرٍ، فَيَسأَلُهم الجَارُ والصَّاحِبُ كَيفَ أَنْتُمْ ؟ يَقُولُونَ: نَحْنُ بِشَر».

أي: أنهم ينكرون نعمة الله عليهم، ويجحدونها بسبب شيء اعتراهم أو ضيق مرَّ بهم.

وإنما كانت سُبْحةُ الحديث أحب الأعمال إلى الله تعالى، لأنه ذكر الله تعالى حين غفل الناس عنه، وهذه صفة الأوابين.

---

(١) (مجمع الزوائد) (١٠/ ٨١) عن سيدنا عصمة رضي الله عنه.

ولهذا كان كثير من السلف رضي الله عنهم يذكرون الله تعالى في مُزدَحَم الأسواق، أي: ولو سراً، وذلك حتى يتحقق وينال ثواب الذاكر بين الغافلين.

ولا بأس أن يُذكِّرهم بالله تعالى، بتحريضهم وحثهم على ذكر الله تعالى.

قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

وقد روى البيهقي في (الشُّعَب)[1] عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ذَاكِرُ الله تَعَالَى فِيْ الغَافِلِيْنَ كالمُقَاتِلِ خَلْفَ الفَارِّيْنَ، وذَاكِرُ الله تَعَالَى فِيْ الغَافِلِيْنَ مَثَلُ الشَّجَرَةِ الخَضْرَاءِ في وسط الشَّجَرِ اليَابِس، وذَاكِرُ الله تَعَالَى فِيْ الغَافِلِيْنَ مثَلُ المِصْبَاحِ فِيْ البَيْتِ المُظْلِمِ، وذَاكِرُ الله تَعَالَى فِيْ الغَافِلِيْنَ يُرِيْه الله مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ وَهُوَ حَيٌّ» أي: ولو كان قبيل الوفاة «وذَاكِرُ الله تَعَالَى فِيْ الغَافِلِيْنَ يَنْظُرُ الله إِلَيْهِ نَظْرَةً لاَ يُعذِّبُه بعدها أبداً» الحديث.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾:

﴿دَعًّا﴾ أي: جرًّا وسحباً، فهم يُدْفعون إلى جهنم دفعاً ويُجرون جراً، ويقال لهم: هذه النار التي كنتم تكذبون بها ولا تؤمنون بوجودها، وعندما أخبركم الله ورسوله عنها اتهمتم رسول الله بالسحر، وقلتم: إنه كلامه، وما جاء به إنما هو سحر وأساطير، والآن قد شاهدتم النار وعاينتموها، فماذا تقولون؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أي: ادخلوها في قرارها ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) تنظر روايات الحديث في (الشُّعَب) (١/ ٤١١) وما بعدها عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وهو في (ترغيب) المنذري /٢٥٢٦/ (٢/ ٥١٨).

وبعد ما ذكر سبحانه وَصْفَ الكفار وعواقبهم في الدنيا والآخرة، ذكر المؤمنين وما أعدَّ لهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

والمعنى: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: مسرورين مُغتبطين، مِنْ فَكِهَ: إذا سُرَّ واغتبط، ومنه الفكاهة وهي: ما يدخل السرور على الإنسان.

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ الذي هو ضد النعيم، فوقاهم العذاب مع الإكرام لهم والإنعام عليهم.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

وفي هذا ألوان من النعيم الجسماني والقلبي، ومن جملته زياراتهم إلى بعضهم، وهم على الأسرة العالية المصفوفة والمتقابلة.

وقد جاء في الحديث: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض» أي: أصحابهم المؤمنين في الدنيا «فَيَسِيْرُ سَرِيْرُ هَـذَا إِلَى سَرِيْر هذا» الحديث[1].

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قَرَنَّاهم بالحور العين، وليس المراد تزويج العقد، بل تزويج الجمع والقَرْن.

والحور أي: يحار النظر في جمالها وبياضها.

و﴿عِينٍ﴾ أي: واسعة الأعين، وفيها شدة في بياض البياض، وسواد السواد.

---

(١) عزاه في (الترغيب) (٤/٤٥٤) إلى ابن أبي الدنيا والبزار، وينظر (مجمع الزوائد) (١٠/٤٢١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

واعلم أن أزواجهم في الدنيا إنما هي معهم في الجنة، كما أن أزواجهم في الدنيا أعلى مرتبة وأحب إليهم من الحور العين، لأن منزلة المرأة المؤمنة في الجنة فوق مرتبة ومنزلة الحور العين بما لا يقاس، وقد قال سبحانه في إقرار أعين الأهل بأهلهم ومن يلوذ بهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: إيماناً كاملاً ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ أي: ولو دون إيمان الآباء ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآيات [الطور: ٢١].

وهذا لأن نعيم أهل الجنة لا يتم لهم إلا إذا قرت أعينهم بآبائهم وأبنائهم وأزوجهم، وإن الله تعالى يتفضل عليهم بذلك، ويلحق الفروع بالأصول حتى تقرَّ أعين الأصول، إكراماً للأصول، ودون أن يُنقص من مرتبتهم ومنزلتهم شيئاً.

وفي هذا دليل على أن النسب الصالح ينفع، وأن أولاد الصالحين يُكرمهم الله بسبب صلاح آبائهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله ليرفع ذرية العبد المؤمن يوم القيامة حتى تقر عينه. وقرأ هذه الآية: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم...﴾ الآيات.

ومن هنا كان الحسن البصري رضي الله عنه وسعيد بن المسيب رضي الله عنهما كانا يجتهدان في قيام الليل ـ أي: يكثران العمل والصلاة في الليل ـ فسُئل عن ذلك؟

فقال: أنا أعمل لي ولأولادي.

واعلم أنَ الله تعالى يُكرم الأبناء لصلاح الآباء، يكرمهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا قال سبحانه: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] فأكرم الوَلَدَيْن، وحفظ لهما الكنز بسبب صلاح أبيهما.

وأما في الآخرة فيرفع الله الأبناء إلى منزلة الآباء إكراماً للآباء، لتقر أعينهم بهم، كما تقدم[1]، وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: «إِذَا دَخَلَ الرجل الجَنَّةَ سَأَلَ عَنْ أَبَوَيْهِ وَزَوْجَتِهِ وولده.

فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك.

فيقول: يارب قد عملت لي ولهم. فيؤمر بإلحاقهم»[2]

وفي الحديث الآخر[3] قال: صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته؛ وإن كانوا دونه في العمل لتَقَرَّ بهم عَيْنُهُ» وهذا من باب الفضل الإلهي.

وكما أنه سبحانه يكرم الأبناء بالآباء، فإنه يكرم الآباء بالأبناء أيضاً، وهذا إذا كان الولد صالحاً، ودعا لوالده دعوة صالحة، فيرفع الله والده، كما ورد في الحديث[4]: «إِنَّ الله عز وجل لَيَرْفَعُ الدرجة للعَبْدِ الصالح فِي الجَنَّةِ، فَيَقولُ: يا ربِّ أَنَّى لِيْ هَذَه ؟

فيقول: باستغفار ولدك لك».

وفي الحديث[5] أيضاً: «إِذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَ مِنْ ثَلاَثَة: إلا من صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له».

---

(١) أي: قبل قليل.

(٢) الحديث رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٧/١١٤) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه،.

(٣) رواه البزار (مجمع الزوائد) (٧/١١٤) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٤) الذي رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/٥٠٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته /١٦٣١/ (٣/١٦٨٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

أما من ناحية المؤاخذة على الذنوب، فإنه سبحانه لا يؤاخذ الآباء بالأبناء، ولا الأبناء بالآباء فقال الكريم جلّ وعلا: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

ففي مقام الفضل ألحق المقصر بالكامل، وأما من حيث المؤاخذة على الذنوب فهي بموجب العدل، فلا يؤاخذ الأب بجريمة ابنه، ولا الولد بجريمة أبيه، بل ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ﴾ من الذنوب ﴿رَهِينٌ﴾ أي: محبوس بذنوبه، ولا تتعدى المؤاخذة إلى غيره.

وهذا لا ينافي أنَّ المتسبب في ضلال غيره يكتب ذلك في صحيفته، ويؤاخذ عليه، لأن هذا من جملة كسبه وعمله و﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

فذكر سبحانه أولاً مقام الفضل، ثم العدل والمؤاخذة على الذنوب، ثم قال سبحانه: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: يُقدم لهم الكؤوس وهم في مجالسهم، ويشربون من خَمرة الجنة وهم يتعاطونها بينهم، فيشرب هذا ويقدم لذاك وهكذا على وجه المسامرة.

قوله تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: أن خمرة الجنة لا تؤثر في شاربها تأثيراً قبيحاً، فتجعله يعربد في الكلام كالسب والشتم؛ كما هو حال خمرة الدنيا.

﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: ولا أفعال أثيمة فاجرة، كما هو حال شاربي خمرة الدنيا، فتراهم عندما يشربونها يقومون بأفعال أثيمة قبيحة، وربما قام الرجل إلى زوجة صاحبه ونحو هذا والعياذ بالله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ وهؤلاء الغلمان من خَلْق الجنة، يطوفون على أهل الجنة بالخدمة والضيافة، وإذا كان هؤلاء الغلمان في نظافتهم وجمالهم كاللؤلؤ المكنون وهم خدم لأهل الجنة، فما بالك بجمال وطيب أهل الجنة ؟!!

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وهذا من باب أحاديثهم في مجالسهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين.

قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: كثير البر، رحيم بعباده المؤمنين.

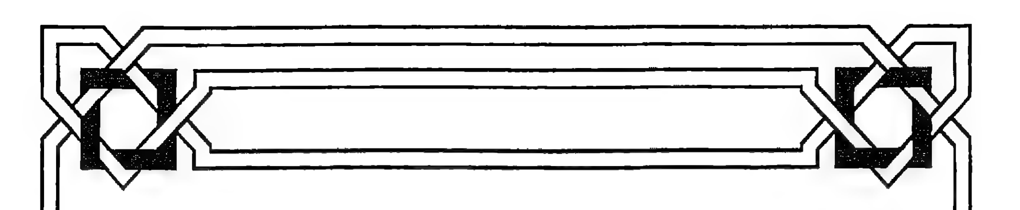
وقرأت السيدة عائشة رضي الله عنها هذه الآية فقالت: اللهم قنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم.

فَمَنْ خاف الله تعالى في الدنيا أَمَّنه الله يوم القيامة، ثم قال سبحانه في آخر السورة: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي: أن هذا من جملة تذكير القرآن، وقد ذكَّر النبي عليه الصلاة والسلام ووصل تذكيره إلينا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

* * *



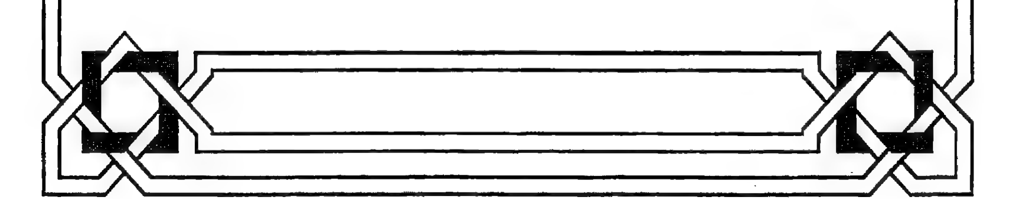
المحاضرة العاشرة

ومن مواقفه

صلى الله عليه وآله وسلم

مع العالم

أنه جاء واعظاً لهم



من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم
أنه جاء واعظاً لهم

قال الله تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣] وقال سبحانه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

والوعظ هو: التذكير بعواقب الأمور.

وقد وعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس بالوعظ القرآني الذي سنذكر طائفة منه.

وهناك المواعظ النبوية، وهي أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم، ومواعظه التي وعظ بها الصحابة رضي الله عنهم، ووصل ذلك إلينا.

ولقد كانت مواعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تؤثر في النفوس، وترقق القلوب، وتبعث على الخوف والخشية من الله تعالى.

كما جاء في الحديث[١] عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ موعظة وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، ومَضَّت مِنْهَا الجُلُود ـ أي: تألمت حتى كادت أن تحترق من أثر الوعظ، والخشية من الله ـ فقلنا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنها موعظة مودع فأوصنا.

قَالَ «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ».

وفي رواية: قالوا: كأنها موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا ؟

---

(١) تقدم تخريجه في أول الكتاب (ص: ١٥).

قال: «أنِ اتَّقُوا الله، وَإِيَاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَة» أي: اتبعوا ولا تبتدعوا شيئاً من أفكاركم وآرائكم، بل اتبعوا سنتي، وسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وما جرى عليه التابعون اتباعاً لهم، وما ذكره السلف الصالح اتباعاً لهم.

وأفْهَمَ هذا الحديث مدى أثر وعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصحابة رضي الله عنهم، وأن الوعظ له نفع وأثر كبير في النفس، وأن المسلم يجب أن يستمع إلى مواعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه لا غنى له عن ذلك مهما بلغ في إيمانه وعلمه، لأنّ للوعظ المحمدي أثراً في القلوب: «وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ»، وأثراً في النفوس: «وذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ»، وأثراً في الخشية: «ومَضَّت مِنْهَا الجلُود».

ولقد كانت مواعظه صلى الله عليه وآله وسلم تهز قلوب الصحابة رضي الله عنهم، بل كانت تهز الجمادات.

كما ورد في (المسند)[1] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صعد المنبر، فجعل يُعظم رب العالمين ويذكر جلال الله تعالى ويقول: «يُمَجِّدُ الله نَفْسَهُ: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم».

قال ابن عمر رضي الله عنهما: فرجف برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبر، حتى قلنا: ليخرنّ به.

فقد اهتز المنبر متأثراً بوعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلامه، لكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثابت عليه.

---

(١) (٢/٧٢و٨٨).

وهذا الجذع حنَّ لفِراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه كان يتأثر بكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووعظه.

فما بالك أيها المسلم تزعم أنه لا حاجة بك لسماع مواعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في الوقت الذي كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يحرصون كل الحرص على سماع كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووعظه وتذكيره، ويعتريهم حال أهل الجنة عند سماعهم ذلك.

ومن هذا قال أسيد بن حضير رضي الله عنه: لو أنِّي أكون على حالٍ مثلَ ما أكون عند سماع كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكنت من أهل الجنة. اهـ[1] أي: أنه يرى حال أهل الجنة عند ما يسمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلامه.

وهذا يدل على الصفاء والنقاء والارتقاء والمشاهدة، التي تعتري الصحابة عندما يسمعون كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فسارع أيها المؤمن لسماع مواعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتذكيره وأحاديثه، حتى تصفو نفسك، وتنجلي الظلمات عن قلبك، ولترتقي في مقامات الإحسان.

ومن المواعظ القرآنية قوله سبحانه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَعِظْهُمْ﴾، ثُمَّ بَيَّنَ بعد ذلك بآيات فائدة الوعظ، وأثر الوعظ في المؤمن ـ فيما إذا سمع الموعظة واتعظ بها ـ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

---

(١) رواه الطبراني، مجمع الزوائد (٩/٣١٠) وأحمد في (المسند) (٤/٣٥٢) بنحوه.

قال سبحانه: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٣-٦٧].

لما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالوعظ بقوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ ذكر آيات فيها موعظة، ثم ذكر الآيات التي تدل على أثر الوعظ في قلوب المتعظين.

والمعنى: وعظهم بهذه الآيات يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقل لهم قولاً مُؤثراً في أنفسهم، بليغاً يبلغ قلوبهم، ويُوصِل المعاني إليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ليطاع فيما أَمَرَ، ويُنتهى عما نهى، فَلم يرسل الله تعالى الرسل إلى الأمم حتى تشهد لهم باللسان فقط، وتخالفهم في العمل.

وفي هذا موعظة من الله تعالى، أن يكون موقف المؤمن مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم موقف المتبع المطيع، وأنه لا تكفي الشهادة على صدق الرسول باللسان فقط، دونما اتباع وانقياد لأوامره.

فلقد كان المشركون يعرفون أن محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ولكنهم لم يطيعوه لا إيماناً ولا عملاً، فليسوا من الإسلام في شيء.

بل الإيمان هو الطاعة والانقياد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تصديقاً وعملاً.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمر الله، وإرادته ومشيئته سبحانه، ومن لم يتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل ما جاء به بل أخذ من الشرع ما وافق هواه وآراءه، فيقال له: أنت لست مطيعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل مطيع لعقلك وهوى نفسك، لأن الطاعة تستلزم الانقياد النام للمطاع وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ولهذا كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتبعونه إتباعاً كلياً مطلقاً، سواء ظهر لهم حكمة الأمر أو لم تظهر، لأنهم أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ينطق إلا عن حق وحكمة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٢-٤] ولم يُعْمِلوا أفكارهم وآراءهم تجاه أمره ورأيه صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا يحاولون اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم حتى في عاداته، وسَيْره وجلوسه وما هنالك.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بارتكاب ذنب ﴿جَآءُوكَ﴾ أي: جاؤوا إليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَآءُوكَ﴾ أي: لأنك وسيلتهم إلى الله تعالى، فعنك أخذوا الإيمان، وبواسطتك يكون لهم الغفران يارسول الله، إذ لولا رسول الله ما عرفوا الله جل وعلا.

وإنَّ قوله تعالى: ﴿جَآءُوكَ﴾ يُثبت واسطته صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه الوسيلة العظمى إلى الله في جميع العوالم.

﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾: أي طلبوا المغفرة من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: سألوا الله تعالى أن يقبل استغفارهم، فيغفرَ لهم ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وهذه مواجيد قلبية حقيقية، إذ أنه لم يقل لغفر الله لهم، وذلك لأن مجيئهم إليه صلى الله عليه وآله وسلم يُذهب الظلمات عن قلوبهم، وينورها، ويرفع عنها الحجب والأكدار، فإذا جاؤوا مستغفرين صادقين، واستغفر لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لوجدوا الله وجداناً قلبياً، بصفة التوبة والرحمة: ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

وقد أثبت الشارع أثراً كبيراً للمواجيد القلبية ومن ذلك :

روى مسلم في (صحيحه)[1] يقول الله تعالى يوم القيامة: «يَاابنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي.

قَالَ: يَارَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وأَنْتَ رَبُّ العَالَمِيْنَ ؟

قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِيَ فُلاَنَاً» أي: المؤمن الصالح «مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ» الحديث.

---

(١) في كتاب البر والصلة الآداب، باب فضل عبادة المريض /٢٥٦٩/ (٢٥١٧/٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا باعتبار أنّ هذا العبد المؤمن الصالح لَمّا مرض، فإنّ حاله وشأنه كله قد توجه إلى الله تعالى، وإنّ الله تعالى مَع مَنْ ذكره، وجليس مَنْ ذكره، فمن عاده وجد نور الله عنده، ووجد الرحمة الإلهية الخاصة عنده، وُجْداناً قلبياً.

ومن ذلك أيضاً: ما ورد أن سيدنا موسى عليه السلام قال: «يارب أَيْنَ أَجِدُكَ ؟ قال: أَنَا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُم مِنْ أَجْلِي»[1].

أي: تجد الله وجداناً قلبياً مطلقاً عن القيود، وذلك بأنواره وأسراره سبحانه، ولا شك أن أعظم الحضرات التي يتجلى فيها رب العالمين بأسراره وأنواره ورحماته وبركاته، إنما هي حضرة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولذلك قال سبحانه: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

ومن أجل ذلك كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا جلسوا معه في مجلسه انكشفت لهم الأمور وعاينوا الحقائق، ومن ذلك سماعهم تسبيح الحصى والطعام والشراب في مجلس رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما روى البخاري[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كُنَّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن أجل ذلك أيضاً قالت الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما لنا إذا كنا عندك رقَّتْ قُلُوبُنا، وكأننا نرى الجنة والنار رؤية عين.

واعلم أن حكم المجيء إليه صلى الله عليه وآله وسلم حكم عام، لا

---

(١) ينظر (كشف الخفاء) للإمام العجلوني.

(٢) في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام /٣٥٧٩/ (٦/٥٨٧).

ينقطع في الدنيا عندما كان صلى الله عليه وآله وسلم في حياة الدنيا، ولا ينقطع بعد انتقاله إلى حياة البرزخ صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ...﴾ ولم يقيدها بزمن أو بحال معين خاصة، وقد ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر لأمته عندما تعرض عليه أعمالها، وفيها ذنوب وتقصير.

هذا ما فهمه السلف رضي الله عنهم، أن حكم الآية عام لا ينقطع، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم حيٌّ بحياة برزخية أقوى من الحياة الدنيوية، وأن حرمته صلى الله عليه وآله وسلم ميتاً كحرمته حياً.

ومن هذا ما جرى بين الإمام مالك والخليفة أبي جعفر المنصور وقال له الإمام مالك: واعلم يا أمير المؤمنين أن حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ميتاً كحرمته حياً[(١)].

ثم قال: وَلِمَ تصرف وجهك عنه؟ وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى يوم القيامة، بل استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستشفع به، يُشفِّعه الله تعالى فيك، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ...﴾ الآية.

ومن ذلك ما ذكره العلماء والمحدثون، عن قصة العلامة العتبي والأعرابي، الذي تلا الآية الشريفة عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنشد الأبيات المعروفة، ثم إنّ العتبي رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نومه وقال له: «الْحق الأَعْرَابِيَّ وَبَشِّرْهُ أَنَّ الله قَدْ غَفَرَ له»[(٢)].

---

(١) أورد الخبر بتمامه القاضي عياض في (الشفا) (٢/٩٢).

(٢) ينظر الخبر في تفسير ابن كثير و(القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع =

ومن ذلك ما نقله العلماء عن سيدنا علي رضي الله عنه، أن أعرابياً جاء إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحثا التراب على رأسه، وقرأ الآية السابقة ثم قال: وقد جئت مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي.

قال سيدنا علي كرم الله وجهه: فهتف هاتف من القبر الشريف أن قد غفر الله لك[1].

وروى الدارمي بإسناده [2]، عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى، أنّه كان يعرف أوقات الصلاة من أذان يسمعه من قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لَمَّا التزم المسجد النبوي أيام الفتنة. ولا تُنْكر ذلك فإن الله قد يُسمع من شاء ما شاء.

وإذا أنت لم ترَ الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

ثم بَيّن سبحانه ما يجب أن يكون موقف المؤمن مع هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، بعد ما بين وجوب الانقياد له والطاعة فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآيات [أول سورة الحجرات].

أي: لا تتقدموا بأمر أو قول، أو فهم أو عمل، مخالف لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧] ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ هو القرآن و ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ هو السنة النبوية المتضمنة أحاديث وأفعال سيدنا رسول الله

= صلى الله عليه وآله وسلم) للحافظ السخاوي ص /٣٢٨/.

(١) كما في تفسير القرطبي.

(٢) (١/٤٤).

صلى الله عليه وآله وسلم، وهي الحكمة المحمدية التي قال فيها تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وعلى هذا فلا يَصح لأحد أن يَتَقدم بفهم أو برأي إلا بعد وزنه بهذا الميزان المحمدي.

ثم نبه سبحانه إلى وجوب الانقياد الكامل، والطاعة التامة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، دون توقف أو اعتراض، بل التسليم الكلي المطلق فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

أي: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وربك أعلم بك، وبما أعطاك من سداد الرأي وصواب العمل ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أي: حتى يجعلوك حكماً ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ ثم بعد التحكيم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضيقاً وكراهية ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ لهم به ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي: بل ويجدوا في حُكمك وأمرك الراحة والطمأنينة مع غاية التسليم.

وروى ابن أبي حاتم وغيره[1]، أن رجلين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أحدهما منافقاً، فحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للرجل الآخر، فلم يَرض الآخر بالحكم.

وذهبا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعرضا عليه الأمر، وأنهما تحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يرض هذا بحكمه.

---

(١) كما في (الدر المنثور) للحافظ السيوطي عند تفسير هذه الآية الكريمة.

فقال عمر رضي الله عنه: أنت لم ترض بحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال: لا.

قال: انتظر قليلاً، فدخل سيدنا عمر وأخرج دُرَّتَهُ وضرب رأس الرجل الذي لم يرض بحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حَتَّى قتله.

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: «ماَ كُنْتُ أَرَى عُمَرَ يَقْتُلُ نَفْساً مُؤْمِنَةً» أي: أن هذا الرجل كافرٌ منافقٌ، ولذلك قتله سيدنا عمر رضي الله عنه.

ونزل قول الله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾.

ولهذا قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه:

لو أنّ قوماً عبدوا الله تعالى، وصلوا وصاموا وزكوا وحجوا البيت، ثم قال أحدهم في أمر صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليته لَمْ يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو وجدوا في نفوسهم حرجاً مما حكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لو قال أحدهم ذلك لكان من المشركين، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ الآية[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

لما نزلت هذه الآية قال الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله والله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت.

فقال عليه الصلاة والسلام: «صَدَقْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ»[٢] أي: أنت من هؤلاء القليل.

---

(١) كما في تفسير العلامة الآلوسي.

(٢) كما في (الدر المنثور) (٢/٥٨٧).

وورد عن الحسن رضي الله عنه، لما نزلت هذه الآية، قال ناس من الأنصار: والله لو كتبه الله تعالى علينا لقبلنا، الحمد لله الذي عافانا، ثم الحمد لله الذي عافانا.

فقال عليه الصلاة والسلام: «الإِيْمَانُ أَثْبَتُ فِيْ قُلُوب رجال من الأنصار مِنَ الجِبالِ الرواسي» الحديث.

أي: أن الجبال الرواسي تزول والإيمان في قلوبهم لا يزول.

ومن جملة من قال هذا سيدنا عمر وعبد الله بن رواحة وغيرهما رضي الله عنهم[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ في هذا بيان فائدة الوعظ، وفائدة من يَتَّعظ بوعظ الله ووعظ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، أي: لكان خيراً لهم في دنياهم وآخرتهم، ولتدفقت أبواب الخير عليهم.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي: تثبيتاً للإيمان في قلوبهم، لأن الإيمان في القلب كالبنيان، فإذا لم تُشَيَّد أركانه فربما انهار، فالأعمال الصالحة والعمل بوعظ الله ووعظ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم يثبت الإيمان في القلب، ويقويه، ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦] أي: تثبيتاً من أنفسهم لإيمانهم في قلوبهم.

ومن لم يعمل بوعظ الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو يسعى لزوال الإيمان من قلبه والعياذ بالله تعالى.

---

(١) كما في (الدر المنثور) (٢/٥٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا الأجر اللَّـدنِّيُّ لا يعلم قدره إلا الله سبحانه، لأن الشيء اللدني لا يدخل تحت حساب الحاسبين.

قولـه تعـالى: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: أنهـم إذا عملـوا بمـا وعظهم الله تعالى، وبما وعظهم به رسول الله صلى الله عليـه وآلـه وسـلم، لهداهمُ الله تعالى إليه صراطاً خاصاً في الهداية، وفيه قـربهم وشـرفهم كمـا قال سـبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبـوت: ٦٩] أي: سبلنا الخاصة، وهي سُبُل معرفة الله تعالى، والقرب منـه قربـاً خاصـاً، لأن الهداية على مراتب.

وروى أبو نعيم وغـيره، عنـه عليـه أفضـل الصـلاة وأكمـل التسـليم: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ الله عِلْمَ مَالَمْ يَعْلَمْ».

وقــال سـبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].

وهذا بعد ما بَيَّن سبحانه وجوب طاعته وطاعة رسوله صـلى الله عليـه وآله وسلم، بَيَّنَ ثواب الطائعين وأجرهم العظيم، بـأن لهـم مرافقـة ومعيـة النبيين، وسيدهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يذكر سبحانه ألوان نعيم الجنة الأخرى لعَظَمَة هذا اللون من النعيم، وهـي مرافقـة ومعيـة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إمام النبيين، وخاتم المرسـلين، ولا

يُنال هذا إلا بفضلٍ من الله تعالى، والله عز وجل أعلم بمن هو أهل لهذا الفضل الكبير.

وإنّ المرافِقَ ينال من خير المرافَق من الأنوار والأسرار التي تتنزل على المرافَق صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك لما ذاق أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فضل صحبته ومرافقته في الدنيا، راحوا يحرصون عليها في كل العوالم، ويطلبونها على وجهٍ دائم.

كما جاء في الحديث(١) أن رجلاً قال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إِنَّكَ والله لأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِيْ، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَالِدِيْ، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِيْ، وَإِنِيْ أَكُونُ فِيْ البَيْتِ فأَذْكُركَ فَلاَ أَصْبِرُ حَتَى آَتِيْ فَأَنْظُرُ إِلَيكَ، وَإِنِي ذَكَرْتُ مَوْتِيْ وَمَوتَكَ يَارسول الله، وَأَنَّكَ يَومَ القِيَامَةِ تَكُونُ مَعَ النَّبِيِّيْنَ، وَإِنِي خَشِيْتُ أَنْ لا أَرَاكَ فِي الجَنَّةِ.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

وكذلك فإن ثوبان رضي الله عنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفس الأمر، وشكا كثير من الصحابة هذا الأمر، فنزلت الآية تبشرهم وتطمئنهم أنهم مع من أحبوه، وأنهم من جلسائه ورفقائه صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك كانوا يتحرون الدعاء في مواطن وأوقات الإجابة، أن يعطيهم الله مرافقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجنة.

---

(١) انظر (الدر المنثور) عند تفسير هذه الآية الكريمة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٦٩].

ومن ذلك[1] لما مَرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ابن مسعود رضي الله عنه وهو يصلي في المسجد قيام الليل، وقرأ فيها سورة النساء، فلما فرغ أخذ بالدعاء، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسمع ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

فقال عليه الصلاة والسلام: «يَا ابْنَ مَسْعُودٍ سَلْ تُعْطَهْ» فَرَاحَ يَدْعو بغاية رغبته وأمنيته فقال: اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ومرافقة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أعلى الجنة جنة الخلد.

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما فرغ ابن مسعود جاء عمر إلى ابن مسعود يبشره بقبول دعائه، فرأى أنّ أبا بكر قد سبقه إلى ابن مسعود، وبشره بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «سَلْ تُعْطَهْ» وقبول دعائه.

وكذلك ما ورد[2] عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه خادم ماء الوضوء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عندما طلب مرافقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

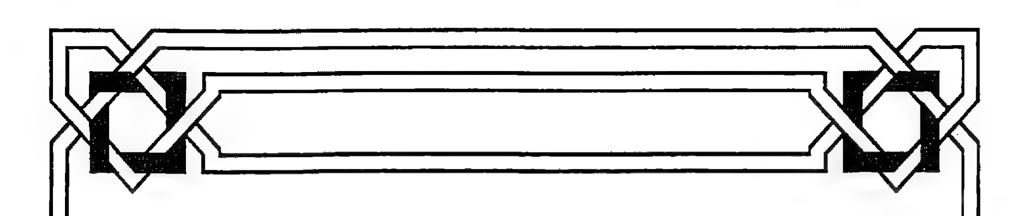
والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

---

(١) كما في (مسند) الإمام أحمد (١/ ٤٤٥).

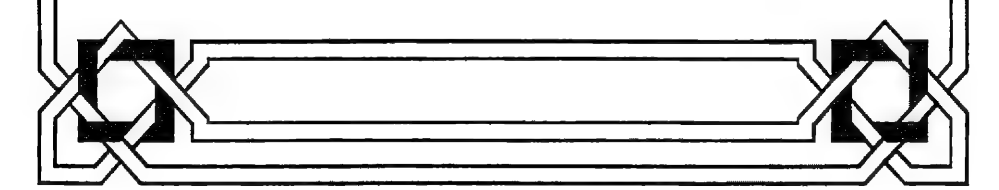
(٢) كما في (صحيح) مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه /٤٨٩/ (٢/ ٦٣٨).



المحاضرة الحادية عشرة

في

المواعظ القرآنية



قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وذلك بعد أن ذكر سبحانه جملة من الآيات التي فيها ذكر صفات أهل الجنة وعواقبهم، وفيها الوعظ بالإسراع إلى التوبة والأعمال الصالحة فقال سبحانه: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يأمر سبحانه بالمسارعة إلى تعاطي أسباب المغفرة، وهي المبادرة إلى التوبة النصوح، وكثرة الأعمال الصالحة، لأنَّ كل عمل صالح يُكَفِّر الله به عن المؤمن من الذنوب ما شاء، على حسب صلاح العمل والإخلاص فيه.

وفي هذه الآية يمتدح الله تعالى نفسه بسعة مغفرته للقاصدين، وأنّ مَنْ أسرع إلى مغفرة الله تعالى نالها لا محالة.

وفي الآية تنبيه للمؤمن أيضاً أن يسارع إلى التوبة؛ لينال المغفرة قَبل أن يأتيه الموت وتفوته المغفرة.

ولهذا كان من خطبته صلى الله عليه وآله وسلم يوماً[(١)]: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا، وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا» أي: يعتريكم الشواغل عن الطاعات، كالهرم والمرض ونحو هذا «وَصِلُوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ» أي: أحكموا الصلة بينكم وبين ربكم، ولا تكونوا منقطعين عن ربكم، ولا هاجرين أو مهجورين، بل كونوا واصلين

(١) كما في (سنن) ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب في فرض الجمعة /١٠٨١/ (٣٤٣/١) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

موصولين، وما هو طريق ذلك ؟ قال: «بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ، وكَثْرَةِ الصَّدَقَةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ، تُرْزَقُوا وتُنْصَرُوا وتُجْبَرُوا» الحديث.

أي: افعلوا ذلك، فإنْ أردتم النصر نصركم الله، وإن أردتم الرزق رزقكم الله، وإن أردتم المدح والثناء نالكم ذلك، وإن أردتم جبر قلوبكم جبر الله ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فهو سبحانه يغفر الذنب ويمحوه، ويكرم المؤمن التائب بدار ضيافته، وهي الجنة دار السلام، التي مِنْ سعتها وعظمتها أن عرضها السماوات والأرض، أي: سماوات وأرض الآخرة لأن الله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وما هذه السماوات والأرض في تلك الآخرة إلا كحلقة في فلاة، وإنّ من جملة ما يُحشر في أرض المحشر أرض الدنيا، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤].

فتأتي الأرض وَمَنْ عليها إلى أرض المحشر، وتشهد على مَنْ عليها، وإنّ أقل مُؤمن يدخل الجنة له قدر الدنيا بسماواتها وأرضها وعشر أمثالها، مما يدل على عظمة الجنة وسعتها.

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هيئت للمتقين، فقد خلقها الله وأعدها للمتقين، وهذا يدل على أنها مخلوقة موجودة والمتقون على مراتب وكلٌّ ينال نصيبه على حسب مقامه في التقوى.

وجاء في (السنن)[1] أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لَمَّا

---

(١) عند أبي داود في كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار، /٤٧٤٤/ (٥/١٠٨)، والترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات /٢٥٦٣/ (٧/٢٣٧)، والنسائي في كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله تعالى (٧/٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

خلق الله تعالى الجنة قال لجبريل: اذْهَبْ فانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَلمَا رَجَعَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يا رب لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَ دَخَلَهَا» أي: إلا سعى في دخولها، لما فيها من ألوان النعيم. قال: «فَحَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ» أي: التكاليف الشرعية المكروهة عند أهل النفوس الخبيثة «ثُمَّ قَالَ ياجِبريل: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فذَهَبَ فَنْظَرَ إِلَيْهَا، فلَما رَجَعَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خشِيْتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ» أي: لأنه قلَّ مَنْ يقتحم عَقبة المكاره، ويتحقق بالتكاليف الشرعية، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

قال: «فلما خلق الله النار قال يا جبريل: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فذهب فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثم جاء فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا» أي: أنَّ كل من يسمع بأوصاف النار ابتعد عنها «فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ» أي: الشهوات التي تَطمح إليها أهل النفوس الخبيثة «ثم قَالَ يا جبريل: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فذهب فنظر إليها فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَبْقَى أَحَدٌ إِلاَ دَخَلَهَا» الحديث.

والمتقون هم الذين نظروا في العواقب، فتوقوا سخط الله وعذابه، وتوقوا سوء العاقبة، وسوء الدار، فنالوا حسن العاقبة، وعقبى الدار. اللهم اجعلنا منهم.

فالمتقي هو: صاحب العقل الصحيح، لأنه نظر في عواقب الأمور، وتوقى سوء العواقب.

ثم بَيَّن سبحانه صفات المتقين، وأنهم على مراتب: فهناك السابقون بالخيرات وهم المقربون، وهناك أصحاب اليمين وهم الأبرار.

وقد ذكر سبحانه أوصاف المقربين أوّلاً فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] أي: يبذلون وينفقون مما أعطاهم الله من قوى

مالية وجسدية وعملية، وذلك في حالة الخير واليسر والسعة، وفي حالة الضر والشدة والقلة، فإذا كانوا في حالة سعة أنفقوا الكثير، وبذلوا مما عندهم، وإذا ضاق الحال عليهم فإنّهم لا ينقطعون عن الإنفاق، بل أنفقوا مما عندهم ولو قليلاً، ثم إنّهم ينفقون في حالة السراء التي تصيب الناس، وينفقون في حالة الشدة التي تعتري الناس أحياناً.

وقد ورد في الحديث[1]، عن أُمِّ بُجيد رضي الله عنها قالت: يارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن المسكين ليقوم على بابي، فَمَا أَجِدُ شَيْئاً أُعْطِيْهِ إياه. أي: الشيء النفيس.

فَقَالَ: «إِنْ لَمْ تَجِديْ شيئاً إِلاَ ظِلْفَاً مُحْرَقاً فادفعيه إليه في يده».

والظلف هو: ما يُستعمل للبقر والغنم، كالحافر بالنسبة للفرس، وهو شيء يُشبه العظم، يُوضع عند حوافر البقر والغنم. وفي هذا موعظة للمؤمن أن لا يرد سائلاً محتاجاً ولو بشيءٍ قليل.

وجاء في الحديث أيضاً[2]: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ» أي: نصف تمرة، أي: أكثروا من الصدقات، فإن لم تجدوا الكثير فتصدقوا ولو بنصف تمرة. قال: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» أي: لا تنهر السائل، ولاطِفْهُ بكلام حسن.

وفي الحديث[3] يقول عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مَائةَ أَلْفِ دِرْهَمْ».

---

(١) عند الترمذي في كتاب الزكاة، باب ما جاء في حق السائل /٦٦٥/ (٣/٢٦) وهو عند ابن حبان /٣٣٦٢/ واسم السيدة أم بُجيد: حواء رضي الله عنها.

(٢) الذي رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد /١٤١٣/ (٣/٢٨١)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة /١٠١٦/ (٢/١٠٥٦) عن سيدنا عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٣) الذي رواه النسائي في كتاب الزكاة، باب جُهد المقل (٥/٥٩) وابن حبان /٣٣٣٦/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟

قال: «رَجُلٌ له مال كثير، أَخَذَ مِنْ عُرْضه مائة ألف درهم تصدَّق بها» أي: أنفق شيئاً قليلاً من جانب ماله الكثير «ورَجُلٌ ليس له إلا دِرْهَمَانِ، فَأَخَذَ أَحَدَهُمَا فتَصَدَّقَ بِهِ» لأنّه تصدق بنصف ماله، فسبق درهمه المائة ألف درهم التي أنفقها ذلك الرجل الكثير المال.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ وهذا كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] فلا ينتقمون لأنفسهم إنْ أحد آذاهم أو أغضبهم، إلا إذا كان الأمر فيه انتهاك لحرمات الله، وإنّ كظم الغيظ يكون عند المقدرة على الانتقام، أما إذا لم تكن هناك مقدرة على ذلك فلا يُسمى كظم غيظ، بل عجز عن الانتقام.

يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ كَظَمَ غَيْظَاً وَهُوَ يقدر على إنفاذه» أي: على الانتقام والبطش «مَلأَ الله قَلْبَهُ أمناً وإيماناً»(١) لأن الجزاء من جنس العمل، فلما امتلأ قلبه غيظاً، وانتفخت أَوْدَجُهُ، إلا أنه كظم ذلك وحبسه؛ كان جزاؤه أن يملأ الله قلبه الأمن والإيمان يوم القيامة.

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ دفعَ غَضَبَهُ دفع الله عَنْهُ عَذَابَهُ»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ وهو أن يعفو المؤمن عن غريمه

---

(١) عزاه (الفتح الكبير) إلى ابن أبي الدنيا في ذم الغضب، عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.
وانظر (سنن) أبي داود في كتاب الأدب، باب من كظم غيظاً (٥/ ١٣٧).

(٢) رواه الطبراني في (الأوسط) (مجمع الزوائد) (٨/ ٧٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

ما دام الحق يتعلق به، وليس له علاقة بانتهاك أمر شرعي، وفي الحديث[١] يقول عليه الصلاة والسلام: «ثم نادى مُنادٍ ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة، ثم نادىٰ الثانية: ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة.

قال: ومن ذا الذي أجره على الله؟

قال: العَافُونَ عِنِ النَّاسِ، ثم نادى الثالثة: ليقم مَنْ أجره على الله فليدخل الجنة. فقام كذا وكذا ألف فدخلوها بِغَيرِ حِسَابٍ» لأنّ رب العزة هو أَحقُّ أن يعفو عمن عفا عن عباده.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أَنّ هناك مقاماً أعلى وهو الإحسان إلى مَنْ أساء إليك. فَأوّلاً كَظَم غيظه، ثم عفا عنه، ثم أحسن إليه وأكرمه، وهذا من مقامات الإحسان التي يقال فيها: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ»[٢] فهناك إحسان العبادة لله، وهناك إحسان المعاملة مع خلق الله تعالى، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أدلك على أكرم الأخلاق في الدنيا والآخرة؟، أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيْ مَنْ حَرَمَكَ، وأَن تَعفو عَمَّنْ ظَلَمَكَ»[٣].

وَرُوي أن جارية مملوكة للإمام زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، أنها كانت تَصُبَّ له الماء يوماً وهو يتوضأ، فوقع إبريق

---

(١) طرف من حديث رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (١٠/٤١١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن... /٥٠/ (١/١١٤)، ومسلم أول كتاب الإيمان /٨/ (١/١١٦) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٨/١٨٨) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

الماء منها، وأصاب جبهته حتى سال الدم منه، فنظر إليها غاضباً، فقالت له: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ فقال: كظمت غيظي، فقالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، فقال: عفوت عنك، قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى[١].

ثم ذكر سبحانه زُمرة الأبرار الذين هم دون المقربين في الرتبة والمقام، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ أي: ما فحش من المحرمات، وهي الكبائر ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب صغيرة ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: لم يستمروا على فعل الذنب بل فوراً تذكروا عظمة الله وكبرياء الله، أو تذكروا وقوفهم بين يدي الله، أو تذكروا عذاب الله جل وعلا وذلك على حسب مقامهم في التقوى ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أن نتيجة تذكرهم لربهم وخوفهم منه، حملهم على الاستغفار والتوبة، وذلك لأنّ الإنسان متى وقع في ذنب توجَّه عليه اسم المنتقم، لأنّ للأسماء الإلٓهية آثاراً في الكائنات الخلقية، فاسم الخالق ظاهر في المخلوقات، واسم المصور ظاهر في المصورات، واسم الرزاق في المرزوقين وهكذا... سائر الأسماء الإلٓهية.

وإن الذي يُنجي العبد من الانتقام ومن عذاب الله وسخطه هو التوبة إلى الله تعالى، فلما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: تابوا إلى الله تعالى فغفر لهم، بأن ستر عليهم الذنوب، ووقاهم العقاب، فأصبح اسم المنتقم لا ينفذ إليهم، وكأنهم لبسوا مغفراً واقياً لهم من السهام.

---

(١) كما في (الدر المنثور) وتفسير الآلوسي.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: ومن يقدر على محو آثار الذنوب الظلمانية من القلب، وَمِنْ لوحة النفس ومِن الأرض والمخلوقات التي شهدت ذلك الذنب، ومِنْ صحف الملائكة، مَنْ يقدر على محو ذلك وإزالته إلا الله سبحانه.

واعلم أن للذنوب آثاراً ظلمانية في القلوب، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره [(١)]: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ هُو نزع وَاسْتَغْفَرَ وتاب صُقِلَ قَلْبُهُ، وإِنْ عَادَ زِيْدَ فِيها» أي: نكتة بعد نكتة «حَتى تعلُو قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذيْ ذَكَرَهُ الله تعَالَى بِقَولِه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾» [المطففين: ١٤] أي: أظلم وخَيَّم على قلوبهم ما كانوا يعملون من المعاصي والفجور، وهم الكفار والفساق المصرون على المعاصي، وكان عاقبة ذلك أن حُجبوا عن ربهم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لم يستمروا على الذنب، بل تابوا وأنابوا، وهم يعلمون أنهم إذا تابوا تاب الله عليهم، وَيعلمون أنّ الذنوب قبائح ونقائص، فكيف يرضونها لأنفسهم، وهم يعلمون أنهم سيعرضون على ربهم يوم العرض الأكبر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] فلا يرضون أن يعرضوا وعليهم آثار الذنوب وظلماتها.

---

(١) الترمذي في كتاب التفسير، ومن سورة المطففين /٣٣٣١/ (٦٩/٩)، وابن ماجه /٤٢٤٤/، وابن حبان /٩٢٦/، والحاكم (٥١٧/٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

واعلم أن ذلك اليوم يومٌ تظهر فيه الحقائق، وتُبلى فيه السرائر ولا يستطيع الإنسان أن يتكلم إلا بالحقيقة التي تَحقَّقَ بها، فمن كان مذنباً وادعى أَن لا ذنب عليه فإنّ حاله يكذبه، لأن ظلمات الذنوب وآثارها القبيحة ظاهرة عليه قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

كَمَنْ يدّعي النظافة وهو مُلَطّخ بالأقذار، وعلى هذا فهم لا يرضون لأنفسهم الصفات القبيحة، لأنها صفات البهائم والحيوانات، لأنّ كل ذنب هو في حقيقته تَشَبُّه بفعل من أفعال الحيوانات الناقصة.

ولما نزلت هذه الآية صاح إبليس بالويل والثبور على نفسه، فسأله جماعته عن ذلك؟ فقال: نزلت آية من كتاب الله ما يَضر المؤمن بعدها ذنب إن هو استغفر وتاب.

فقالت له جماعته: إذاً نرميهم بالأهواء والبدع[1]. أي: فهم يفعلونها كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] أي: بالأهواء والبدع الضالة، وهم يزعمون أنهم على حق، ونسأل الله العافية.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بيانٌ من الله تعالى لسعة مغفرته، وأن من استغفر وتاب تاب الله عليه، قال عليه الصلاة وأكمل التسليم: «التَّائِبُ مِنْ الذَّنْب كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ، وَالمُسْتَغْفِرُ مِنْ الذنب وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ كالمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ»[2] أي: أنَّ من استغفر لذنبه وهو مُصِرٌّ عليه كالمستهزئ بربه والعياذ بالله.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى الحكيم الترمذي.

(٢) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» رواه ابن ماجه /٤٢٥٠/، والطبراني (مجمع الزوائد) (١٠/ ٢٠٠) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه بزيادة: «والمستغفر...» البيهقي في (شعب الإيمان) /٧١٧٨/ عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

واعلم أن الإصرار على الذنوب بريد الكفر، إذ أن إصراره وتماديه في فعل الذنوب رُبّما يحمله على استحلال ما حرم الله، فيخرجُ عن الملة ويمرق عن الدين.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم[1]: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ اللَّهُ لَكُمْ، وَيْلٌ لأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وأقماع القول: هم الذين يسمعون المواعظ ولا يعملون بها، فجعلوا أنفسهم كالأقماع التي يُفرغ بواسطتها العسل والسمن والزيت، ولكن القمع لا يستفيد شيئاً، ولا يستقر شيء من العسل أو السمن فيه. وفي هذا تنبيه للمؤمن أن لا يكون قِمَعاً، بل أن يجعل نفسه آنية تئن في قلبه المعاني والمواعظ الإلٓهية، ويَستفيد منها، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ لله آنِيَةً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، وآنية ربكم قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ»[2].

فتنزل فيها أنوار رب العالمين، كما ينزل الماء في الإناء، ويستقر فيه.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: فليثق المؤمن وليطمئن، أنه إذا استغفر وتاب تاب الله عليه، وشملته مغفرة الله سبحانه، لأنّ وعد الله لا يتخلف أبداً.

ولقد كان العبد في الأمم السابقة إذا أذنب ذنباً صغيراً فلا تُضْمَنُ له التوبة والمغفرة، حتى ينزل الوحي على نبي ذاك الزمن، أَنْ قُل لفلان

---

(١) الحديث في (مسند) الإمام أحمد (٢/١٦٥و ٢١٩) عن سيدنا عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما.

(٢) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الطبراني عن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه.

المذنب أن يتصدق بنصف ماله مثلاً، وإذا كان الذنب كبيراً فيأمره بقطع بعض أطرافه، حتى يَضمن المغفرة. وهكذا على حسب الذنب.

أما رحمة الله الواسعة بهذه الأمة المحمدية، وإكراماً لرسولها صلى الله عليه وآله وسلم، شرع لها أنّه مهما فعل الإنسان من كبائر ثم تاب توبة نصوحاً تاب الله عليه، وَغَفر له ذنوبه وكبائره كلها.

قوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ يمتدح الله سبحانه نفسه بسعة فضله وإكرامه للعالمين، وما أعطاهم من الأجر العظيم.

ثم قال سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي: عادات إلهية في الأمم السابقة، وكيف أن الله أهلك الكافرين ونَجّىٰ المؤمنين ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سيراً جسمانياً، أو سيراً عقلياً بأفكاركم ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وأن الله أهلكهم ودمرهم.

أي: أنكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لستم أول الأمم في عالم الدنيا، فقد خلت ومضت أمم كثيرة، وقد ظهرت في تلك الأمم سنن الله وعاداته، فانظروا فيها في عواقب تلك الأمم، فلقد كانت عاقبة المؤمنين النجاة، وعاقبة الكافرين الهلاك، وذلك مثل قوم نوح وصالح...

ثم قال سبحانه: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فلقد بين سبحانه للناس سعة مغفرته وخطر الإصرار على الذنوب، وعواقب المؤمنين وعواقب الكافرين.

﴿وَهُدًى﴾ هداهم الله لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَوۡعِظَةٞ﴾ لكن الذي ينتفع بالمواعظ هم المتقون، فقال: ﴿وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ لأنهم ينظرون في العواقب، فيتوقون سوء العواقب، وذلك بتقوى الله كما ورد في الحديث[1]: «وإنَّ تَقَوى الله تَقِي غَضَبَهُ، وإنَّ تَقْوَى الله تَقِيْ عَذَابَهُ».

* * * * *

---

(١) تقدم ص/١٢١/.

ومن المواعظ الإلٓهية في القرآن الكريم

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

لَمّا نزلت هذه الآية تلقاها الصحابة بالقبول والاستجابة، وأثرت في قلوبهم كلٌّ على حسبه، فازداد المؤمنون إيماناً وموعظة وخشية من رب العالمين، وهناك قسم كانوا كفاراً فأثرت في قلوبهم وكانت سبب إسلامهم.

ومن هؤلاء ما ورد في (المسند) وغيره[1]، عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَمُرُّ بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وَأَنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ كَشَّرت في وَجهِهِ ـ أي: أنظر إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ نَظرَةً لاَ احْتَرَامَ فِيها ولاَ تَوْقِير ـ قال فمررت به يوماً وهو جالس في فناء داره، فَدَعَانِي إِلَى الجُلُوسِ، فَرَأَيتُه صلى الله عليه وآله وسلم قد تغير وجهه واحمرَّ وجهه، ثُمَّ جعل ينظر فَوْقَهُ كَأَنَّهُ يَسْتَعلمُ مِنْ إِنْسَانٍ يُكَلِّمُهُ، وشَخَّص ببَصَرِهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَلَمَّا مَضى هَذَا قُلْتُ يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم رَأَيْتُ مِنْكَ شَيْئاً مَا كُنْتُ أَرَاهُ، قال: «ومَاذَا» ؟

قال: رأيتك ترفع بصرك وكأنك تستعلم من إنسان ـ أي: تسأله ويجيب ـ .

---

(١) (المسند) (٣١٨/١) وعزاه في (الدر المنثور) إلى البخاري في الأدب، وابن أبي حاتم، والطبراني (مجمع الزوائد) (٤٨/٧) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

فقال: «هَلْ رَأَيْتَ ذَلِكَ» ؟ قَالَ: نعم.

قال: «أَتَانِي رَسُولُ رَبِّي» أي: جبريل عليه السلام.

قَالَ: رسول ربِّكَ ؟قال: «نعم».

قال: فَمَاذا قَالَ لَكَ ؟ قال: «جَاءَنِي فَقَالَ إِنَّ اللهَ تَعَالى يَقُولُ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ الآية.

قال عثمان بن مظعون فأخذتِ الآية من قلبي، فكنت أستحي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذاك حين استقر الإيمان في قلبي، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أي: أنه بعد ما سمع هذه الآية وأثرت في قلبه، وأنه ندم على مقابلاته السابقة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل يستحي منه.

ومن هذا ما ورد أيضاً[(١)] عن أكثم بن صيفي، لما بلغته دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان رئيساً في عشيرته، وقد كبر سنه، فأراد أن يذهب بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له قومه: نحن نكفيك الجد.

فانطلق منهم اثنان، وقيل هما أولاده، فقال لهما: اذهبا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقولا له من أنت ؟ وما أنت ؟ وبم جئت ؟

فلما ذهبا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبراه أنهما من طرفِ أكثم بن صيفي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَمَّا مَن أَنَا ؟ أَنَا مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ»

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن منده، وابن السكن، وأبي نعيم في (معرفة الصحابة) (١/٣٠٩).

أي: لستُ بملك «وَأَمَا قَوْلُكُمْ بِمَ جِئْتُ؟ جِئْتُكُم بِقَولِ الله سبْحَانَهُ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾» الآية.

قَالا: ردِّد علينا هذا القول. فَأَعَادَ الآية صلى الله عليه وآله وسلم، حَتَى حَفِظُوهَا وكَتَبُوهَا عِنْدَهُم، وَرَجَعَا وَأَخْبَرَاهُ الخَبَرَ.

فقالا له: هكَذَا سَأَلْنَاهُ، وَهكَذَا جَوَابَهُ لَنَا.

فقالَ: يَا بَنِيَّ - يا أولادي - إنّ هذا نَبيٌّ حَقَاً، فَتَعَالَوا فَادْخُلُوا فِيْ الإِسَلامِ، وكُونُوا فِيْ الأَمْرِ رُؤوسَاً، ولاَ تَكُونُوا أَذْنَاباً - أي: سارعوا وادخلوا في الإسلام قبل غيركم - فَإِنَّ هَذَا النَّبِيَّ يَأْمُرُ بِمكَارِمِ الأَخْلاَقِ، وَيَنْهَى عَنْ مَلائِمِهَا.

وأسلم أكثم وأسلم بنوه وقومه، ويقال إنه هاجر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأدركه الموت في الطريق، فرفع يديه وصفق بهما، وقال: اللهم هذه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بايعته، وفيه وفي غيره نزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

قال ابن مسعود رضي الله عنه [١]: أجمع آية في الخير - أي: في الأمر بالخير - وأجمع آية في التحذير من الشر هذه الآية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾.

وفي هذه الآية موعظة من رب العالمين لعباده حتى يتعظوا ويتذكروا

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى الطبراني (مجمع الزائد) (٤٩/٧) والحاكم في (المستدرك) (٣٥٦/٢) وغيرهما.

فقال: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: من أجل أن تتذكروا وتتحققوا بما جاء في الآية من أوامر، وتنتهوا عما فيها من مناهي.

أما الأوامر فهي: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ أي: في كل شيء، أي: بالعدل اعتقاداً، بالعدل عملاً، وبالعدل قولاً ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ أي: في كل شيء كما قال عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم: «إِنَّ الله كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ»[1] فهناك إحسان العبادة لله سبحانه وتعالى، وهناك إحسان المعاملة مع خلق الله، كما سيأتي تفصيله.

قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إعطاء ذوي القربى حقوقهم، وهي صلة الرحم بما تتضمن من حالٍ وقالٍ، ومالٍ وعيادةٍ وزيارةٍ... إلخ وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦] ولا يعني هذا في المال فقط، بل بمواصلته وزيارته وعيادته وهكذا.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو ما فحش من مشتهيات النفس الخبيثة، وهذا لأن الإنسان فيه الدواعي والقوى الشهوانية البهيمية، وفيه القوى السبُعية الغضبية، وفيه القوى الوهمية الشيطانية، وفيه الاستعداد الملكوتي العلوي الرباني، وإذا تغلبت الصفات الملكوتية العلوية صار الإنسان مؤمناً كاملاً ربانياً، كما قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ الآية [آل عمران: ٧٩].

وهذا الذي هو أهل لأن يحل: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٥].

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٤/١٢٣)، ومسلم في (صحيحه) في كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة /١٩٥٥/ (٤/٢٠٢٦) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه.

وأما **الفحشاء** فهي: إفراط النفس في الشهوات البهيمية على وجه يُخرج عن حد الشريعة والاعتدال كالزنا مثلاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ وهو ما تدفعه النفس بدافع السَّبُعية الغضبية، فيتسلط على الناس بكلام مؤذٍ لهم، كما هو شأن البهائم المؤذية، فَيَسُبّ ويشتم ويلعن، ويأتي بمنكرات الأفعال أيضاً.

ومن ذلك ما يحصل في المجالس من منكرات كالقهقهة المستغرقة، ورفع الأصوات بالضحك، وأخبر سبحانه عن قوم لوط: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وكان من جملة منكراتهم أنهم يتضاحكون ويسخرون في مجالسهم، ويخرجون من أدبارهم ما هو مستقبح فعله.

كما نهى سبحانه عن منكرات الأحوال، وهو أن يقابل الإنسان أخاه بوجه منكر عابس، ومن واجب الإيمان أن يقابله بطلاقة وبشاشة، أما التعالي والتغالي فهو شأن الحيوانات، كما يمر الذئب على الذئب فهو ذئب عليه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ وهو ما تدفع إليه القوة الشيطانية الوهمية، وهو أن يقع في نفسه كِبْر وعجب، فيبغي على غيره، ويسطو على غيره متجبراً متكبراً.

وقد يكون بغيه على غيره في العِرض، أو المال أو الدم، وقد نهى الله عن ذلك كله.

أما قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي: بالعدل في كل شيء، ومن هذا العدل في الاعتقاد، وأول العدل أن تقول: لا إله إلا الله موحداً لله،

مؤمناً به، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما[1] في قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ قال: شهادة أن لا إلّه إلا الله، أي: بالإيمان بالله، وأن الله حق، وأنه واحد أحد، فمن أنكر وجود الله أو أشرك معه فقد ظلم ولذا قال سبحانه: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣] أما التوحيد والإيمان فهو العدل المستقيم.

وهناك العدل في الأعمال، وهي عبادة الله سبحانه، لأنّ العدل في الأركان والحواس والمدارك يقتضي منك أن تصرفها في إرضاء من خَوَّلك إياها، وليس من العدل أن تستعين بجوارحك على معاصيه سبحانه، وَمَنْ فَعَلَ ذلك فهو ظالم لنفسه، وظالم لجوارحه وأركانه.

ولهذا قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي: بالفرائض الدينية، وهي الأعمال التي أمر الله تعالى بها.

فمن أسدى إليك معروفاً، أو صنع معك جميلاً، فليس من العدل أن تُقابل ذلك بالإساءة والأذى؛ وإلا كنت ظالماً لنفسك.

فإن رب العالمين قد أعطى الإنسان وخَوَّله من النعم ما لا يُحصى، فليس من العدل أن يصرفها في غير ما شرع الله تعالى، وإلا لظلم أركانه وجوارحه، وعرَّضها لسخط الله وعذابه، ولهذا يقال للكافر أو الفاسق: ﴿ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢].

ومن جملة ما يتضمنه العدل: العدل في الحكم والتحاكم، والكلام، والمدح والذم، فإذا مدحت مَنْ يستحق المدح فامدحه بما يليق، وإذا ذممت فلا تُفرط في الذم وهكذا...

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم.

واعلم أن الله تعالى قد بَيَّن أن كل ما صدر عنه إنما هو بالحكمة والعدل، ولهذا قال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

فهو سبحانه واحد أحد متصرف بالعدل والقسط، وليس في تصرفاته ظلم أو هضم حق.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالى لا يَنَامُ وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ»، أي: يخفض الخفض القسط، ويرفع الرفع القسط، فإنْ خَفَضَ خفض بالقسط، وإنْ رفع رفع بالقسط «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ» أي: فليستح العبد من ربه، لأن أعماله تُرفع إلى الله ليلاً ونهاراً «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» الحديث[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ومن جملة ذلك صلة الرحم، وجاء في الحديث[(٢)] عنه عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ يوم القيامة مِنْ: الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ».

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٤٠١/٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينام» /١٧٩/ (٣٤٦/١) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) الذي رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣٦/٥و٣٨) وأبو داود في كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي /٤٩٠٢/ (٢٠٨/٥)، والترمذي في كتاب صفة القيامة /٢٥١٣/ (١٩٩/٧) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه.

وقد نصَّ العلماء على أنَّ صلة الرحم واجبة، حتى ولو كان من هو من أرحامك مقاطعاً لك، فيجب أن تواصله، وليست الصلة بالمكافأة، كما جاء في الحديث: «لَيْسَ الْواصِلُ بِالمُكافِئِ، وَلكِنْ هُوَ الَّذِيْ يَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ» كما في البخاري[1].

أي: أن من واصلك من أرحامك فواصَلته فذلك مكافأة ـ أي: مقابلة لمواصلته ـ ولكن المواصلة أن تصل من هجرك وقطعك.

واعلم أن صلة الرحم تزيد في العمر، وتزيد في الرزق، وتزيد في الإيمان، وتقرب من الرحمن، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وأَن يُنْسَأَ لَـهُ فِـي أَثَـرِهِ» أي: يؤخر له في أجله «فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[2].

وقد **يقال**: كيف يؤخر له أجله، ويطيل عمره والعمر محتوم ؟

فقل له: وكيف يُوَسَّع له في رزقه والرزق محتوم، فهذه من الأسباب، وقد ربط الله سبحانه الأسباب بالمسبَّبَات، وإلا فكل شيء بقضاء الله وقدره، وقد ربط سبحانه الأمور بالأسباب، فمن فعل السبب ـ والفعل بقضاء الله ـ أعطاه الله المسبَّبَ، وهو بقضائه أيضاً.

فقدَّر الشفاء، وربطه بتعاطي الدواء، وكل منهما بقضائه وقدره،

---

(١) في كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ /٥٩٩١/ (١٠/٤٢٣) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وهو عند أبي داود /١٦٩٧/ والترمذي /١٩٠٨/.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم /٥٩٨٥/ (١٠/٤١٥)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم /٢٥٥٧/ (٥/٢٥٠٩) عن سيدنا أبي هريرة وسيدنا أنس رضي الله عنهما.

وقدَّر لك الحياة بسبب الأكل والغذاء، وإلا لقُلْتَ: إنّ العمر محتوم، فما فائدة الأكل والشرب، طالما أن الإنسان مقدر له أن يعيش كذا وكذا.

ومن سلك هذا فقد سلك ضرباً من الجنون، فهو سبحانه قدر لك أن تحيا سنين، وَقَدَّر لك أن تأكل وتشرب، وكلها أسباب في بقائك وحياتك بقضائه وقدَره سبحانه.

أما الإحسان: فهناك الإحسان في العبادة، وهناك الإحسان مع خلق الله.

أما الإحسان في عبادته سبحانه وتعالى: فهو أن يعبده الإنسان عبادة المحسنين الذين تحققوا بمقام الإحسان.

وهذا ما جاء في الحديث[(١)]: «أنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ» أي: تعبده مشاهداً له بقلبك كأنك تراه بعينك، فإن لم تبلغ هذه الرتبة فكن من أهل المراقبة، أي: راقب أن الله رقيب عليك، وناظر إليك، وَمَنْ لم يكن مشاهداً أو مراقباً لله في عبادته فعبادته عبادة الغافلين، وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حين أوصى معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال له: «وَالله إنِّي لأُحِبُكَ، لا تَدَعَنَّ في دُبرِ كُلِّ صَلاة أنْ تَقُولَ: اللهمَّ أعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسنِ عِبَادَتِكَ»[(٢)].

أي: أن تكون عبادتي لك عبادة المحسنين، أي: ما بين مشاهدة أو مراقبة.

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة بالتحقق بهذا، فعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: أوصاني خليلي أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم أنْ أَعْبَدَ الله كَأَنّي أَراهُ، فَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَراهُ فإِنَّهُ يَرانِي[(٣)].

---

(١) طرف من حديث تقدم تخريجه ص /١٩٦/.

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) /٥/٢٤٥/، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب في الاستغفار /١٥٢٢/ (٢/١٨١) وغيرهم.

(٣) عزاه الحافظ ابن رجب الحنبلي في (جامع العلوم والحكم) إلى إبراهيم الهجري.

ولما قال له معاذ بن جبل رضي الله عنه: يا رسول الله أوصني.

قال له: «اعْبد الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، واعْدُدْ نَفْسَكَ فِيْ المَوْتَى، وَاذْكُرِ الله عِنْدَ كُلِّ حجَرٍ وعندكل شجر، وإذا عَمِلتَ سَيِّئَةً فَافْعَل بِجَنْبِهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا. السِّرُّ بالسِّرِ، والعَلاَنِيَةُ بالعلاَنِيَةِ»[1].

وقوله: «اعبد الله» أي: في سائر أمورك مع الله ومع خلق الله، «كَأَنَّكَ تَرَاهُ» وليكن عملك خالصاً لله، وفي حالٍ كأنك تراه، وإنَّ مَنْ شاهد الله بقلبه أثناء عمله فلا يلتفت إلى غيره سبحانه.

وعندما حضرت الوفاة سيدنا أبا الدرداء رضي الله عنه قال: أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ، واعْدُد نَفْسَكَ فِيْ المَوْتَى» انظر الطبراني[2].

كما أوصى صلى الله عليه وآله وسلم سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قال ابن عمر رضي الله عنهما: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنكبي فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ، فَإِنَّكَ يَا عَبْدَ الله ما تَدْرِي أين اسْمُكَ غَدًا»[3].

أي: أين يكون اسمك غداً في الآخرة، في كتاب الفجار في سجين، أم في كتاب الأبرار في عليين.

---

(١) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٤/٢١٨).

(٢) (مجمع الزوائد) (٢/٤٠)

(٣) هذه رواية الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في قصر الأمل /٢٣٣٤/ (٧/٨٦) والجملة الأولى: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» في البخاري في كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كن...» /٤٦١٦/ (١١/٢٣٣) وينظر (المسند) (٢/٤١و١٣٢).

وقد تحقق سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بوصية سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت عباداته عبادة المحسنين، كما قال لأبيه: كنا نطوف حول الكعبة، كنا نتراءى الله تعالى.

واعلم أنه لا يصل المؤمن إلى مقام الإحسان إلا إذا أزال الحجب عن قلبه، حينئذٍ يشاهد أنوار ربه، وتكون عبادته عبادة المشاهدين لله تعالى ببصيرة قلوبهم، وحجاب القلب هو غفلته عن الله، فإذا سيطرت الغفلة على القلب حجبته عن نور رب العالمين.

ولما كان القلب من عالم الغيب فإنه إذا انجلى وصفا شاهد الأشياء الغيبية التي غابت عن الحس.

ومن هذا ما ورد عن حارثة الأنصاري حين قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عَزَفَتْ نَفْسِيْ عَنْ الدُّنْيَا ـ أعرضت عنها ـ فَأَسْهَرْتُ لَيْلِيْ، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وكَأَنِّيْ أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّيْ بَارِزاً، وكَأَنِّيْ أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَزَاوَرَوْنَ فِيْهَا، وكَأَنِي أَنْظُرُ إِلى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَونَ ـ يصيحون من شدة الجوع ـ فِيْهَا.

فَقال عليه الصلاة والسلام: «عَبْدٌ نَوَّرَ الله قَلْبَهُ، عَزَفتَ فَالزمْ»[(١)] أي: عن الدنيا، فالزم هذا الأمر.

وإن الذي يوصل العبد إلى مقام الإحسان هو: أن يقلع عن الذنوب، ويتوب منها توبة نصوحاً، ثم يحفظ نفسه من الوقوع فيها بأنواعها، ثم الإكثار من ذكر الله تعالى، ومراقبته سبحانه، ومن مراتب المراقبة: أن يراقب معية الله له على الدوام.

---

(١) ذكره في (مجمع الزوائد) (١/٥٧) وعزاه للطبراني في الكبير، والبزار.

وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «ثَلاَثَةٌ فِيْ ظِلِّ الله تَعَالَى يَومَ لاَ ظِلَّ إِلاَ ظِلُّهُ: رَجُلٌ أَيْنَمَا تَوَجَّهَ عَلِمَ أَنَّ الله تعالى معه، وَرَجُلٌ دَعَتهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ فَتَرَكَهَا مِنْ خَشْيَةِ الله، وَرَجُلٌ أَحَبَّ لِجَلاَلِ الله»[1] أي: أحب الصالحين والمؤمنين في الله ولله.

ومتى انجلى القلب صار يشاهد الأمور بنور الله سبحانه، كما جاء في الحديث[2]: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله» الذي هو في قلبه.

ومن هذا ما روي أن رجلاً دخل على عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان قد وقع نظره على أجنبية، فقال عثمان رضي الله عنه: يدخل أحدكم وفي عينيه أثر الزنا.

فقال الرجل: أَوَحْيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟

قال: لا، ولكن فراسة مؤمن صادقة[3].

وقال الإمام الجنيد: أمرني خالي سَرِيٌّ السقطي: أن أتكلم على الناس ـ أي: لَمّا بلغ مبلغ الرجال ـ قال: فاستحييت، فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فقال: يا جنيد تكلم على الناس.

فذهبت إلى الجامع قَبل الفجر، ومررت في طريقي على بيت خالي سَرِيٍّ، فقال لي من وراء الباب: ما صدقتنا حتى أمرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٢٧٩/١٠) عن سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) الذي رواه الترمذي في كتاب التفسير، ومن سورة الحجر /٣١٢٥/ (٢٨٣/٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) الخبر في (الرياض النضرة) للمحب الطبري.

ومضيت إلى الجامع، وجلست أُحَدّث الناس وأَعِظُهم، فدخل رجل مُتَنَكِّر، فقال لي: ما معنى: قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»؟

فقلت: أسلم فقد آن وقت إسلامك، فأسلم[1]. وكان كافراً متنكراً بلباس المسلمين، وأعطاه الجواب عن سؤاله عملياً وقولياً.

وَمَنْ أبصر قلبه بنور الله، فإن نور الله لا يحجبه حجاب، وقال عليه الصلاة والسلام لزيد بن أرقم رضي الله عنه: «كُنْ كَأَنَّكَ تَرَى الله» أي: كن في حالاتك كأنك ترى الله تعالى، وخاصة في عباداتك لله تعالى «فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

أما الإحسان مع خلق الله: فهو على مراتب، فهناك إحسان واجب مُحَتَّمٌ على كل مؤمن، وهناك إحسان هو رتبة كمال في حق مَنْ تحقق به، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ الآية [النساء: ٣٦].

فلقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى هؤلاء. قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: أي أحسنوا بوالديكم إحساناً في تمام البر والطاعة.

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم الأرحام، بمواصلتهم وعيادتهم ومساعدتهم كما تقدم.

---

(١) كما في (وفيات الأعيان).

(٢) كما في (الفردوس) /٤٨٤٣/ و(الحلية) (٨/٢٠٢).

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ أن تحسنوا إلى اليتامى، وتتفقدوا أحوالهم، وتُدخلوا السرور عليهم، ومن الإحسان إلى اليتيم أن تمسح رأسه ملاطفاً له.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ وهم: الفقراء.

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهو الجار القريب رَحِماً منك.

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ وهو الجار الذي لا قرابة بينك وبينه.

وذلك بأن تقدم له طعاماً إذا كان فقيراً، وأن تساعده في شدته وهكذا أن لا تعمل في بيتك عملاً يؤذيه، وإنّ أول خصمين يقفان بين يدي رب العالمين جاران اختلفا في أمر الدنيا.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي: أحسن إلى صاحبك بالجنب، وهو الذي صاحبك بمجالسته إلى جنبك، وأول ما يشمل هذا زوجتك، كما أنك أيضاً صاحبها بالجنب.

ومن جملة الصاحب بالجنب الذي صحبته لأنه جانبك وهو من جالسك في المجلس، أو رافقك في السفر، فلا تضايقه في جلوسك أو بدخانك أو بغلظتك، بل كن لطيفاً، وجليساً مؤانساً.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أي: من العبيد المملوكين ـ حين كان هناك مماليك ـ ومن الإحسان إليه أن تطعمه مما تأكل، وتُلبسه مثل ما تلبس.

وجاء في الحديث، أنّ المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر الغفاري رضي الله عنه بالرَّبَذَة ـ اسم بلدة ـ وعليه حلة، وعلى مملوك له ـ أي: عبد ـ حلة ـ أي: مثل حلة أبي ذر ـ قال: فقلت كيف هذا يا أبا ذر؟

قال: لقد سابيت يوماً رجلاً ـ أي: مملوكي ـ فعيرته بأمه، فراح العبد وشكاه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فدعاني صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «يَا أَبَا ذَر أعيرته بأمه إِنَّكَ امْرُؤ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكمْ خَوَلُكُم جعلهم الله تحت أيديكم، فمنْ كَانَ أَخُوهُ تَحتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلْ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبِس، وَلا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»[1].

فامتثل أبو ذر رضي الله عنه أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووصيته بالمماليك.

وترى هنا أنه سبحانه أوصى بالمماليك وأوصى بالأحرار، وأوصى بالمساكين، فمن بقي من الناس لم يوص الله به ؟ لأن الناس ما بين هذا وهذا.

وهناك الإحسان مع الحيوانات، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الله كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُم فَأَحْسِنُوا القِتلَةَ» أي: إذا قتلتم حيواناً مُؤذياً مشروعاً قتله فأحسنوا قَتْله «وَإِذَا ذَبَحْتُمْ» حيواناً مشروعاً ذبحه «فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَة، وَلِيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيْحَتَهُ»[2].

وقد مرَّ صلى الله عليه وآله وسلم على أعرابي يريد أن يذبح شاة، فأضجعها وجعل يحد شفرته، فناداه صلى الله عليه وآله وسلم: «أفلا قبل

---

(١) الحديث في (المسند) (١٦١/٥) والبخاري في كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية /٣٠/ (٨٤/١)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل /١٦٦١/ (١٧٢١/٤)، وأبو داود /٥١٥٧/، والترمذي /١٩٤٦/.

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) (١٢٣/٤)، ومسلم في كتاب الصيد والذبائح باب الأمر بإحسان الذبح والقتل /١٩٥٥/ (٢٠٢٦/٤) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه.

هذا، أَتُرِيدُ أنْ تُمِتْهَا موتتين، هلاَّ أحددت شَفْرَتَكَ قَبْلَ أنْ تُضْجِعَهَا»[1].

وليس ما يفعله بعض المسلمين في زمننا حين يقدم الحاج، ويريدون أن يذبحوا له ذبيحة، فتتقلب بين أيديهم، وهم ينتظرون الحاج، حتى إذا قدم ذبحوها، ومرَّ فوقها، وهذا ضلال في ضلال، وليس من الإسلام في شيء.

ولا بأس أن تَذبح شكراً لله أَنْ وفقك لأداء فريضة الحج على الوجه المشروع، لا الوجه الشائع بين الناس.

ومن جملة مراتب الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، كما قال سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقد أثبت سبحانه لأهل الإحسان معيته الخاصة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وأثبت لهم محبته الخاصة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ثم قال سبحانه: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] أي: أن هذه الآية المتقدِّم بيانها هي من مواعظ الله تعالى لكم في القرآن الكريم، وذلك من أجل أن تعتبروا وتتذكروا فتنفعكم الذكرى، ونسأل الله التوفيق.

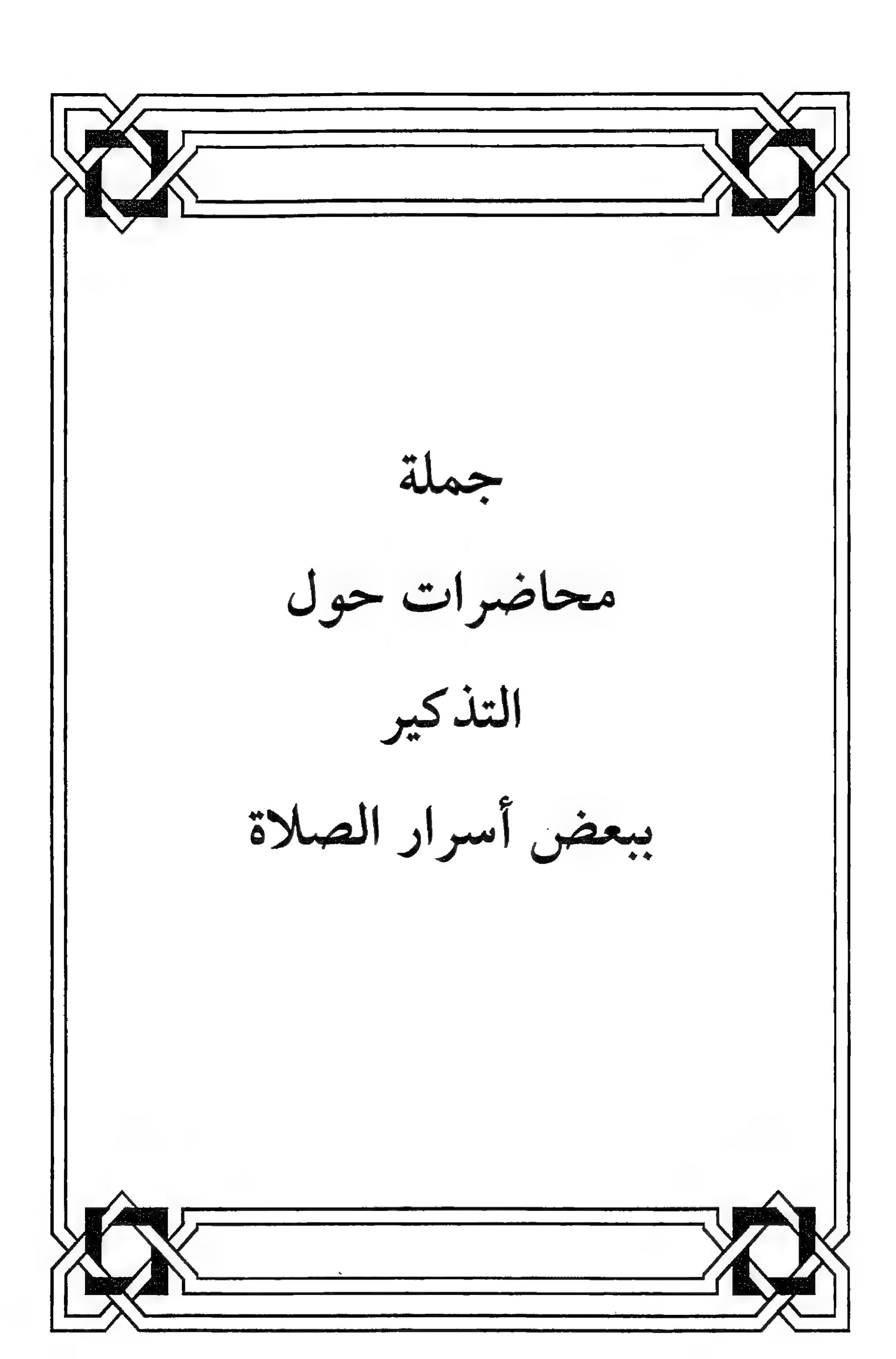
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

---

(١) رواه الطبراني (مجمع الزائد) (٤/٣٣) والحاكم (٤/٢٣١) عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.



جملة
محاضرات حول
التذكير
ببعض أسرار الصلاة

مشروعيَّة الصلاة

لقد فرض الله تعالى الصلاة في جميع الشرائع السماوية على جميع الأمم[1]، إلا أنّ كَمّها وكيفيتها يختلف من أمة لأخرى حسب حكمة الله تعالى.

وإنّ أعظم صلاة وأجمع صلاة لله تعالى إنما هي الصلاة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَفُرِضت في شريعته عليه الصلاة والسلام.

أما فرضية الصلاة في شريعة سيدنا شعيب عليه السلام: قال الله تعالى إخباراً عن شعيب وقومه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ [هود: ٨٧].

قالوا: هذا على وجه السخرية من صلاة شعيب عليه السلام.

والجواب: نعم إن صلاتي تأمرني أن أفعل الخير وأترك المنكرات.

وأما في شريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد أخبر الله عنه قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وقال الله تعالى في ذرية سيدنا إبراهيم ويعقوب وإسحاق: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ

---

(١) وما مِنْ خَلق مِنْ خلق الله تعالى، من الإنس والجن، والملك، والوحوش والجمادات والنباتات، وغير ذلك إلا قد شرَع الله له الصلاة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ أي: كلٌ ممن في السماوات والأرض من مَلَكٍ وبشر، وطير، وجماد وغيره ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾[النور: ٤١].

﴿إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣] أي: وأوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات وأعظمها الصلاة.

وأما في شريعة سيدنا موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

وقد أفرد سبحانه ذكر الصلاة عن العبادة، مع أن الصلاة من العبادة، وذلك ليُبين أن الصلاة هي أجمع العبادات كلها، وأفرضها، وأشملها وأعظمها، ولذلك خصها بالذكر.

وأما في شريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد فرض الله تعالى الصلاة بعد أن مَضى على النبوة مدة قليلة، فإنّ أول ما نزل من الوحي الآيات الخمس الأولى من سورة العَلَقِ، ثم أنزل سبحانه أول المدثر، وأول المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

ففي هذه الآية فرض الله تعالى الصلاة في الليل، فرضها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، بأن يقوموا جزءاً من الليل ويصلون فيه لله تعالى.

وهذا أول ما فرض الله تعالى من الصلاة وهي الصلاة في الليل، وإنّ الحكمة من ذلك أن المسلمين في أول الأمر كانوا قلة لا يستطيعون الجهر بإيمانهم، فأمرهم الله أن يصلوا له خفية في الليل، حتى لا يشعر بهم المشركون.

ثم نسخ سبحانه فريضة الصلاة في الليل بقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبين في آية أخرى أن الصلاة

المفروضة هي في أول النهار وآخره بقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [طه: ١٣٠] ففرض سبحانه صلاة في الغداة وصلاة في العشي.

ثم بعد ذلك انتهى الأمر إلى خمس صلوات، وكان هذا ليلة الإسراء والمعراج، فهي خمس صلوات عَمَليه، ولها في الأجر والثواب قوة خمسين صلاة.

وقد ذكر سبحانه في سورة الإسراء الآيات التي فيها الإشارة إلى تلك الصلوات الخمس المفروضة بقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ هو زوالها، أي: ميلها عن كبد السماء وهو وقت صلاة الظهر.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ظلمة الليل، ويدخل في هذا صلاة العصر والمغرب والعشاء، ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ وهي الصلاة الخامسة صلاة الفجر.

وإنّ أول ما أظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الصلاة عَمَلياً هي صلاة الظهر، وسميت بالظهر لأنها أول ما ظهرت، أي: ما ظهر من الصلاة.

وكان هذا ليلة الإسراء والمعراج، بعدما فرض الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الصلوات الخمس.

ففي اليوم الذي يلي تلك الليلة، جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصلى صلاة الظهر إماماً برسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم، ليعلمه كيفية الصلاة، وتوالى الأمر حتى صلاة الفجر، يُصلي جبريل عليه السلام، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقتدياً به.

ومما يدل على أن الصلوات خمساً، ما جاء في حديث المعراج قال: «ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلاَةً، فَلَمَّا رَجَعْتُ مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى عليه السَّلام، فَقَالَ لِيْ: ارْجِع إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ التَّخْفِيْفَ لأُمَّتِكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيْقُ ذَلِكَ، قال: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّيْ، فَوَضَعَ عَنِّيْ عَشْراً» وهكذا إلى أنْ قَالَ الله تعالى له: «هُنَّ خمسٌ وَهُنَّ بِخَمْسِيْنَ، لاَ يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيَّ»[1].

وقد بَيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن الصلوات المفروضة هي خمس، فقال: « خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ الله عَلَى الْعِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ ولَمْ يُضَيِّعْ شَيْئًا منهن اسْتِخْفَافًا بحقهن، كَانَ لَهُ عهْدٌ عِنْدَ الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ» كما في رواية (الموطأ) والنسائي[2].

ومما يدل على ذلك أيضاً، ما جاء في البخاري[3]، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء /٣٤٩/ (١/٤٥٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماوات /١٦٢/ (١/٣٢٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) (الموطأ) (١/١٢٣) وأبو داود في كتاب الصلاة، باب فيمن لم يوتر /١٤٢٠/ (٢/١٣٠)، والنسائي (١/٢٣٠) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٣) في كتاب الإيمان، باب الزكاة في الإسلام /٤٦/ (١/١٠٦) وهو عند مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام /١١/ (١/١٢٢).

وسلم، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حتى دنا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنْ الإِسْلام؟

فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خمس صلوات في اليوم والليلة».

قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ: «لا إِلا أَنْ تَطَوَّعَ».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وصيام رَمَضَانَ».

قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ ؟ قَالَ: «لا إِلا أَنْ تَطَوَّعَ».

قال وذَكَرَ له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الزَّكَاةَ، فقَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ: «لا إِلا أَنْ تَطَوَّعَ».

قال: فأدبر الرَّجُلُ وهو يَقُولُ: وَاللَّهِ لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلا أَنْقُصُ منه.

فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفلح إِنْ صَدَقَ».

الأمر بالصلاة

اعلم أنّ الله تعالى أمر بالصلاة، وأمر بالأمر بالصلاة، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي: صلاة الفجر ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ أي: صلاة العصر ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾ أي: صلاة المغرب والعشاء ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: صلاة الظهر ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً ﴿مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ أي: على الصلاة ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [الآيات من سورة طه].

قوله: ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ أي لعل الله يعطيك العطاء حتى ترضى، لأنّ المصليَ يسعى إلى رضوان الله في صلاته.

وفي قراءة متواترة سبعية: ﴿لَعَلَّكَ تُرْضىٰ﴾ أي: لعل الله يعطيك حتى يرضيك، كما ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري[1]، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال وقد نظر يوماً إلى القمر ليلة البدر: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لا تضامون في رؤيته، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ الآية.

فمن كان مواظباً على صلواته، محافظاً عليها، فهو يُعدُّ نفسه لرؤية ربه، وإلى تجليات الحق سبحانه في الآخرة، وهو يسعى إلى أن يكون من الذين يعطيهم الله حتى يرضيهم.

ولهذا جاء في الحديث[2]: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، والْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَالَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبَّنَا وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَالَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يارب وأيّ شيء أفضل من ذلك ؟!! فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً».

---

(١) في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر /٥٥٤/ (٢/٣٣) وهو عند مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة /٦٣٣/ (٢/٧٥٠) عن سيدنا جرير ابن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) الذي رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار /٦٥٤٩/ (١١/٤١٥)، ومسلم في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة /٢٨٢٩/ (٥/٢٧٠١) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقد جاء في الحديث الذي رواه أحمد في (مسنده) [1]: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَنْظُرُ في مُلْكِهِ مَسِيْرَةَ أَلْفَي سَنَةٍ، يرى أَقْصَاهُ كَمَا يَرى أَدْنَاه».

فهم أُعطوا قوة في أبصارهم فيرون البعيد كما يرون القريب.

وإن أعلى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى الله تعالى في كل يوم مرتين بكرة وعشياً.

ثُمَّ بَيَّن سبحانه السبب الذي يحمل المصلي على الحضور والخشوع في صلاته فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾.

قوله: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً من أهل الدنيا من الكفرة والفجرة.

قوله: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يدل على أن تمتعهم بملذات الدنيا وشهواتها مؤقت قليل، لأن الزهرة لا تبقى بنضارتها وبهجتِها، بل لابد أن يعتريها الذبول والاضمحلال، فما متاع الدنيا إلا كذلك، كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

ثم بَيّن وجوب أمر الأهل من زوجة وأولاد بالصلاة، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ ومن لك الرعاية عليهم.

قوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: صبِّر نفسك على إقامة الصلاة بآدابها وخشوعها، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

فلكي تقي نفسك من النار، يجب أن تقي أهلك أيضاً من النار.

---

(١) (١٣/٢) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ولما نزلت هذه الآية قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا سول الله نَقِيْ أَنْفُسَنَا مِنَ النَّارِ، وَلَكِنْ كَيْفَ نَقِيْ أَهْلِيْنَا مِنَ النَّارِ؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «تَأْمُرُوهُنَّ بِمَا أَمَرَكم الله به، وَتَنْهُوهُنَّ عَمَّا نَهَاكُمُ الله عنه، فَيَكُونُ ذَلِكَ وِقَايَةً لَهُمْ مِنَ النَّارِ»[1].

فمن وعظ أهله وأمرهم بما أمر الله، ونهاهم عما نهى الله: يجمعهم الله تعالى معه في الآخرة في الجنة ليكمل نعيمه فيها.

ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام كما في (سنن) أبي داود[2]: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالْصَلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سنين، وَاضْرِبُوْهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُم فِي المَضَاجِعِ».

ومن لم يأمر ولده بالصلاة إذا بلغ سبع سنين فهو مؤآخذ عند الله تعالى، وهكذا ضرب الولد وهو في العشر بيدٍ لا بخشبة، من باب التأديب والتحريض، لا الشدة والغلظة.

أما إذا بلغ الولد وكان الأب قد هدده ووعظه وزجره ولم يَرَ في ولده قبولاً، أصبح البالغ هو المسؤول عن نفسه.

كما يجب على المؤمن أن يأمر أولاده وبناته أن يتخلقوا بآداب الشريعة وهم في الصِّغر، لئلا يصعب الأمر عليهم إذا بلغوا وكبروا، وهذا كله من لوازم الرعاية، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعيَّته، فَالرَّجُلُ رَاعٍ على أهله وَهو مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ

---

(١) كما في تفسير الآلوسي عند هذه الآية الكريمة.

(٢) في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة /٤٩٥/ (١/٣٣٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

راعية فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالرجل راعٍ فِي مَالِ أبيه ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، فكُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه»[1].

قوله تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا تُضَيِّع من أوقات الصلاة شيئاً، وحافظ عليها وعلى آدابها، ولا تظن أنّ ذلك يُذهب من رزقك الذي قسمه الله لك، فقال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ولم نطلب منك أن تَرزق نفسك، فأنت قم بحسن خدمتنا، ونحن نقوم بإيصال قسمتنا.

* * * *

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن /٨٩٣/ (٢/٣٨٠)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل /١٨٢٩/ (٤/١٩٣٢) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

من أسرار الصلاة

لقد حوت الصلاة على عدة عبادات متنوعة، منها العبادة القولية، ومنها العبادة القلبية، ومنها العبادة الركنية الجسمية.

فقوام الصلاة هو العبادة لله تعالى، والتعظيم له بالقلب، ثم باللسان، ثم بالأركان.

أما تعظيم الأركان أي: الأعضاء، فلقد اشتملت الصلاة على الوقوف والركوع، والانحناء والسجود، فهذه التنقلات الركنية إنما هي من باب الترقي والتدرج في خضوع العبد لربه، وتعظيمه له، وانكساره له.

فالقيام: قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] إنما هو وقوف على هيئة معينة، فيها كمال الأدب والذل لرب العالمين، وهو وقوف امتثال لأمر الله تعالى، إذ يتوجه فيه العبد حيث وجهه ربه إلى الكعبة المشرفة، وليس للعبد اختيار أن يتوجه إلى جهة يختارها لنفسه، وإنما يمتثل أمر الله تعالى بأن يتوجه إلى الكعبة ملاحظاً أن الله تعالى، يتجلى على الكعبة، المشرفة عند كل صلاة، فهو يتوجه بقلبه إلى الله، ويتوجه بجسمه إلى حيث تجلى الله، وكأن الله تعالى يقول إذا دخل وقت الصلاة: يا عبادي قوموا فصلوا وتوجهوا إليَّ، لأنني توجهت إليكم في قبلتكم هذه.

ويجب أن يكون الوقوف في الصلاة وقوفاً خاصاً، على أكمل الوجوه التي يقف فيها إنسان كامل بين يدي رب العالمين.

حتى إن الشارع أمر أن تكون حركات الإنسان من ركوع وسجود وغيرها، أن تكون محفوفة بالوقار والسكينة والأدب، وأن لا يكون فيها

تَشبه بحركات نوع من الحيوانات، ومن ذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يسجد الإنسان سجوداً يشبه نقر الديك، أو أن يقعي بيديه إقعاء الكلب، أو أن يفترش افتراش السَبعُ، وعند تنقله من سجوده إلى قيامه يحتفز وينهض احتفاز الثعالب، وهو القفز، أو أن يبرك حينما يهوي للسجود بروك الجمل فيحط يديه قبل ركبتيه[1].

فقد ذكر ذلك كله، حتى تكون هيئة الإنسان في صلاته هيئة إنسان كامل، بعيد الشبه عن البهائم.

ثم إن المصلي يجب أن يقف بصلاته وهو عاقد اليدين، ناظراً إلى موضع سجوده، وهي وقفةُ معظم لله، لأن تنكيس الرأس شأن المتواضعين المتذللين، أما رفع الرأس والعنق وهو التيه، فهو شأن المتكبرين الجبارين، قال الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

يعني هؤلاء الكفار إذا لم يخضعوا لله اختياراً، فإن الله يُخضعهم اضطراراً وإجباراً، بأن يُنزل عذاباً من السماء ينكِّسون له رؤوسهم خاضعين.

وأما الركوع: فيجب أن يكون انحناء الظهر فيه مستوياً مع الرأس، وليس فيه تحدب أو شبه بالألاعيب.

ثم هناك السجود: وهذا كله ترقٍ في التعظيم لله والانكسار له، فالوقوف تذلل وخضوع، ثم الركوع أشد من الوقوف تذللاً، إذ ينحني فيه

---

(١) كما في (المسند) (٢/٢٦٥) و(مجمع الزوائد) (٢/٨٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري (١/٤٢٢).

الظهر بحيث يتساوى الرأس مع آخر الظهر، ثم هناك منتهى الخضوع لله والتعظيم له، بأن تضع جبهتك وأعضاءك السبعة على الأرض، فهكذا الانتقال من حالة إلى حالة، مترقياً بالتعظيم لله سبحانه خاضعاً له.

جاء في الحديث الذي رواه البزار في (المسند)[1]، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله تبارك وتعالى: إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلاَةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِي، وَلَمْ يِسْتَطِلْ» أي: يتكبر «عَلَى خَلْقِي، وَلَمْ يَبِتْ مُصِرّاً عَلى مَعصِيَتِي، وَقَطَعَ النَهَارَ فِي ذِكْرِي، وَرَحِمَ المِسْكِيْنَ، وَابْنَ السَبِيلِ، والأَرْمَلَةَ، ورحم المُصَابَ، فَذَلِكَ نُورُهُ» أي: عند الله «كَنُورِ الشَّمْس، أَكْلَؤُهُ بِعِزَّتِي، وَأَسْتَحْفِظُهُ مَلاَئِكَتِي، أَجْعَلُ لَهُ فِي الظُّلْمَةِ نُوراً، وَفِي الجَهَالَةِ حِلْمَاً، ومَثَلُهُ في خَلْقِي كَمَثَلِ الْفِرْدَوسِ فِي الجَنَّةِ» الحديث.

وروى الترمذي[2] عن الفضل بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « الصَّلاَةُ مَثْنَى مَثْنَى، تَشَهَّدُ فِي كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، وتَخَضَع وَتَخَشَعُ وَتَمَسْكَنُ، ثُمّ تُقْنِعُ يَدَيْكَ» أي تَرْفَع بهمَا داعياً بعد ما فرغت من الصلاة «تَقُولُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، فمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهِيَ» أي: صلاته «كَذَا وكَذَا»، وفي رواية: «خداج» أي: ناقصة.

وجاء في الحديث الذي رواه الطبراني[3] عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أسوأ النَّاسِ سرقة الَّذِيْ يَسْرِقُ مِن صَلاَتهِ».

---

(١) (مجمع الزوائد) (٢/١٤٧) وينظر (كشف الأستار) /٣٤٨/.

(٢) الحديث في (المسند) (٤/١٦٧)، والترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في التخشع في الصلاة/٣٨٥/ (٢/٩٣).

(٣) (مجمع الزوائد) (٢/١٢٠) وهو في (المسند) للإمام أحمد (٥/٣١٠).

قَالوا: يا رسول الله كَيْفَ يَسْرِقُ مِنْ صَلاَته ؟

قال: «لاَ يُتِمُّ رُكُوعَهَا، وَلاَ سُجُودَهَا» أو«لاَ يُقِيْمُ صُلْبَهُ فِيْ الرُكُـوع ولا السجود».

وقد جعل الشارع السرقة من الصلاة أسوأ السرقات، لأن السارق منها يسرق من حظ نفسه، وهذا أقبح من السرقة من حظ غيره.

وورد في الحديث[١]، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أن الـنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خمس صلوات افترضهن الله عز وجل، من أحسن وضوءهن، وصلاهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وسجودهن وخشوعهن كان له عند الله عهد أن يغفر له، ومن لمن يفعل فليس له على الله عهـد؛ إن شاء غفر له وإن شاء عذبه».

أما عمل القلب في الصلاة، فيجب على المصلي أن يلاحظ أنه يطـرق باب الحضرة الإلهية حتى إذا فُتح له دخل على الله تعالى.

ويرحم الله القائل:

ألا في الصلاة الخير والفضل أجمع ... لأن بهـا الأربـاب[٢] لله تخضـع
وأول فـرضٍ مـن شـريعة ديننـا ... وآخـر مـا يبقـى إذا الـدين يرفـع
فمـن قـام للتكـبير لا قتـهُ رحمـةٌ ... وكـان كعبـد بـابَ مـولاه يقـرع
وكان لرب العرش حـين صـلاته ... نجيًّا فيا طوبـاه لـو كـان يخشـع

فإذا فتح لك الباب حَيَّيْتَ رب العزة بالثناء عليه مـن أدعيـة الاسـتفتاح الواردة.

---

(١) رواه أبو داود في كتـاب الصـلاة، بـاب فـيمن لم يـوتر /١٤٢٠/ (٢/١٣٠)، والنسائي في كتاب الصلاة، باب المحافظة على الصلوات الخمس (١/٢٣٠).

(٢) أي: العباد.

ثم تلاحظ وقوفك بين يدي الله تعالى الذي هو رب الأرباب، والذي عَنَت له الوجوه، والذي ذَلَّت لعظمته الأرض والسماوات، والذي لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفكار.

وإذا تمكنت من ملاحظة هذا تراءى لك في قلبك، وشاهدته بقلبك كأنك تراه ببصرك، وإذا لم يكن عندك هذه القوة في الشهود فلاحظ أنَّ الله تعالى يراك ويشاهدك، ولا تلتفت إلى غير الله تعالى، ولاحظ أنك إذا التفت إلى غيره بقلبك أعرض عنك، وليس هناك أقبح ولا أشنع من عبد يتوجه ربه إليه وهو يُعرض عن ربه.

جاء في الحديث[1]: «لا يزال الله مقبلاً على العبد في صلاته مالم يلتفت، فإذا صرف وجهه انصرف عنه»

وفي هذا يجب عليك أن تكون في محاربةٍ مع نفسك، ولذا سمي مكان الصلاة المحراب، وأعظم مواقف العبد أن يقف في هذا المحراب.

ولذلك لما بَشَّر الله زكريا عليه الصلاة والسلام بيحيى، جاءته البشارة وهو على أكمل الأحوال، وهو قائم يصلي في المحراب.

وجاء في الحديث المرسل، الذي رواه محمد بن نصر، عن الحسن البصري، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لِلمُصَلِي ثَلاَثُ خِصَالٍ: يَتَنَاثَرُ الْبِرُّ مِنْ عَنَانِ السَّمَاءِ إلَى مَفْرِقِ رَأْسِه» أي: وهو الخير الإلهي الجامع المتنوع «وَتَحُفُّ بِهِ الْمَلاَئِكَةُ مِن لَدُنْ قَدَمَيْه إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، وَيُنَادِيهِ مُنَادٍ: لَوْ يَعْلَمُ الْمُصَلِّي مَنْ يُنَاجِي مَا انْفَتَلَ إلَى غَيْرِهِ».

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (١٧٢/٥)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب الالتفات في الصلاة /٩٠٩/ (٥٦٠/١)، والنسائي (٨/٣) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل في الصلاة يسمع له أزيز كأزيز المرجل، وهذا من شدة خشوعه عليه الصلاة والسلام، ومدافعته للبكاء، فيُسمع من صدره الشريف صوت كغليان المرجل على النار.

وقد أوحى الله إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: «يا عيسى إذا وَقَفْتَ بين يدي فقف موقف العبد الحقير الذليل الذامِّ لنفسه، وإذا دعوتني فادعني وأنت تنتفض أعضاؤك» أي: من الرهبة والخشية.

وكان ابن سيرين رحمه الله تعالى إذا دخل في الصلاة اصفر وجهه وذهب دمه، كأنه ما في وجهه قطرة دم؛ خشيةً وخوفاً من الله تعالى.

وكان بعض السلف يقول: لأن أُضرب بالخناجر بين كتفي وأنا في الصلاة أحب إليَّ من أن ألتفت إلى أمرٍ دنيوي.

وفي الحديث الذي رواه الحاكم والبيهقي(١)، أنه عليه الصلاة والسلام قال لرجل عندما قال له أوصني وأوجز. وفي رواية: عظني وأوجز لي، فقال عليه الصلاة والسلام له: «عَلَيْكَ بِالإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِيْ النَّاسِ، وإِيَّاكَ وَالْطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ، وَصَلِّ صَلاَتَكَ وَأَنْتَ مُوَدِّعٌ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ».

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وأنت مودع» أي: مودع لما سوى الله، وكأنك إذا دخلت في الصلاة وَدّعت العالم كله، وأقبلت على رب العالمين، أَوْ لعل هذه الصلاة هي آخر صلواتك، فلا تدري متى أجلك، فكل صلاة تُصليها يحتمل أن تكون هي آخر صلواتك، فلو تحققت أنها

---

(١) الحاكم في (المستدرك) (٤/٣٢٦)، والبيهقي في (الزهد) (١٠١) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والطبراني من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما (مجمع الزوائد) (١٠/٢٢٩).

آخر صلواتك فكيف تُتقنها وتؤديها حقها وخشوعها، فكذلك اجعل كل صلاة تصليها، اجعلها صلاة المودع، معتبراً أنها آخر صلواتك، لأنك تجهل وقت وفاتك.

الصلاة دليل الإيمان

لقد جاء في كثير من الآيات القرآنية ذكر الإيمان وأريد منه الصلاة، فمن ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: صلاتكم.

وقد نزلت هذه الآية عندما تحولت القبلة إلى الكعبة، بعدما كانت إلى بيت المقدس، وقد توفي عدد من الصحابة قبل أن تُحول إلى الكعبة المشرفة، فسأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما بال إخواننا الذين كانوا يصلون إلى بيت المقدس أي: هل أن صلاتهم مقبولة عند الله تعالى.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ أي: صلاتكم التي صليتموها إلى بيت المقدس قبل التحويل إلى الكعبة.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] قال كثير من السلف رضي الله عنهم: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ﴾ أي: القرآن ﴿وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ يعني: الصلاة بتفاصيلها وأحكامها.

هذا لأن الله تعالى قرن الصلاة بالقرآن في كثير من الآيات ومنها: قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ٥٩].

ففي الآية لما قرن الإيمان بالكتاب دل على أن المراد من الإيمان الصلاة.

والمعنى: ما كنتَ قبل أن يَوحي الله إليك ويعلمك يا رسول الله ما كنت تدري الكتاب تفصيلاً، ولا أحكام الصلاة تفصيلاً، حتى أوحى الله إليك وعلمك ذلك، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ الآية [النساء: ١١٣].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧] قال كثير من السلف رضي الله عنهم: معنى ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يصلون لله سبحانه، فوصفهم بكثرة الصلاة لله تعالى، وسُمِّيت الصلاة إيماناً لأنها إيمان عملي، وإيمان قولي، وإيمان اعتقادي، وهي أعظم عبادات العبد لله تعالى.

وما حقيقة الإيمان في القلب إلا نور من رب العالمين، تجلى به على عباده المؤمنين، وهو نور الهداية، وبهذا النور يهتدي العبد إلى رب العالمين، وَمَن لم ينل التجلي النوراني على القلوب لم ينل الهدى إلى الله تعالى.

وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ» أي: ظلمة النفس والهوى والدنيا «ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُورِ اهْتَدَى» أي: إلى الله «وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»(١) إذاً لا يُعرف اللهُ تعالى

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد (٢/١٧٦و١٩٢)، والترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة /٢٦٤٤/ (٧/٢٩٧) عن سيدنا عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما.

ولا يمكن الوصول إلى الإيمان بالله تعالى إلا بنور من عند الله، فإذا تعرض العبد لنور الله تعالى الذي تجلى به على عباده أصابه ذلك النور وأشرق في قلبه، وعرف الله تعالى بنوره سبحانه.

وقال سبحانه: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي: لا يتساوى هذا وذاك.

وهذا كما بين سبحانه أن الإيمان نور في القلب بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] أي: مَثَلُ نور الله في قلب عبده المؤمن، جاء في الحديث: «تَمَّ نُورُكَ فَهَدَيْتَ»[١] أي: هديت بنورك إليك «فَلَكَ الحَمْدُ».

وعلى هذا جاء في الحديث: «والصَّلاَةُ نُورٌ»[٢] أي: ينصبغ المصلي بأنوار الصلاة، وتظهر عليه هذه الأنوار في جميع العوالم.

الصلاة هي أفضل الأعمال الإيمانية

قال عليه الصلاة والسلام: «اسْتَقِيْمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، واعْلَمُوا أنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاَة، ولاَ يحافظ عَلَى الوضُوء إلاَ مُؤْمِنْ» الحديث[٣].

---

(١) طرف من حديث رواه أبو يعلى (مجمع الزوائد) (١٠/١٥٨) عن سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه.

(٢) طرف من حديث رواه الإمام مسلم في أول كتاب الطهارة /٢٢٣/ (١/٤٠٣) والترمذي في كتاب الدعوات /٣٥١٢/ (٩/١٧٩)، والنسائي (٥/٥) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الطهارة، باب المحافظة على الوضوء /٢٧٧ و٢٧٨و٢٧٩/ (١/١٠١و١٠٢) عن سيدنا ثوبان وابن عمرو بن العاص وأبي أمامة رضي الله عنهم، وهو في (المستدرك) (١/١٣٠).

والمعنى: استقيموا على الإيمان بالله، وعلى قولكم ربُّنا الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٢٠] أي: قالوا ربنا الله عندما كانوا في عالم الذر يوم أخذ الله العهد عليهم، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: أنت ربنا، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: بعد أن انتقلوا إلى هذا العالم استقاموا على ما قالوا.

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اسْتَقِيْمُوا» أي: على عهدكم الذي عاهدتم الله عليه لما أخذ عليكم العهد. وكأنهم قالوا: فما طريق الاستقامة ؟ فقال: العمل، أي: بتحقيق الأمور الإيمانية والعملية والقولية، وكأنهم قالوا: وما هو أفضل الأعمال الإيمانية؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَاعْلَمْوا أنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُم الصَّلاَةُ» أي: أنه للتحقق بمقام الاستقامة لابد من أداء الأعمال التي بَيَّنها الشارع، وأهم هذه الأعمال وأفضلها الصلاة.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وَلَنْ تُحْصُوا» أي: مهما استقمتم فإنكم لن تحصوا قدر الله تعالى وحقه سبحانه وتعالى.

كما قال عليه الصلاة والسلام: «لاَ أُحْصِيْ ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[1].

وأنتم مهما استقمتم لن تحصوا أنواع الاستقامة وتستقصوا مراتبها لأن للاستقامة مراتب لا حد لها، وكل مقام منها فوقه مقام أعلى وأكمل، وهكذا.

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود /٤٨٦/ (٢/٦٣٦)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء في الركوع والسجود /٨٧٩/ (١/٥٤٧)، والترمذي /٣٤٩١/ عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

وفي هذا تنبيه على أن لا يغتر المؤمن بمقامه، وإن بلغ حداً عالياً في الاستقامة، فليعلم أنّ وراء مقامه مقامات أعلى وأكمل، وهذا قوله: «وَلَنْ تُحْصُوا» أي: أنواع ومراتب الاستقامة ومقاماتها.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولاَ يحافظ عَلَى الوضُوء» أي: في كل الأوقات «إلاَ مُؤمِنْ» أي: كامل الإيمان حتى يكون دائماً في مجالسة الملائكة، وحتى يكون دائماً أهلاً أن يذكر الله تعالى.

ولما كانت الصلاة خير الأعمال وأفضلها، جمع فيها أفضل الأقوال، واشتملت على أفضل الأعمال، وأفضل التسبيح والثناء على الله تعالى، وأفضل صيغة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهي الصلاة الإبراهمية.

ولقد جاء ذكر الصلاة في القرآن الكريم في أكثر من مائتي آية، مما يدل على أهميتها وفضلها وعلوِّ شأنها عند رب العالمين.

وما سميت الصلاة صلاةً إلا لأنها صلة العبد بربه، وقربه إليه ولذلك قال بعضهم: إن أردت أن تُكثر الولوج على حضرة الله فعليك بالصلاة.

فالصلاة دخول على حضرة رب العالمين، ولهذا كان الإمام زين العابدين رضي الله عنه لما يأتي باب المسجد للصلاة يقف عند باب المسجد ويقول: إلهي عُبيدك بِفِنائك. أي: أتأذن له بالدخول؟.

الصلاة فيها مناجاة لرب العالمين

جاء في (صحيح) مسلم[١]، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

---

(١) في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة /٣٩٥/ (٢/٥٦٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

«يَقُولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي قِسْمَيْن، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي».

وفي رواية للبيهقي[1] زيادة: «فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالى: ذَكَرَنِي عَبْدِي».

«وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي» لأن تكرير المدح ثناء «فَإِذَا قَالَ العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ الله تعالى: مَجَّدَنِي عَبْدِي» وفي رواية: «فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي».

«فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ الله تعالى: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» أي: أن العبادة من العبد هي لله، وإذا طلب العبد الإعانة من الله يعطيه جل وعلا ذلك «فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ الله تعالى: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

أهم مطالب الصلاة الحضور والخشوع

إن أسباب الحضور في الصلاة ودواعي الخشوع فيها متنوعة، ولكي يحمل المصلي نفسه على الخشوع في صلاته والحضور فيها، يجب عليه أولاً أن يلاحظ معنى ما يقول ـ وهو أول مراتب الحضور ـ من تكبير، وتسبيح، وتلاوة قرآن وتشهّدٍ وغير ذلك.

ثم بعد ملاحظة المعاني هناك مراتب المراقبة، ثم المشاهدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

---

(١) في (السنن الكبرى)، كتاب الصلاة، باب تعيين القراءة بفاتحة الكتاب (٢/ ٣٩).
(٢) تقدم تخريجه ص /١٩٦/.

وهذا يقتضي من العبد أن يكون في صلاته مودعاً لما سوى الله تعالى، مقبلاً على الله تعالى مناجياً مشاهداً له.

كما قال عليه الصلاة والسلام: «وَصَلِّ صَلاَتَكَ وَأَنْتَ مُوَدِّعٌ» الحديث[1].

ولقد شُرِع الأذان قبل الصلاة، وهو سنة مؤكدة، وفيه إعلام بأن الله تعالى تجلى على عباده في هذا الوقت فعليهم أن يقابلوا هذه التجليات بالصلاة له سبحانه، فإذا حان الوقت نادى المنادي بدعوة التوحيد، فقال: الله أكبر، الله أكبر، لأن شأن العظيم الكبير إذا ظهر بكبريائه وعظمته أن تقول: الله أكبر.

ثم دعوة إلى الشهادة: أشهد أن لا إله إلا الله، وإلى الشهادة بأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي جاء بالصلاح والنجاح، وأهم ذلك الصلاة فقال: حي على الصلاة، ثم قال: حي على الفلاح، لأنّ فلاح العبد وصلاحه ونجاحه بإجابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيامه إلى الصلاة.

ثم هناك الوضوء وهو تَخلية من الذنوب الصغائر، كما أن الوضوء تخلية من الأوساخ الظاهرة، وذلك بغسل الأعضاء، وتنظيفها حتى يدخل العبد في الصلاة نظيفاً طاهراً، ثم يدخل العبد في صلاة السنن التي سنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والسنن تُكَيِّف وتهيِّئ النفس للحضور في صلاة الفرض والخشوع فيها.

وهذا من حكمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهي أن يصلي العبد قبل الفرض سنة لتُكَيِّفَهُ وتعده للدخول في الفرض، حتى يكون في

---

(١) تقدم تخريجه ص /٢٣٥/.

الفرض حاضراً مع الله خاشعاً له، والسنن البعدية مكملات لنقص الفرض من آداب وخشوع، فجزى الله عنا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ما هو أهله.

ثم إذا دخل العبد في الصلاة قال: الله أكبر، أي: الله أكبر من كل شيء، وهو أكبر مما تتصور، فالأكبر على الحقيقة هو الله تعالى، وكل شيء سوى الله لا كبرياء له مع الله، وإنما الأكبرية المطلقة لرب العالمين، فقولك: الله أكبر، أي: أكبر ممَّا رأيت، وأكبر مما عرفت، وأكبر مما أتصور من كبريائه وعظمته، ولذلك فهو سبحانه الأكبر الأكبر، ولهذا كان من دعائه عليه الصلاة والسلام بعد الصلاة المكتوبة، كما جاء في سنن أبي داود وغيره[1]: «اللهمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ اجْعَلْنِي مُخْلِصًا لَكَ[2] وَأَهْلِي فِي كُلِّ سَاعَةٍ من الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَام» ثم يقول عليه الصلاة والسلام: «الله أَكْبَر الأَكْبَر» وفي رواية: «الله أكبَر الله أكبَر».

وفي رواية: «الله الأَكْبَر الله الأَكبَر» أي: الأكبر هو الله تعالى.

أما رواية: «الله أَكْبَر الأَكبَر» أي: أكبر مما عرفت وكبرت.

وإنما دعا بهذا صلى الله عليه وآله وسلم بعد الصلاة لأنه بعد ما كبره العبد في صلاته وسبحه ومجده ليدل على أنه سبحانه أعظم وأكبر مما كبره العبد وعظمه، وهذا كما قال سبحانه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] أي: تكبيراً مطلقاً.

---

(١) أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلّم /١٥٠٨/ (٢/١٧٤) و(مسند) الإمام أحمد (٤/٣٩٩) عن سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أي: اجعلني خالصاً لك، أي: اجعلني متوجهاً إليك في كل لحظة.
وليس المراد الإخلاص في العمل، لأن قوله في الدنيا والآخرة يدل على ذلك، لأنه لا يتصور ألا يُخلص أحد عمله في الآخرة، بل الكل مخلصون في الآخرة.

الخشوع في الصلاة

إنّ مِنْ أهم مطالب الصلاة الخشوع فيها، ولهذا أخبر سبحانه عن أهل الظفر بسعادة الدنيا والآخرة وهم المفلحون، وأول ما وصفهم سبحانه وصفهم بالخشوع في صلواتهم، ثم اختتم وصفهم بأنهم محافظون على صلواتهم.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ولما نزلت هذه الآيات العشر قرأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الصحابة، ثم رفع يديه وهو يستقبل القبلة وقال: «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلاَ تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلاَ تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلاَ تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلاَ تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَارْضِنَا وَارْضَ عَنَّا» ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: «لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الْجَنَّةَ»(١). وذلك لأنه خاص بأوصاف أصحاب المقامات العالية، ولهذا قال: «زِدْنَا» أي: في رفعة المقامات والدرجات، وأكرمنا بالعبادات والقربات، وأعطنا ما أعطيت عبادك الصالحين، وفي هذا تعليم للأمة.

وقد اختلف العلماء في الخشوع في الصلاة هل هو شرط صحة أم

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/ ٣٤)، والترمذي في التفسير /٣١٧٢/ (٨/ ٣١٧) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

شرط قبول وكمال: قال بعضهم هو شرط صحة، بحيث إذا لم يخشع في نصفها وأكثرها لا صحة لصلاته.

ولكن جمهور العلماء على أن الخشوع في الصلاة إنما هو شرط قبول وكمال، يترتب عليه الثواب بحيث من صلى ولم يخشع في صلاته فقد سقط عنه الفرض، ولا ثواب له، وإنما الثواب على حسب الخشوع.

وقد جاء في الحديث [1]: «لاَ يَقْبَلُ اللهُ من عَبْدٍ عملاً حَتَى يُشْهِدَ قَلْبَهُ مَعَ بَدَنِه» أي: حتى يحضر قلبه في عمله، فحين ذاك يكون مقبولاً مأجوراً مضاعفاً في الثواب.

وقد حرضَّ صلى الله عليه وآله وسلم على الخشوع في الصلاة فقال: «الصَّلاَةُ مَثْنَى مَثْنَى» أي: ركعتين ركعتين، أي: تكون ركعتين منفصلتين، وقد تكون أكثر لكن عند كل ركعتين تشهد.

«تَشَهَّدٌ فِي كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، وتخشع، وتضرع، وتمسكن، وتذرع، وتقنع يديك» أي: بعد الفراغ من الصلاة ترفع يديك «وتقول: يا رب يارب».

وفي رواية تقول: «اللهم اللهم فَمَنْ لم يَفْعَلْ ذَلكَ فَهِيَ خِدَاج» وفي رواية: «فَهِيَ كَذَا وكَذَا» [2].

أما الحضور فهو ملاحظة القلب، وأما الخشوع فهو انفعال القلب حين توجهه إلى رب العالمين، فيخضع القلب وينكسر حين يبرق في القلب نور عظمة الله وكبريائه.

---

(١) كما في (الفردوس) حديث رقم /٦٣٥٣/ عن سيدنا أُبَي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب صلاة النهار /١٢٩٦/ (٢/٦٥)، والترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في التخشع في الصلاة /٣٨٥/ (٢/٩٣) عن الفضل بن عباس رضي الله عنهما.

ولما خضع القلب وانكسر خشع، ولما خَشَعَ خشعت الجوارح كلها، ولابد لخشوع القلب من علامات وآثار تظهر على الجوارح.

ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»[1].

أسباب الخشوع في الصلاة ودواعيه

إن الأسباب متنوعة مختلفة، تختلف من إنسان إلى آخر.

فمن ذلك ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك، لأن كل إنسان يأخذ من هذه العلاجات على حسب حاله ومقامه ومشاغله.

فقد روى الطبراني والبيهقي[2]، أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أوصني، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعرف ما هو أحوج ما يكون إليه، فقال له: «صَلِّ صَلاَتَكَ كَأَنَّكَ مُوَدِّعٌ، وعَلَيْكَ بِالإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِيْ النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ».

وفي رواية: «وإِيَّاكَ وَالْطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ».

وقوله: «كَأَنَّكَ مُوَدِّعٌ» أي: لاحظ أنّ الصلاة التي تصليها أنها آخر صلاة تصليها وستلقى الله بها، وَمَنْ لاحظ هذا فقد دخل في صلاته مودعاً

---

(١) أورده الحكيم الترمذي في الأصل /٢٤٥/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، كما ذكره الحافظ أبو نعيم في (الحلية) (١٠/٢٣٠) مرفوعاً، وكذلك القرطبي في تفسيره (١٢/١٠٣) وابن قدامة في (المغني) (١/٣٧٠) وأورده الحافظ ابن أبي شيبة في (المصنف) موقوفاً على سيدنا سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى.

(٢) تقدم تخريجه ص /٢٣٥/.

لما سوى الله، ومقبلاً عليه بكليته، وَمِنْ هنا يُعرف أن طول الأمل في الدنيا يؤدي إلى قسوة القلب وعدم الخشوع في الصلاة.

وَمن أسباب الخشوع في الصلاة أن يلاحظ المصلي أنه يناجي ربه في صلاته، وقد نبه إلى هذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه ابن خزيمة في (صحيحه)(١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى بهم الظهر يوماً، فلما فرغ من صلاته نادى رجلاً في آخر الصفوف فقال له: «يَا فُلاَن: أَلا تَتَّقي الله؟ أَلا تَنْظُرُ كَيْفَ تُصَلِّيْ؟ إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي إنما يقوم يُنَاجي رَبَّه، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يُنَاجِيه! إنكم ترون أَنِّي لاَ أَرَاكُمْ، وَالله إِنِي لأَرَى مَنْ خَلْفَ ظَهْرِي كَمَا أَرَى مَنْ بَيْنَ يَدَيَّ».

وأن يلاحظ أن الله تعالى أمامه في صلاته، متجلٍّ له في قبلته، كما جاء في الحديث: «إِنَّ أَحَدكُمْ إذا قَامَ إِلَى الصَلاة فإنما يستقبل ربه، والملك عن يمينه، فلا يبصق بين يديه ولا عن يمينه»(٢).

ومن جملة أسباب الخشوع ملاحظة معنى ما يقول العبد في صلاته من تكبير وتسبيح وقراءة قرآن.

وإن من خصائص كلام الله أن كل من قرأه لابد أن يفهم شيئاً من معناه، سواء كان أمياً أو متعلماً أو عربياً أو أعجمياً.

وإن أعلى ما يكون في الحضور والخشوع هو ما قاله صلى الله عليه

---

(١) ١/ (٢٤١).

(٢) طرف من حديث رواه أحمد في (المسند) (٣/ ٢٤)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب في كراهية البصاق في المسجد /٤٨٠/ (١/ ٣٢٤)، وابن خزيمة (٢/ ٦٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وآله وسلم: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ ـ وفي رواية: «أَنْ تَخْشَى الله» ـ كأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1].

أي: حَضَّرَ القلبَ ولاحظ المناجاة، حتى صار في مقام يشهد ربه بقلبه، كأنه يراه بعينه، ومن لم يبلغ هذا المقام فليراقب أن الله رقيب عليه ويراه.

فيجب على العبد أن يكون في العبادة ما بين شاهد أو مراقب، وإنّ قوة المراقبة تؤدي إلى المشاهدة.

وفي الحديث: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وما كتب له إلا عشر صلاته» أي: لأنه حضر مقدار عشر الصلاة « تِسْعُهَا، ثُمُنُهَا...نِصْفُهَا»[2].

وهناك مَن يقتحم هذه العقبة، ويخشع في أكثر صلاته، وهناك من يكون خاشعاً في صلاته كلها.

من فضائل الصلاة وأسرارها

إن الله تعالى ذكر مقامات كمال الإيمان، وأثنى على المؤمنين المتحققين بها، ومدحهم بالفلاح ووراثة الفردوس.

فقد ذكر سبحانه أول صفاتهم الخشوع في الصلاة، واختتم صفاتهم بالمحافظة على الصلوات، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [أول سورة المؤمنون] أي: يحافظون عليها في أوقاتها لاغتنام عظيم أجرها، ويحافظون عليها بعد أدائها من الضياع.

(١) تقدم تخريجه ص /١٩٦/.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة /٧٩٦/ (١/٥٠٣)، وابن حبان /١٨٨٦/ عن سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

فيجتنبون الأعمال المخالفة التي ورد أنها تأكل الحسنات، كالحسد، والغيبة، والوقوع في أعراض الناس.

وليس هناك عمل يقرب العبد إلى الله أعظم من الصلاة، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [سورة اقرأ: ١٩]. فقرن سبحانه الاقتراب بالسجود، ليبين فضل الصلاة، وخاصة حال السجود فيها.

وجاء في الحديث [(١)]: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» وهذا لأن السجود فيه غاية العبودية لله تعالى.

وكلما تحقق العبد بالعبودية تقرب من الله تعالى، لأن الرب لا يُتقرب إليه بصفات الربوبية كالعظمة والاستكبار، بل يتقرب إليه بصفات العبودية كالفقر والذل والانكسار.

وإنّ مَنْ حافظ على صلواته وخشوعها، وكانت صلاته صلاة المشاهدين ـ أي: مشاهدة الرب بالقلب ـ كان له يوم القيامة الحظ الأوفر من رؤية الله تعالى، كما جاء في الحديث [(٢)]: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها فافعلوا».

ولما وبخ الله تعالى بني الإنسان بأجمعهم وعنفهم لم يستثن أحداً

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود /٤٨٢/ (٢/٦٣٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) روه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر /٥٥٤/ (٢/٣٣)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما /٦٣٣/ (٢/٧٥٠) وأبو داود /٤٧٢٩/ والترمذي /٢٥٥٤/ عن سيدنا جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

منهم إلا المصلين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [الآيات من سورة المعارج] فَمَنْ حافظ على صلاته فقد خرج من هذا الذم والتوبيخ الإلهي.

كما وبخ سبحانه وذمَّ القرون التي تلت من قبلهم من قرون صالحة فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ولما قرن سبحانه اتباع الشهوات بترك الصلاة، دل على أنّ أعظم سبب يجعل العبد يترك صلاته هو اتباعه لشهوات نفسه، كشهوة النوم، أو الأكل المفرط، وهو الشبع المذموم الذي يَثقل فيه الجسم للقيام للصلاة، أو شهوة الجلوس في مجالس القيل والقال، بحيث يمر الوقت وهو منغمس في ذلك.

واعلم أن من ضَيَّعَ الصلاة التي هي أعظم حق لله تعالى ضَيَّعَهُ الله تعالى، وجعل الغيّ لقياه، والغي: هو الضلال والحيرة والضياع.

كما أنهم يَلقون يوم القيامة غياً، فقد جاء في الحديث أنَّ الغيَّ والأثام نهران في جهنم. كما روى الطبراني، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «لَوْ أَنَّ صَخْرَةً وَزَنَتْ عَشْر خَلِفَات،[1] قُذف بها من شفير جَهَنَّمَ؛ مَا بلغت قَعْرَهَا سبعين خَرِيْفَاً، حتى تَنْتَهيْ إِلَىٰ غيٍّ وأَثَامٍ».

قَالوا: ومَا هُوَ الغَيُّ وَالأَثَامُ؟

قال: «بئران فِيْ جَهَنَّمَ، فِيهِمَا صَدِيْدُ أَهْلِ النَّارِ»[2] والعياذ بالله من ذلك.

---

(١) الخلفة: الحامل من النوق.

(٢) (مجمع الزوائد) (١٠/٣٨٩) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

وقال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ هذا يكون في آخر الزمان، يتبعون شهواتهم ويُعرضون عن صلاتهم، حتى إنهم من كثرة شهوتهم يركب بعضهم بعضاً، وعلى الطرق والشوارع كالبهائم والأنعام.

الصلاة أهم الأعمال الشرعية

قال الله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥].

التلاوة تأتي على معنيين: فهناك التلاوة القولية، وهناك التلاوة الفعلية العملية.

فيقال: تلوت القرآن أو الكتاب يعني اتبعته.

ولقد جاء الأمر بالتلاوة قولاً وعملاً كما قال جلَّ وعلا: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اعمل بما جاء في القرآن من أوامر؛ ومن جملتها تلاوته قولاً، ثم خصص سبحانه ذكر الصلاة فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأنها أعظم الأوامر الإلٰهية وأشملها.

وجاء في (مسند) أبي يعلى[(١)]، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أَوَّلَ مَا افتَرَضَ اللهُ عَلَى النَّاسِ من دينهم الصَّلاةَ، وَآخِرُ مَا يَبْقَى الصَّلاةَ، وَأَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يومَ القِيَامَةِ الصَّلاةَ».

---

(١) (مجمع الزوائد) (١/٢٨٨) و(مسند) الإمام أبي يعلى /٤١٢٤/ عن سيدنا أنس ابن مالك رضي الله عنه.

الصلاة تكفر الخطايا والذنوب

لما روى الطبراني[1] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فإذا صَلَّيْتُمْ الصّبْحَ غَسَلَتْهَا» أي: تمحو آثار تلك الذنوب والخطايا الموجبة للاحتراق «ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فإذا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فإذا صَلَّيْتُمْ العَصْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُون تَحْتَرِقُونَ، فإذا صَلَّيْتُمْ المَغْرِبَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فإذا صَلَّيْتُمْ العِشَاءَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَنَامُونَ، فلاَ يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ حتى تستيقظوا».

ولذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يكره الكلام بعد العشاء إلا بخير، من قرآن أو حديث أو موعظة، وذلك حتى يختم الإنسان آخر صحيفة يومه بخير.

وجاء في الحديث[2] أنَّ هناك ملكاً ينادي عند كل صلاة «يَا بَنِيْ آدَمَ قُومُوا إِلَى نِيْرَانِكُمْ الَّتِيْ أَوْقَدتُمُوها فَأَطْفِئُوهَا» أي: أطفئوا نار ذنوبكم بنور صلاتكم، لأنَّ الصلاة نور كما جاء في الحديث: «وَالصَّلاَةُ نُورٌ»[3].

وإنَّ شأن النور أن يزيل الظلمات، وأن يُظهر الأمور، فَمَنْ دخل في الصلاة زج نفسه في النور، فتظهر له أمور كان يجهلها، ويرى أموراً كانت عنه خفية، وإذا قوِيَ هذا النور صاحب المصلي خارج صلاته.

---

(١) (مجمع الزوائد) (١/٢٩٩).

(٢) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (١/٢٩٩) عن سيدنا أنس بن مالك.

(٣) طرف من حديث رواه مسلم /٢٢٣/ وقد تقدم.

فمن وقع في حَيْرة الشكوك أو حيرة الكَرْب فعليه بالصلاة، فإنها نُور تهديه إلى أقوم الطرق، وترشده إلى ما فيه صلاحه.

ومن هنا شرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الاستخارة، وصلاة الحاجة، وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا كربه أمر قام إلى الصلاة، وإن للمؤمن أُسوةً حسنةً في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الصلاة معونة كبرى للإنسان على أمور دينه ودنياه

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [الآيات من سورة البقرة].

يُبين الله تعالى في هذه الآية أن في الصلاة معونة ربانية للعبد، فيجب أن يستعين بها في سائر أموره الدنيوية والأخروية.

أما الاستعانة بالصبر، فهي أنّ يستعين العبد بالصبر على أوامر الله تعالى في اجتناب ما نهى، وامتثال ما أمر.

كما أنه يستعين بالصبر على ما قَدَّر الله وقضى عليه مما يكره العبد أو يحب.

وقد يقال: في الصبر مرارة ومشقة، فكيف يستعين العبد بالصبر، أي: بالمشقة على مرارة ومشقة ؟

فلقد بَيّن سبحانه وجه المعونة بالصبر، وأن الإنسان في صبره تسهل أمامه المصاعب والمتاعب، وتنقلب مرارتها ومشقتها إلى لذة وحلاوة يجدها في قلبه، وما هذا إلا لأن الله تعالى بَيّن أن معيَّته الخاصة محيطة

بالصابرين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: فليعلموا وليوقنوا أن الله معهم في صبرهم، وليحتسبوا أجر صبرهم على الله تعالى، فيكون صبرهم لله وبالله، وتكون العاقبة لهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: باعتبار أنكم آمنتم فيجب عليكم أن تمتثلوا أمر الله، فهو يأمركم أن تستعينوا بالصبر في أموركم كلها: الدينية والدنيوية والأخروية.

وَمَنْ فعل ذلك فقد انضم إلى صفوف الصابرين الذين أحاطت بهم معية الله بالعناية والرعاية.

فالصلاة تحتاج إلى صبر في أدائها، والمحافظة على آدابها وسننها، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] أي: على الصلاة.

والزكاة تحتاج إلى صبر، لأنّ النفس تمانع في دفعها، والحج يحتاج إلى صبر، والجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر، وسائر العبادات كذلك قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: على سائر أموركم، لأنّ في الصبر لجوءاً إلى معية الله تعالى، وفي الصلاة يتوجه المصلي إلى الله تعالى، ويصير في كنف الله تعالى، فلا شك أَنَّ مَنْ هذا شأنه فإن الأمور كلها تسهل أمامه، والمصاعب كلها تهون عليه.

ولقد بين سبحانه أَنّ أعظم أمر يحتاج فيه العبد إلى الصبر هو الجهاد

في سبيل الله، ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ وفي هذا بيَّن سبحانه إلى أنَّ أعظم ما يحتاج العبد أن يستعين به بالصبر والصلاة هو الجهاد في سبيل الله، فالجهاد يحتاج إلى صبر، لأنّ فيه بذل النفس والنفيس، فليستعن المؤمن في ذلك بالصبر والصلاة.

أما الجهاد في سبيل الله فهو على أنواع: هناك جهاد في سبيل الله بالقلب والجنان، وهناك الجهاد باللسان، وهناك الجهاد بالسيف والقوة والسِّنان.

أما جهاد النفس: فهو الوقوف بها عند حدود الله تعالى من أوامر ومناهي، وفي مجاهدتها صعوبة على الإنسان، لكن الله أمره أن يستعين بالصبر والصلاة.

روى الترمذي(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ لله تَعَالَى» الحديث.

وروى البيهقي(٢) عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسل سرية، فلما رجعوا قال لهم عليه الصلاة والسلام: «مرحباً بكم، قدمتم منَ الجِهَاد الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ»

قالوا: ومَا الجِهَادُ الأَكْبَرُ يَارَسُول اللهِ ؟

قال: «جهاد النفس».

فلقد سمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جِهَادَ النَّفْسِ بِالجِهَادِ الأَكْبَرِ، لأَنَّ مُجَاهَدَةَ الأَعْدَاءِ أَمْرُهُ مُؤَقَّتٌ، وينقضي في زمن محدد حسب ما يقتضيه الأمر، أما النفس فما تنفك عن صاحبها، وهو مأمور أن يُجاهدها على الدوام.

---

(١) في أول كتاب الجهاد /١٦٢١/ (٥/٣٤٤) عن سيدنا فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

(٢) في كتاب (الزهد) كما في تخريج الإحياء للحافظ العراقي.

ولقد جاء في خطبته صلى الله عليه وآله وسلم يوم حجة الوداع: «سأخبركم منْ المسلم: **المُسْلِمُ**: مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وِيَدِهِ، **والْمُؤْمِنُ**: مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِم وأنفسهم، **وَالمُهَاجِرُ**: مَنْ هَجَرَ الخَطَايَا وَالذُّنُوبَ، **وَالمُجَاهِدُ**: مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ في طاعة الله تَعَالَى» الحديث[1].

ولقد ذكر سبحانه هذا النوع من الجهاد، وهو مجاهدة النفس في قوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

فلقد فهم بعضهم رضي الله عنهم من هذه الآية: جهاد النفس، لأن هذه الآية مكية، وما كان الجهاد بالسيف مفروضاً في مكة.

وهناك **الجهاد باللسان**: وهو مجاهدة أعداء الدين بإقامة الحجة والبرهان، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن وآياته وبراهينه ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] هذا لأنّ حجج القرآن وبراهينه حجج إلهية ربانية، لا تُرد ولا تُنقض.

وهناك **الجهاد بالقوة والسيف**: وهذا على الأمة دفاعاً عن الدين، ودفاعاً عن المسلمين وبلادهم.

أما الاستعانة بالصلاة على سائر الأمور الدنيوية والأخروية:

فمن تعسرت عليه أمور الدنيا: فليستعن عليها بإكثار الصلاة لله تعالى.

---

(١) كما في (المسند) للإمام أحمد (٦/٢١و٢٢) و(مجمع الزوائد) (٣/٢٦٨) عن سيدنا فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

ومن تقاعست هِمَّته عن الطاعات: فليستعن على ذلك بالصلاة لله تعالى.

ومن سولت له نفسه، ووسوس له شيطانه بارتكاب المخالفات: فليستعن على ذلك بإكثار الصلاة لله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فَمن أكثر الصلاة لله تعالى، حَفِظه الله تعالى عن الوقوع في المحرمات على قدر محافظته على الصلاة.

أما كون الصلاة تُعين الإنسان في المصاعب والمتاعب الدنيوية، فلقد ورد[(١)] عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّه كان إذا حَزَبه أمر قام إلى الصلاة. أي: إذا أهمه أمر من الأمور قام إلى الصلاة.

وأما أَنَّ الصلاة تعين الإنسان على الجهاد في سبيل الله، ومحاربة الأعداء، فلقد كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج للغزو أكثر من الصلاة لله تعالى.

ففي غزوة بدر لما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثرة المشركين، وقلة المسلمين، لجأ إلى مكان ـ وكان قد نُصِبَ له عريش ـ وراح يصلي صلى الله عليه وآله وسلم، ويستغيث بالله في سجوده، ويكثر من دعائه: «اللهم آتِنِيْ مَا وَعَدتَنِيْ»[(٢)] أي: من النصر والظفر «يَا حَيُّ يَا قَيُّوم».

---

(١) في المسند (٥/٣٨٨) وأبي داود /١٣١٩/ عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

(٢) طرف من الحديث الذي في (مسند) الإمام أحمد (١/٣٠) و(صحيح) مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر /١٧٦٣/ (١٨٤٧/٤) وغيرهما، عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. مع اختلاف في بعض اللفظ.

قال سيدنا علي رضي الله عنه: فانتظرته فلم يفرغ، ثم عدت إليه ثانياً رأيته ساجداً، يقول: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوم» وهكذا ثالثاً ورابعاً [1].

قال: حتى إذا فرغ من صلاته وقف عليه الصلاة والسلام وأبو بكر رضي الله عنه عن يمينه، وبيده السيف خشية أن يَغتال الأعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو: «اللهم أَنْجِزْ لِيْ مَا وَعَدتَنِيْ، اللهم إِنْ تَهْلِك هَذِهِ العِصَابَةَ» الطائفة المؤمنة «لاتُعْبَدَ فِي الأَرْضِ» وَلَمْ يَزَلْ صلى الله عليه وآله وسلم يَهْتِفُ بِرَبِّهِ وَيَسْتَغِيثُ بِرَبِّهِ حَتَى سَقَطَ رِدَاؤه عن كتفيه صلى الله عليه وآله وسلم.

فجاء أبو بكر رضي الله عنه ورد عليه رداءه وقال: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] أي: متتابعين، ألفاً بعد ألف بعد ألف، متوالية في المدد.

ونصر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأيَّدَه، وبَدَرَ بَدْرُ الإِسلاَم.

ولقد كانت سُنَة الأنبياء والمرسلين كلهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة:

فَمِن ذلك: أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام لما قدم أرض الجَبَّار، وكان هذا يغتصب النساء الحسان من أزواج الرجال، أما إذا كانت أخت رجل أو ابنته فلا يغتصبها، وكانت زوجة إبراهيم عليه السلام سارة ذات جمال ونضار، فقال لها: إنّ هاهنا جبَّاراً، إذا بلغه أنك زوجتي يأخذك، فإذا سألك فقولي: إنك أُختي في الإسلام، ولا يعلم أنّ في الأرض مسلماً غيري وغيرك.

---

(١) كما في (طبقات) ابن سعد (٢/٢٦).

ولما بلغ الجبار خبر سارة أرسل إليها وأخذها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت سارة على الملك أراد أن يمسها فَقُبِضَتْ يد الملك، فقال لها: ادعي الله أن يبسط إليَّ يدي ولا أمسك بسوء، فدعت الله فأطلق الله يده. وهكذا حاول ثانياً فلم يقدر أن يمسها، حتى قال الملك لجماعته: أنتم جئتموني بشيطان ولم تأتوني بإنسان.

ثم أمر بإخراجها، وأمر لها بهدية، وكانت هذه الهدية هي هاجر حتى تخدمها، فلما رجعت إلى إبراهيم عليه السلام، وكان يصلي، فلما فرغ قال لها: مَهْيا . أي: ماذا صار بالأمر.

فقالت: كفَّ الله يد الجبار، وأَخْدَمَنَا خادمة.

وقالت له: هذه هاجر هدية لك يا إبراهيم، فتزوجها إبراهيم عليه السلام وولدت منه إسماعيل عليه السلام.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: تلك أمكم يا بني ماء السماء[(١)] أي: يا معشر العرب. وسموا ببني ماء السماء، لأنّ معظم أعمالهم في الزراعة والماشية التي تعتمد على ماء السماء.

وهكذا قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] أي: أنكم إذا صبرتم فإنّ العاقبة لكم، وَمَنْ قُتِلَ منكم فليعلم أنه حَيٌّ عند الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤].

---

(١) كما في صحيح البخاري، في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء/١٦٥] /٣٣٥٨/ (٦/٣٨٨).

وروى الترمذي[1] أنَّه لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام، والد جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما يوم أحد، قال جابر رضي الله عنه: لقيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي: «يَا جَابِر ما لي أراك منكسراً»؟

قلت: يا رسول الله استشهد أبي، قُتل يوم أحد، وترك عيالاً وديناً.

قال ﷺ: «ألاَ أُبَشِّرُكَ بِمَا لقي الله به أباك»؟

قال: بلى يا رسول الله.

قال: «ما كلم الله تَعَالَى أَحَدَاً قط إلاَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وأحيىٰ أَبَاكَ فكَلَّمَهُ كِفَاحَاً، فَقَالَ: يَا عَبْدِيْ تَمَنَّ عَلَيَّ أعطيك.

قَالَ: يَارَبِّ تحييني فأُقْتَلَ فِيْكَ ثَانِيَةً.

فَقَالَ الرب تبارك وتعالى: إِنَّهُ قد سَبَقَ القَولُ مِنِّيْ أَنَّهُم إليها ﴿لَا يَرۡجِعُونَ﴾» قَالَ وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ولقد كان هذا طلب جميع شهداء أحد[2]، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لَمَّا أُصِيْبَ إِخْوَانُكُمْ يَومَ أُحُدٍ، جَعَلَ الله أَرْوَاحَهُمْ فِيْ جَوفِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الجَنَّة، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِيْ إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِيْ ظِلِّ العَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيْبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَحسن منقلبهم» أي: راحتهم «قَالُوا: مَنْ يبلغ إِخْوَانَنَا عنا أنا أَحْيَاءٌ فِيْ الجَنَّةِ نُرزَقُ، لِئَلاَ يَزْهَدُوا فِيْ الجهاد، وَلاَ يَنْكِلُوا عِنْدَ الحَرْبِ ؟

---

(١) في كتاب التفسير /٣٠١٣/ (١٨٧/٨) وينظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي.

(٢) كما في (مسند) الإمام أحمد (٢٦٦/١)، و(سنن) أبي داود في كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة /٢٥٢٠/ (٣٢/٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والترمذي في التفسير /٣٠١٤/ عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

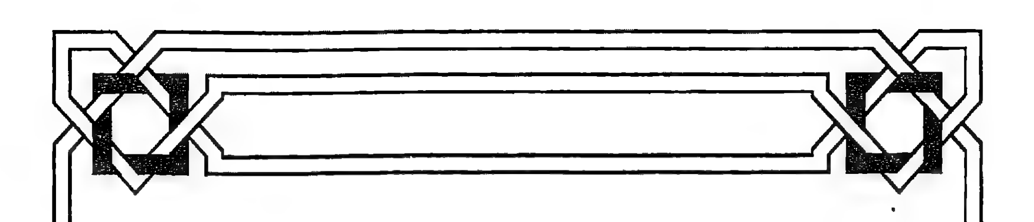
فقَالَ الله تعَالى: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُم، وأَنْزَلَ قَولَه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟...﴾» الآية.

وكفى بالجنة نعيماً أنها جوار الرحمن وسقف الجنة عرش الرحمن، والجار مقدم على الدار، كما قال تعالى مخبراً عن امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية [التحريم: ١١]. فطلبت الجوار قبل الدار.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

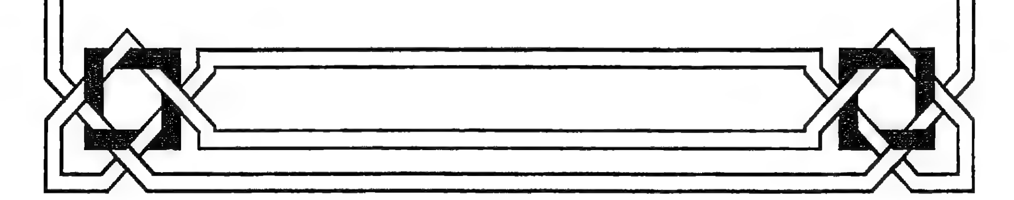


جملة

محاضرات حول

التذكير

ببعض أسرار الصيام



لقد فرض الله تعالى الصيام على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، التي هي أفضل الأمم، لأنه أرسل فيها أفضل الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فرض عليها أن تصوم أفضل شهر وهو شهر رمضان.

وقد خصَّها سبحانه بهذا الشهر دون غيرها من الأمم لأنه أفضل الشهور عند الله تعالى، فلقد كان صيام الأمم السابقة في غير هذا الشهر.

كما أنه سبحانه أنزل في هذا الشهر أفضل كلام إلٰهي وهو القرآن العظيم، في أفضل ليلة من هذا الشهر وهي ليلة القدر، وجعل لهذه الليلة المقدار والفضل على غيرها من الليالي، وجعل العمل الصالح فيها أفضل من العمل في ألف شهر.

كما قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: بل هي خير وأفضل.

وهذا من رحمة الله تعالى بهذه الأمة.

فقد اقتضت حكمته جلَّ وعلا أن تكون أعمار هذه الأمة أقصر من أعمار الأمم السابقة، فخص سبحانه هذه الأمة بمواسم للعبادة تتضاعف فيها الأجور والثواب، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أَفْطَرَ يَوماً مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ رُخْصَةٍ ولاَ مرَضٍ؛ لَمْ يَقْضِهِ صَومُ الدَّهروإن صامه»[1].

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصوم، باب التغليظ في من أفطر عمداً /٢٣٩٦/ (٧٨٩/٢)، والترمذي /٧٢٣/ (٧٤/٣)، وابن ماجه/ ١٦٧٢/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

يعني: أن الصيام في هذا الشهر مضاعفُ الأجر والثواب لفضل هذا الشهر على غيره، فمن ترك صيام يوم منه بدون عذر شرعي ثم قضاه فقد سقط عنه الفرض، لكنه لا ينال ذلك الثواب والأجر المضاعف فيما لو صام في رمضان.

وكثيراً ما خصَّ الله تعالى هذه الأمة بفضائل بواسطة نبيها صلى الله عليه وآله وسلم.

ونظير هذا ما روى الترمذي وابن ماجه، وغيرهما[1]، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ صَلَّى بَعْدَ المَغْرِبِ سِتَّ رَكَعَاتٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِيْنَهُنَّ بِسُوءٍ: عُدِلْنَ بِعِبَادَةِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً».

أي: لو أَنَّ عابداً من الأمم السابقة عَبَدَ الله تعالى اثنتي عشرة سنة، وعابداً من الأمة المحمدية صلى بعد المغرب ستَّ ركعات لم يتكلم بينهن بسوء، لعَادَلَتْ عِبَادَةَ ذَلِكَ العابِدِ عِبَادَةَ هَذَا المحمدي.

وهكذا العبادة في ليلة القدر تزيد في فضلها وثوابها على العبادة في ألف شهر.

فإن شهر رمضان موسم للعباد يتجلى الله فيه عليهم بالمغفرةومن حُرم ذلك فقد فاته خير كثير كما جاء في الحديث: «بَعُدَ مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَر له»[2].

---

(١) الترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في التطوع وست ركعات بعد المغرب /٤٣٥/ (١٥٧/٢) ابن ماجه /١٣٤٧/ ابن خزيمة (٢٠٧/٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه الحاكم في المستدرك (١٥٣/٤) عن سيدنا كعب بن عجرة رضي الله عنه، ولهذا الحديث روايات متعددة انظرها في (كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم) لفضية الشيخ الإمام رحمه الله تعالى.

وأما أجر الصيام، فقد جاء في الحديث القدسي: «الصَّوْمُ لِيْ وَأَنَا أَجْزِيْ بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي» الحديث[1].

أي: إن ثواب الصائم ومقدار جزائه عند الله تعالى لا تعرف الملائكة حَدّه، ولم تُحط به علماً.

فالملائكة قد يعلمون مقدار ما للعبد من ثواب من تسبيحه، أو تحميده، أو صلواته وهكذا. أما من جهة الصيام فهم لا يعلمون ذلك، لأن التسبيح والتحميد والصلاة وغيرها أمور تعبدية، وقربات إلى الله تعالى هم أيضاً يعملون بها، ويتذوقونها، ويتحققون بها، أما الصيام الإنساني بترك الطعام والشراب الذي هو مقتضى طبيعة الإنسان الجسمانية فهذا أمر ما ذاقته الملائكة، لأنهم لا يأكلون ولا يشربون. بحكم نشأتهم التي فطرهم الله عليها.

فالملائكة عليهم السلام ما ذاقوا صيام بني آدم، وما يقاسيه من مخالفة النفس، وكبح جماحها بترك الطعام والشراب والشهوة، فلذلك لا يعلمون ثواب هذا الصائم وجزاءه، فما جزاؤه وثوابه إلا أمر مفوض إلى الله سبحانه.

وكم لهذا الأمر من نظائر لا تعلم الملائكة حقيقة ثواب العاملين عليها.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

يُبين الله تعالى أَنَّ فرضية الصيام موجودة في كل الشرائع، وواجبة

---

(١) طرف من الحديث الذي رواه الإمام مسلم في كتاب الصيام، باب حفظ اللسان للصائم /١١٥١/ (١١٦٨/٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وينظر (الفتح) (١٠٣/٤).

على سائر الأمم، فكما فَرَضَ على هذه الأمة الصيام فرضه على جميع الأمم التي قبلها، إلا أنَّ هذه الأمة المحمدية خُصِّت بصيام شهر رمضان، لأنّه أفضل الأشهر، فحق أن يكون لأفضل الأنبياء وأفضل الأمم.

كما أنّ الصيام الذي جاءت به الشرائع السابقة يختلف عن صيام هذه الأمة بالمقادير والأوقات كما اختلفت أوقات الصلاة وكيفيتها، ومقدار الزكاة وكميتها، كما اقتضت الحكمة الإلّهية.

فقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: أنّ الصيام هو من مُوجبات الإيمان بالله تعالى، فباعتبار أنكم آمنتم بالله فيجب عليكم أن تصوموا، فالصيام واجب الإيمان بالله تعالى.

ووجه هذا الوجوب والإلزام هو: أنَّ الله تعالى قد عاهد المؤمنين، واشترى منهم أنفسهم وأموالهم، وهم باعوها لله تعالى على أن يُقدموا نفوسهم وأموالهم لله تعالى، والله تعالى يُعطيهم في مقابل ذلك الجنة، فالإيمان عهد بين المؤمن وربه، على أنْ يسلِّمَ نفسه لله تعالى.

فنفس المؤمن وماله وجسمه وكله لله تعالى، قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ثُم بين الله تعالى صفة المبايعين المعاهدين لله تعالى، فهم تحت مراد الله تعالى، فإذا اقتضى منهم الجهاد سارعوا إليه بأموالهم وأنفسهم، وإذا اقتضى منهم الصلاة بادروا إليها، وهكذا سائر ما يتطلبه منهم إيمانهم بالله

وعهدهم معه، فقال الله تعالى مبيناً حقوق البيعة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

فهذه حقوق المعاهدة، وواجبات البيعة، بأن يتوبوا إلى الله تعالى، فتابوا ورجعوا إلى الله، وتركوا ما سوى الله تعالى.

﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ المتضرعون المنيبون إلى الله ظاهراً وباطناً.

﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله على السراء والضراء رضاً بما قضى وقدَّر.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ قال جمهور السلف رضي الله عنهم كابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم: الصائمون[1]، وورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنَّ سياحة هذه الأمة الصيام[2].

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون شهر رمضان[3].

وقد جاء في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره[4]، عنه عليه الصلاة والسلام قال: «﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ هم الصائمون».

---

(١) كما في تفسير ابن جرير، وعزاه في (الدر المنثور) إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم وغيرهم.

(٢) كما في تفسير ابن جرير.

(٣) كما في (الدر المنثور).

(٤) عزاه في (الدر المنثور) (٤/٢٩٨) إلى ابن مردويه، وابن النجار، وأبي الشيخ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي سند آخر[1]، سأل رجل النبي عليه الصلاة والسلام عن: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾؟ فقال: «هم الصَّائِمُونَ».

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٤ـ٥] فالمراد هنا بالسائحات: الصائمات.

وإنما سميَّ الصوم سياحةً لأنّ فيه مفارقة المألوفات والعادات، بهجران المأكولات والمشتهيات مِنْ مَشرب ومنكح.

ففي الصوم تسيح النفس عن هذه الأمور، وتترك الروح مألوفات الجسم وقيوده وروابطه، وفي هذا سياحة إلى الله عن الأجساد.

وهكذا فلما سمع المؤمنون بهذه البيعة الإلهية والمعاقدة الربانية، وعلموا أن الله لا يُخلف وعده، تقدموا للمبايعة، بأن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. الذي هو الواسطة الكبرى عن الله، والذي أخذ منهم المعاهدة عن الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

فالإيمان عهد بين العبد المؤمن وربه، بأن يُسلم نفسه وماله لله تعالى، والله يتصرف به كما أراد، ويحكم فيه كما يشاء من أمر ونهي.

---

(١) كما في (الدر المنثور) (٢٩٧/٤) عن سيدنا عبيد بن عمير وسيدنا أبي هريرة رضي الله عنهما.

فالمؤمن ليس لنفسه إنما هو لله تعالى، يعني: ليس له أن يتبع هوى نفسه، بل عليه أن يتبع أوامر ربه جلَّ وعلاَ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: لأنكم لما آمنتم عاهدتم الله بأن تُسلموا أنفسكم وأموالكم له، فالله تعالى يأمركم أن تصوموا لأن أجسادكم ليست لكم بل هي لربكم، فما صيامكم إلا بمقتضى إيمانكم بالله تعالى.

ومن وجه آخر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بصفة أنكم مؤمنون يجب عليكم أن تصوموا، إذ لا تتحققون بصفة الإيمان إلا إذا كان حبكم لله فوق كل محبة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فهم يحبون الله فوق كل محبوب ومرغوب، كالمال والولد والطعام والشراب.

فناداهم سبحانه بما يقتضي منهم أنهم مؤمنون، فيجب عليهم أن يَتخلّوا عن محبوباتهم، ويتركوا شهوات أنفسهم من طعام وشراب ومناكح، تحقيقاً لصفة الإيمان التي فيهم، والتي تقتضي منهم أن يكون الله هو محبوبهم الأعظم وفوق كل محبوب.

فمن كان صادقاً في محبة الله، وَجَب عليه أن ينتهي عن شهوات النفس ومرغوباتها، بأن يصوم لله تعالى، وفيه برهان على صدق إيمانهم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

فمن لم يصم وأكل وشرب فقد قَدَّمَ حُبَّ الطعام والشراب على حبه لله تعالى.

وفي الصيام تشبّهٌ بالملائكة، وترفُّعٌ عن دنس النفس وأهوائها وشهواتها.

قوله جل وعلا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فيه بيان لحكمة الصيام، كما أن في صدر الآية بيان سبب وجوب الصيام.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يعني: أنكم بصيامكم تنالون مقام التقوى على اختلاف مراتبها. ولما كانت التقوى على مراتب كان الصيام على مراتب.

فهناك التقوى عن المعاصي والمحرمات، وهناك التقوى عن المباحات والشهوات، وهناك التقوى عن ما سوى الله تعالى، والصيامُ سبب موصل إلى مراتب التقوى كلها.

فهناك الصيام عن الطعام والشراب والمنكح، وأعلى منه صيام بقية الجوارح، كصيام الأذن عن أن تسمع ما لا يرضي الله تعالى، وصيام العين عن أن تنظر إلى مالا يرضي الله تعالى. وصيام اللسان عن التكلم بما لا يرضي الله تعالى. وهكذا الجوارح، وهناك صيام القلب عن ما سوى الله تعالى.

فكل نوع يوصل صاحبه إلى مرتبة من مراتب التقوى.

ولهذا جاء في الحديث[1]: «والصِّيَامُ جُنَّةٌ» أي: وقاية.

إذ أن الإنسان لَمَّا يخوض معركة مع الأعداء لابد له من وقايات تمنعه من ضربات الأعداء، وذلك بالتدرع بالمِجَنّ.

ولما كان المؤمن سائراً إلى الله على الصراط المستقيم، فلا بد في سيره أن تعتريه الأهواء والوساوس الشيطانية، فإذا لم يتخذ له مِجَنّاً ووقاية فإنه سيضل الطريق وينقطع به.

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شُتِمَ /١٩٠٤/ (٤/١١٨)، ومسلم /١١٥١/ (١١٦٨/٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر (الترغيب) أول كتاب الصوم.

فما هذه الجُنَّةُ إلا الصيام. كما أخبر عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه البخاري وغيره[(١)] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «والصيام جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ يَومُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ» أي: بالأقوال «وَلاَ يَجْهَل» أي: بالأعمال «فَإِنْ سَابَّهُ أحد أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امرؤٌ صَائِمٌ. وَالَّذِيْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ رِيْحِ المِسْكِ، للصائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ».

ولقد روى ابن ماجه وغيره[(٢)]، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ للْصَائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لـدَعْوَةً لاَ تُرَدُّ».

قال أبي مُليكة: فكان عبد الله بن عمرو بن العاص إذا أفطر قال: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي ذنوبي.

وأما صوم القلوب عما سوى الله تعالى فهو شأن المؤمنين الكاملين رضي الله عنهم، فإذا دخل شهر رمضان صامت قلوبهم إلا عن الله تعالى.

وإنما صامت قلوبهم عن غير الله تعالى حتى لا يزاحم أحد في قلوبهم الله تعالى، إذ أنهم سمعوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في الحديث «وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين»[(٣)].

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذاشتم /١٩٠٤/ (٤/١١٨)، ومسلم /١١٥١/ (٣/١١٦٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر (الترغيب) أول كتاب الصوم.

(٢) الحديث في (سنن) ابن ماجه كتاب الصيام /١٧٥٣/ (١/٥٥٧)، والحاكم في (المستدرك) (١/٤٢٢).

(٣) تمام الحديث: «إن لله تعالى آنية من أهل الأرض» عزاه في (الفتح الكبير) إلى الطبراني.

فسارعوا إلى التحقق بهذا.

فقد عرف قلب المؤمن من الله، من صفاته وكمالاته، مالا تعرفه السماء والأرض.

واعلم أن تقوى الجوارح والأعضاء محدودة، فتقوى الرِجل ألا تمشي إلى معصية الله، وتقوى اليد ألا تؤذي ولا تبطش فيما لا يرضى الله وهكذا.

أما تقوى القلب بأن يتقي غير الله تعالى، بأن لا يسكن ولا يتمكن في قلبه غير الله تعالى، ودليل تحقق المؤمن بتقوى القلب عما سوى الله تعالى أنه يعظم شعائر الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

فهذا القلب لما امتلأ بمعرفة الله وعظمته وحبه، صار يُعظم كل شعيرة وعلامة دالةٍ على الله وهي معالم دين الله تعالى، كالمساجد والمواضع المباركة، وعلماء الشريعة لأنهم من شعائر الله تعالى. ولا يُعظم شعائر الله إلا من كان في قلبه تقوى الله تعالى.

وإذا تحقق المؤمن بهذا ذلَّ قلبه وخشع لله، وَمَنْ خشع قلبه لله وانكسر لعظمته فإن الله عند قلبه.

كما قال سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام: يارب أين أجدك؟

قال يا موسى: أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي(١).

ولهذا لَمّا تَدْخُلُ على أحد من أحباب الله تعالى تقول: ذهبنا إلى فلان وليس عنده إلا الله تعالى.

---

(١) ينظر: (كشف الخفاء).

ومن هذا لَمَّا كان حال المؤمن المريض الرجوع إلى الله تعالى، والتضرع إليه سبحانه وتعالى، فمن زاره وعاده في مرضه وجد الله عنده.

كما جاء في (صحيح) مسلم[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن اللهَ عز وجل يَقُولُ يوم القيامة: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي.

قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِين؟

قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟

يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي.

قَالَ: يَا رَبِّ وكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أنه اسْتَطْعَمَكَ عبدي فلان فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»؟ أي: ثواب إطعامك له.

«يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي.

قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عبدي فلان فَلَمْ تَسْقِهِ؟ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي».

وكذلك فإن العبد المؤمن التائب، الذي انكسر قلبه لله تعالى، وخضع لعظمته، معترفاً بذنبه، مستغفراً منه، فإن هذا القلب المنكسر المستغفر المستعفي تجد الله تعالى عنده.

---

(١) في كتاب البر والصلة والأداب، باب فضل عيادة المريض /٢٥٦٩/ (٢٥١٧/٥).

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ أي: كبيرة ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ أي: بارتكاب الصغائر ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي: تائباً إلى الله، فإذا وجدك مستغفراً حقاً وجدته ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٦٤].

ولما كان في الإنسان القوة الحيوانية، والقوة المَلَكية، جاءت الشرائع تأمره أن يُلطِّفَ ويقلل من قواه الحيوانية البهيمية، وينهض بالقوة الملكية الروحية، فجاء الصيام يُعالج القوة الحيوانية البهيمية الشهوانية، حتى لا تَطغىٰ على القوة الروحية الملكية، فتكون الغلبة للقوة الملكية الروحية، ويتشبه بالملائكة عليهم السلام.

ومن هنا تجد اختلاف مقادير وكميات الصيام حسب الأمم وشرائعهم، فإن قوم نوح عليه السلام كانوا أصحاب أجسامٍ قوية، يعمرُ أحدهم أكثر من ألف سنة.

فإن مثل هؤلاء القوم لا يكفيهم من علاج الصيام أن يصوموا شهراً من السنة، ولذا اقتضت حكمة الله تعالى بأن يشرع لهم صيام الدهر كله، لإضعاف قواهم الحيوانية، وتقوية القوىٰ الملكية فيهم.

وأما هذه الأمة المحمدية عليه الصلاة والسلام، فإنها ضعيفة أجسامها وأبدانها بالنسبة للأمم السابقة، فَعِلاجها أنه يكفيها صيام شهر من السنة، وليس من الحكمة صوم أقل من شهر.

أما إذا قال قائل: إذا كان المقصود من الصيام كسر شوكة النفس، وكسر القوى الحيوانية، وتنشيط القوى الروحية الملكية، فَلِمَ لم يترك الشارع اختيار وقت وكمية الصوم لنا؟

فاعلم أن الشارع لو ترك الصيام لأهواء النفوس وأفكارهم، من حيث الأوقات والكميات، لاختل النظام، وانفتح عندئذٍ باب المعاذير الباطلة، مما يؤدي إلى ترك هذا الأمر والفوضى في تطبيقه.

ففي عمومية الصوم على جميع المسلمين في وقت واحد يُسر وسهولة على النفس، وعونٌ لها على امتثال الأمر.

وأما قولك: إن هذه القوة الحيوانية تنكسر في أقل من شهر.

فيقال: إنّ خالق الشيء هو أعلم بالشيء، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] فإنّ أقل من شهر يقال له: حِمْيَةٌ.

وأما قولك: لِمَ نصوم النهار كله؟ ولا نصوم نصفه مثلاً؟

فاعلم أنّ صومك نصف النهار يُعتبر جوعاً بالجملة، وليس هو صوماً كاسراً لشهوة النفس، فإنّ الإنسان قد يكون في أعماله وما يأكل حتى المساء.

ولقد شرع الله تعالى أن نصوم في وقت، ونفطر في وقت، على وجه مخالف لعادة الإنسانية حتى يبين في ذلك وجه التكاليف والانقياد لأمره سبحانه وتعالى.

وعلى هذا فإن الملائكة يجالسون الصائمين ويَشَمُّون رائحتهم، لأن هذه الرائحة من فم الصائم وإن كانت كريهة بالظاهر، ولكنها عند الله وملائكته أطيب من ريح المسك، ولو كُشِفَ لك هذا الحجاب الجسماني وشممت ريح الصائم لوجدته أطيب من ريح المسك، ولكن هذا لا يُشَمّ بالأنف؛ بل بالقلب والروح، كما قال الله تعالى إخباراً عن يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو في بيت المقدس، عندما شمَّ ريح يوسف وهو في مصر: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤] فلو كان شَمَّهُ بالأنف لشم من حوله معه ريح يوسف، ولكنه شَمم بالقلب.

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يَشمون رائحة الجنة عندما يخوضون المعارك والغزوات في سبيل الله تعالى.

ومن هذا[1] ما جاء عن أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنهما، لما فاتته غزوة بدر حَزن على نفسه، وقال: لئن أبقاني الله ـ أي: إلى غزوة ثانية ـ لأُرِيَّنَ الله ورسوله ـ أي: عملاً وجهاداً عظيماً في سبيل الله ـ فلما حضرت غزوة أحد استعد لها، وذهب ناحية جبل أحد، فقال له ابن أخيه أنس بن مالك رضي الله عنه: ياعم إلى أين تذهب؟ فقال: إني أشم رائحة الجنة من جبل أحد. وراح وقاتل وطُعِنَ بضعاً وثمانين طعنة في جسمه حتى استشهد رضي الله عنه.

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ...﴾ الآية [الأحزاب: ٢٣].

ولقد كان الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه يشم الأولياء، فيعرف مقام كل واحد منهم.

* * * * *

---

(١) الخبر عند البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب قوله الله عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾ الآية /٢٨٠٥/ (٦/٢١)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد /١٩٠٣/ (٤/١٩٨٥).

الصيام سبب عظيم لتقوية الروح وصفاء القلب

لقد جاء في الحديث الذي رواه النسائي[1] عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلتُ: يَا رَسُولَ الله مُرْنِي بِأَمْرٍ ينفعني الله به.

فَقَالَ عليه الصلاة والسلام: «عَلَيكَ بِالصَوم فَإِنَّهُ لاَمِثْل لَهُ» أي: لا مثل له في جلاء القلوب، وتنشيط الأرواح وترفعها.

ولذلك جاء في (لسان العرب): أن الصيام يطلق على الارتفاع، كما قال قائلهم: حتى إذا صام النهار وهجَّرا. أي: ارتفع النهار.

فالصيام فيه معنى الإمساك، وفيه معنى الترفع، إذ فيه ترفع عن دنس النفس وأهوائها، بحيث يجعل صاحبه مع صفوف الملائكة، ولقد جعل الله تعالى شهر الصوم هو شهر رمضان لأنه أفضل الأشهر.

ولما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الأنبياء، وهذه الشريعة المحمدية أفضل الشرائع الإلهية، وهذه الأمة هي خير أمة أخرجت للناس، جعل الله صيامها في أفضل الأشهر، فقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وهو من الرَّمَض، أي: شدة الحر.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أُنزل فيه القرآن بصفة أنه قرآن يقرأ، ولم يقل أنزل فيه الكتاب. أو الفرقان.

ومن هنا يعلم العاقل: أن الآية فيها تنبيه إلى الإكثار من قراءة القرآن في هذا الشهر أكثر من غيره من الأشهر.

---

(١) (٤/١٦٥).

وقد نزل القرآن بصفته يُقرأ في ليلة القدر من شهر رمضان على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أما من حيث كونه كتاباً فرقاناً، فقد أنزل في ليلة التقدير المشار إليها بقوله* تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

ومن هنا يُعلم أن ليلة القدر ليلتان: فهناك ليلة القدر أي: المقدار والفضل المشار إليها بقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٢].

وهناك ليلة قدر، أي: ليلة التقدير المشار إليها بقوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ١ـ٤].

وهذه الليلة قد تكون في رمضان وقد تكون في نصف شعبان، وقد تكون في سائر السنة، إلا أن الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن اجتمعت فيها الليلتان، فكانت تلك الليلة: ليلة القدر والفضل، وليلة التقدير أيضاً، ولهذا وصفها الله تعالى بالوصفين: بالمقدار والفضل ووصفها بالتقدير أي: بالمحو والإثبات.

* * * * *

نـزول القـرآن الكريم

اعلم أن الله تعالى أنزل جميع الكتب السماوية على المرسلين عليهم الصلاة والسلام في شهر رمضان.

فقد جاء في (المسند) وغيره[1]، عنه عليه الصلاة والسلام أنه سبحانه أنزل الصحف على إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من شهر رمضان، وأنزل التوراة على موسى عليه السلام في ستٍ من شهر رمضان، وأنزل الإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام في ثلاث عشر خلت من رمضان، وأنزل هذا القرآن الكريم لأربع وعشرين خلت من رمضان.

أما عن تنزل القرآن، فهناك تنزل كتابي، وهناك تنزل تلاوي قرآني؛ بصفة أنه قرآن يُقرأ.

أما التنزيل الكتابي، فقد كتبه الله عنده في أم الكتاب، كما قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ١ـ٣] فأخبر سبحانه أن هذا القرآن نزل في ليلة هي ليلة التقدير.

أما نزوله إلى أم الكتاب فقد أشار إلى هذا بقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ﴾

---

(١) (المسند) (٤/١٠٧) عن سيدنا واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، وانظر (مجمع الزوائد) (١/١٩٧) و(الدر المنثور) للحافظ السيوطي (١/٤٥٦) فقد عزاه إلى ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في (الشعب) وغيرهم.

أي: هذا القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١ـ٤] فأخبر تعالى أن هذا القرآن موجود ومكتوب في أم الكتاب.

كما أخبر أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ـ٢٢].

فأول ما نزل القرآن إلى أم الكتاب واللوح المحفوظ، كما أخبر الله تعالى بأنه كَتب جميع الأشياء التكوينية والتشريعية في أم الكتاب.

ثم نزل هذا القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة في ليلة القدر في شهر رمضان، وبيت العزة هو قبلة أهل السماء الأولى.

وعند نزول القرآن إلى السماء الأولى مرَّ على جميع أهل السماوات السبع، وذلك حتى يُطلع الله تعالى على هذا القرآن الكريم ملائكته الذين هم في السماوات السبع، ويكون لهم علم به، وَيكتب في صحيفة كل ملك ما أمره الله تعالى به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ـ١٦].

فكل مَلك كُتب في صحيفته من القرآن ما أمره الله تعالى به، وكلٌّ يتقرب إلى الله تعالى بما في صحيفته.

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يأمر أصحابه بكتابة الآيات التي تنزل عليه، فور انقضاء الوحي عنه صلى الله عليه وآله وسلم، فكان كل صحابي عنده من القرآن ما أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكتبه في الصحف قال الله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢].

أما التنزل القرآني بصفته قرآناً يُقرأ، فقد ابتدأ نزوله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً في ليلة القدر من شهر رمضان، بواسطة جبريل عليه السلام، آخذاً عن حضرة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

واستمر نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تدريجياً في مدة ثلاث وعشرين سنة.

أما تلك الليلة التي نزل فيها القرآن فتسمى ليلة القدر، **وليلة القدر ليلتان:**

هناك ليلة القدر بمعنى المقدار والفضل، أشار إليها بقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي: ليلة المقدار والفضل على غيرها من الليالي، بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١ـ٢].

وهذه الليلة لا تكون إلا في رمضان، وفي العشر الأخير منه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «الْتَمِسُوْهَا فِي العَشْرِ الأواخر»[(١)].

وهناك ليلة القدر بمعنى التقدير، فقد تكون في رمضان، وقد تكون ليلة النصف من شعبان، وقد تكون في سائر الليالي، وقد أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ [الدخان: ١ـ٥].

---

(١) البخاري في كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السَّبْع الأواخر /٢٠١٦/ (٤/٢٥٦) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر /١١٦٥/ (٣/١١٨٣) عن سيدنا عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما.

ففي ليلة التقدير تُفْرَق الأمور عن الأصل الذي هو اللوح المحفوظ، فتفرق عنه طائفة من الأحكام يريد الله تعالى تنفيذها في تلك السنة.

وهذا المعنى في ليلة التقدير، ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن كثير من السلف رضي الله عنهم.

وقال بعضهم: إن المراد من قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] الأمر الحكيم هو الأمر المحكم تنزيله، وهي الآيات القرآنية المحكمة، التي نزلت تدريجياً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وهذا المعنى المشار إليه يدل عليه سياق الآيات، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٥-٦].

أما ليلة القدر بمعنى المقدار والفضل، فلها من الخصائص أنها في فضلها وعظمتها والعمل فيها خير ـ أي: أكثر ـ من العمل والأجر في ألف شهر.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ فالأرواح العالية والملائكة تباشر الأرض، وتخالط أهل الأرض، فينال المؤمنون من أهل الأرض ما ينالهم من الخير والرحمة، يعني: أن عالم الملكوت يتصل بعالم المُلك.

والمراد من الروح هنا: الأروح العالية وأعظمهم جبريل عليه السلام.

حتى قال بعضهم: إن أرواح المؤمنين تتنزل لزيارة إخوانهم المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: بالتدرج، فتنزلِ طائفة ثم تصعد، وتنزل أخرى، وهكذا إلى طلوع الفجر، وينزل فيها جبريل عليه السلام

ومعه سبعون ألف ملك من عالم سدرة المنتهى، ومعهم ألوية نورانية، فيضعون لواءً فوق الكعبة، ولواءً فوق قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولواءً عند بيت المقدس ـ أُوْلَىٰ القبلتين ـ ولواءً في مسجد طور سيناء، ثم يأتي الملائكة إلى بيوتات ومواطن المؤمنين حيث كانوا، وتسلم عليهم وتبارك عليهم.

ويوحي الله تعالى إلى جبريل عليه السلام أن يقسم في تلك الليلة ما ينزل من رحمة الله تعالى، فيقسمها على الأحياء، ثم يبقى منها، فيأمره الله تعالى أن يقسمها على الأموات المؤمنين ويبقى هناك رحمات كثيرة[1].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: لتنفيذ كل أمر أمرهم الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] وتنزل ملائكة التنفيذ حتى تُعِدَّ العدة، وتضع الأهلية، والقابلية حتى إذا جاء وقت تنفيذه نفذوه مباشرة.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ أي: أمان، وتسليم من الملائكة على المؤمنين.

واعلم أن تلك الليلة التي نزل فيها القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، جمعت ليلة القدر بمعنى المقدار والفضل، وليلة القدر بمعنى التقدير، ولهذا وصفها الله تعالى بالقدر، أي: بالفضل، ووصفها أيضاً بأنها ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] أي: بالتقدير.

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(١) انظر تفسير العلامة الآلوسي عند تفسيره لهذه الآية الكريمة.

والمعنى: أن هذا القرآن يُبين لك الحق، ويدفع عنك الباطل، ويفرِّق بين الحق والباطل بالأدلة والبراهين، فهو يأتي بالبينة والدليل على أن الذي أخبر به القرآن هو الحق، وما سواه باطل، ثم يفرِّق لك بين ما أخبر به وبين ما جاء به غيره، ويُثبت أن الباطل هو ما خالف هذا القرآن وخبرَه.

ومن ذلك: فقد هدى القرآن إلى وحدانية الله وتوحيده، فقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] ففي هذا هديٌ للتوحيد.

ثم بَيّن الدليل والبرهان على هذا الهدي إلى الوحدانية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] مشيراً إلى أن تدبير هذا العالم لابد له من خالق وهو الله سبحانه وتعالى.

ثم بَيَّن الفرقان أنه لا يمكن أن يكون هذا الخالق أكثر من واحد فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وأنت لا ترى في العالم اختلافاً؛ بل تراه بانتظام، مما يدل على أن الإلٓه واحد.

فهداك سبحانه إلى التوحيد، وأقام الدليل عليه، ثم أتاك بالفرقان بأنه لو كان الأمر غير ذلك لكان عبثاً وفساداً.

ومن ذلك أيضاً: أنَّ الله تعالى أخبر أنه لابد من القيامة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [غافر: ٥٩]. فهذا هديٌ إلى إثباتها.

ثم أتى بالدليل والبرهان على أن إقامة الساعة أمر لابد منه، وأنَّ الله تعالى قادر على ذلك، فقال جلَّ وعلاَ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

فبين سبحانه أن آيات البعث والحشر مرئية للإنسان، فالله تعالى دائماً يبعث الأشجار من بطون الأرض ويحشر الزروع أيضاً من بطون الأرض، وما حَشْرُ الإنسان إلا مثل هذا، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

ثم جاء بالفرقان على أنه لو لم يكن هناك حشر وبعث لكان أمر العالم عبثاً وباطلاً، إذ يتساوى الظالم مع المظلوم، والمُحِقّ مع المبطل، والمحسن مع المسيء وهكذا. لكن الله منزه في حكمته عن ذلك فقال جلَّ وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

عبثاً: أي بلا سؤال ولا حساب ولا تكليف، فتعالى الله الملك الحق.

وهكذا فالقرآن هدىً للناس، ففيه الهديُ إلى أقوم الطرق، في جميع الأمور الدنيوية والأخروية، [وانظر تفصيل ذلك في كتاب: هدي القرآن إلى الحجة والبرهان، لفضيلة سيدي الشيخ الإمام رضي الله عنه].

* * * * *

الحِكَمُ في نزول القرآن الكريم منجماً

اعلم أَوّلاً أنّ للقرآن تنزلات ثلاثة من حيث الجملة، فنزل أولاً إلى اللوح المحفوظ، ثم أنزله سبحانه من اللوح المحفوظ إلى السماوات سماءً بعد سماء، حتى بلغ السماء الدنيا، ونزل إلى بيت العزة الذي هو قبلة أهل السماءالدنيا، ثم بعد ذلك بدأ ينزل تدريجياً على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ذكر سبحانه هذه التنزلات الثلاثة في كثير من الآيات على حسب المناسبات.

أما نزوله إلى اللوح، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ـ٢٢].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٣ـ٤].

ثم نزل إلى السماوات لبيان علو شأنه وعظمة أمره ولتتقرب الملائكة إلى الله تعالى بتلاوته حتى نزل إلى بيت العزة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنزل الله تعالى القرآن جملة إلى السماء الدنيا إلى بيت العزة.

في هذا قال الله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ـ١٦].

ولما نزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وصار قريباً من عالم الدنيا، أشرق إليه قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وانعكست

أنوار هذا القرآن في فؤاده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، فراح صلى الله عليه وآله وسلم يتشوق ويتطلع إلى نزوله، ولهذا كان كثيراً ما ينظر إلى السماء ابتغاء أن تنزل آية، أو ينزل الحكم أو الفصل، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ثم بدأ ينزل هذا القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آيات بعد آيات، خلال ثلاث وعشرين سنة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: جملة واحدة إلى السماء الدنيا إلى بيت العزة، وبدأ ينزل في تلك الليلة تدريجياً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي: ليلة المقدار والعظمة والفضل على غيرها من الليالي.

ولقد نزل هذا القرآن في ليلة فيها التقدير للأمور قال الله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ١-٤] ففي تلك الليلة تنزل الأمور القضائية السنوية إلى السماء الدنيا.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: يُفصل عن أصله وهو أم الكتاب، وينزل إلى السماء الدنيا، وفي تلك الليلة فُرِق هذا القرآن من اللوح حتى نزل إلى بيت العزة.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ أي: من أم الكتاب واللوح ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

أما المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: إنّا بأسمائنا وصفاتنا أنزلناه،

إنا بعلمنا وحكمتنا، إنا بعزتنا وعلمنا، إنا بمشيئتنا وتدبيرنا ﴿أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ فلقد نزل هذا القرآن من حضرات الأسماء الإلٰهية، كما قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢].

فهذا الكتاب نازل من حضرة العزيز وحضرة العليم، والعلم الإلٰهي له مظهر في القرآن.

وقال أيضاً: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ لمن قال: لا إلٰه إلا الله ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ ممن قال: لا إلٰه إلا الله ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لم يقل: لا إلٰه إلا الله ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ الفضل والإنعام الخاص، على من قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مصير مَنْ قال: لا إلٰه إلا الله، ومَصير مَن لَمْ يَقُلْها.

وفي هذه الآية دعوة من الله تعالى لعباده أن يمدوا أيديهم إليه بالمغفرة، فهو ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾، وهذا ما فهمه سيدنا عمر رضي الله عنه لما أرسل كتاباً إلى أحد الأعراب، وكان كثيراً ما يشرب الخمر، ولَمّا قرأ الأعرابي هذه الآية تاب إلى الله ورجع إليه، وقال عمر رضي الله عنه: هكذا عاملوهم ـ أي: المسرفين ـ ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم. أي: بالغلظة والقسوة [١].

---

(١) كما في (الدر المنثور).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أي: أنـك مـن نفسـك لا يمكـن أن تُـدرك تفاصيل فضلها، إلا أن نعرفك ونوحي إليك.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ في فضـلها ومضـاعفة الأجـر فيهـا، وإنّ العمل فيها خير من ألف شهر.

وقال الله تعـالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي: ما نزلنـاه دفعـة واحـدة ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢].

ومن الحِكَـم أيضـاً مـا بينـه سـبحانه في قولـه: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

فالحكمة الأولى: تثبيت فؤاد النبي صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم. أي: حُجّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته وشـرعه، كمـا أن تثبيـت فؤاده صلى الله عليه وآله وسلم يشتمل نصـر الله لـه، والانتقـام ممـن يريـد إيذاءه صلى الله عليه وآله وسلم.

فمـن ذلـك: لمـا جهـر صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم بدعوتـه، راح المشركون واجتمعوا، كما قـال جـابر رضـي الله عنـه[1]: اجتمعـت قـريش فقالوا: من يذهب إلى محمد فإنه فرّق جمعنا، وسب آلهتنا، وشـتم ديننـا، واختاروا رجلاً منهم وهو عتبة بن ربيعة، وقالوا لـه: يا أبا الوليد أنـت لهـا. وكان من دواهيهم وأفصحهم وأشعرهم. فـذهب عتبـة إلى الـنبي صـلى الله عليه وآله وسلم وقال له: يا محمد أنت خَيْرٌ أم عبد الله؟ ـ أي: أبوك.

---

(١) انظر (الدر المنثور) عند تفسيره لأول سورة فصلت، فقد ذكر طرق هذه الحادثة مفصلاً.

فسكتَ عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: أنتَ خير أم عبد المطلب؟

فسكت عليه الصلاة والسلام.

فقال: إن كان هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة ـ على زعمه ـ وإن كنتَ خيراً منهم فتكلم حتى نسمع قولك، فلقد عبت آلهتنا وفرقت جمعنا وشَتَّتَّ أمرنا، حتى طار بين العرب أنَّ في قريش ساحراً، وفي قريش كاهناً وهكذا.

فإن كنت تريد المال جمعنا لك مالاً، وإن كنت تريد الباءة ـ أي: الزواج ـ زوجناك أحسن قريش.

وهكذا عتبة يتكلم، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم ساكت، لأن الوحي ينزل عليه، ثم قال له: «أَفَرَغْتَ يَا أَبا الْوَلِيد»؟ قال نعم.

قال اسمع: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ـ٣] إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

فلما سمع عتبة هذا الكلام أخذته الرعدة والمهابة وقال: أُنا شدك الله يا محمد إلا سكت عن هذا. لأنهم يعلمون حقاً أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ما قال شيئاً إلا وصدق.

ثم خرج عتبة وراح بيته، وأبو جهل وجماعته ينتظرونه.

فقال أبو جهل: ما أرى أبا الوليد إلا قد صبأ لمحمد، لقد أعجبه طعامه. ثم إن عتبة جاء إلى قريش وقال لهم: يا معشر قريش لقد علمتم أني

أكثركم مالاً، والله لقد سمعت منه كلاماً ليس هو كلام شاعر، ولا كلام ساحر، ولا كلام كاهن.

يامعشر قريش أجيبوا الرجل وكفوا عنه واتركوه وأمره، واقبلوا هذا نصيحة مني. فراحت قريش تتكلم في عتبة، ولم يؤمن ويعترف بالحق بعدما عرفه.

فكانت هذه الآيات تأييداً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتثبيتاً لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم.

الحكمة الثانية في نزول القرآن مفرقاً آيات بعد آيات: تلقين الحجة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والرد على المشركين.

فمن هذا: لما جعل أمية بن خلف يهزأ ويسخر بالنبي عليه الصلاة والسلام، نزل قوله جلَّ وعلا: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [سورة الهمزة].

والهماز هو: الذي يسخر بالناس، ويهزأ بهم بالإشارة، سواء بيده أوبعينه.

واللماز هو: الذي يسخر ويهزأ بالناس بلسانه من قدح وشتم.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: أن الذي حمله على السخرية والاستهزاء بالناس هو فخره واعتزازه بماله.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي: أن ماله سيبقى ويُخَلِّده.

﴿كَلَّا﴾: زجراً له، فلا خلود ولا بقاء، ولابد من رجوع إذا إلى الله تعالى.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ فمن دخلها حَطَّمَتْهُ.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ فهي تَطَّلع اطلاعاً علمياً بإطلاع الله لها على قلوب مَن دخلها، وتحرقهم وتحطمهم، وتعذبهم على نسبة ما في قلوبهم من الكفر. والعياذ بالله.

ولا عجب في هذا، فإنّ جهنم لها رؤية ولها اطلاع، ولها كلام كما أخبر الله تعالى عنها: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٢].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٦٤] فأثبت لها جلَّ وعلا كلاماً ورؤية واطلاعاً.

وهذا لأنّ جميع ما في الدار الآخرة له حياة وإحساس وإدراك لائق به؛ وإنْ كان هذا موجوداً في الدنيا، إلا أنه سيظهر واضحاً في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤] فتراب أرض الجنة فيه حياة، وأرض جهنم كذلك، وجميع ما هنالك.

ومن ذلك لما سمع أبو جهل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يَذكر فيما نزل عليه شجرة الزقوم، فقال أبو جهل مستهزئاً: أَتروْن ما هو الزقوم، إلا عجوة على الزُبْدِ[1].

وفي رواية: إلا عجوة يُثرب على الزبد، وإن تمكنت لأَتزقَّمنَّهُ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾ أي: الآثم ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ أي: عكَر الزيت ﴿يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ﴾ أي: اطرحوه ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: إلى وسط جهنم، ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ

---

(١) كما في (الدر المنثور) عند تفسير هذه الآية الكريمة.

عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ﴾ أي: يا أبا جهل ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٣ـ٤٩] أي: كنت عزيزاً كريماً في قومك.

وفي هذا أنواع من العذاب، فهو يُسقى من العكر المغلي الذي يُصهر بطنه، ويقطع أمعاءه في وسط جهنم، تلفحه النار ويصب فوق رأسه من عذاب الحميم، ويقال له إهانة وخذلاناً: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ فأين عزتك وكرامتك الآن؟

ومن ذلك لما زَعم النضر بن الحارث ـ وهو من شياطين قريش ـ أن هذا القرآن هو من كلام محمد (صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) وما هو إلا حكايات عن السابقين، نقلها وجمعها فهو يقرؤها عليكم، وقال لجماعته: أنا آتيكم بمثل ما جاء به، وراح يحدثهم عن ملوك الروم والفرس وغير ذلك.

فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥ـ٦] أي: قل لهم: ليس هذا أساطيراً، أو تَقوُّلاً عن السابقين، بل هو كلام رب العالمين أنزله عليَّ ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ أي: اِعلم أيها النضر بن الحارث أن الله سمع مقالتك، وهو لا يخفىٰ عليه شيء.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إن هم آمنوا وتابوا. وفي هذا بيان لسعة رحمته سبحانه، إذ أنه هددهم، وردَّ عليهم، ثم فتح لهم باب التوبة.

وكذلك لما راحت قريش تحاول إيذاء النبي صلى الله عليه وآله

وسلم، واغتياله، أنزل الله قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]وهذا في مكة.

فمهما حاولوا إيذاءك، ومهما لاقيت منهم، فإنك محفوظ معصوم مُؤَيَّدٌ، لأنك بعين عنايتنا فلا يهمنك أمرهم.

وفي هذا تحدٍ صريح للمشركين، بأنهم مهما حاولوا مِنْ قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو إيذائه فلن يستطيعوا، مِمَّا يدل على أن هذه الآيات هي كلام الله تعالى حقاً.

وكذلك فإن المشركين في مكة لما رأوا أنهم كلهم مجتمعون لمحاربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وجه دعوته، قالوا كما أخبر الله عنهم ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ فقال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤ـ٤٥] أي: قل لهم ذلك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد حَقّق الله ذلك، لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، ووقعت غزوة بدر، هُزِمَ المشركون وقُتِلَ صناديدهم، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ الآية: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

واعلم أنّ غزة بدر وقعت في موقع اسمه بدر، وبَيْن الموقع والوقعة مناسبة عظيمة، فقد بَدَرَ بدر الإسلام بعد غزوة بدر، وارتفعت راية الإسلام، حتى وقع الخوف والرعب في قلوب اليهود الذين كانوا آنذاك.

ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة قال لليهود الذين هم في المدينة: «يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِكُفَّارِ قريش»[١].

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في (الدلائل) عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

فقالت اليهود خبثاً من أنفسهم: يا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يغرنك أنك قاتلت أغماراً لا خبرة لهم بالحرب، إنك إذا قاتلتنا عرفتنا أننا نحن الناس.

فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: اليهود ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: حجة ظاهرة ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ﴾ أي: يوم بدر ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي: وهم المشركون ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ﴾ [آل عمران: ١١ـ ١٢] أي: أن الكفار يَرَوْنَ المؤمنين ضَعْفَي عددهم، وهذا لَمّا يستحكم القتال، وبذلك يدبّ الرعب والخوف في قلوب المشركين، أما في أول الحرب فقال تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٤] أي: في أعين الأعداء.

وهذا حتى يوهم الكفار بقلة عدد المسلمين وَعِدَّتهم؛ فيقدموا على الحرب، حتى إذا استحكم القتال جعل الله الكفار يرون المسلمين ضِعْفي عددهم، وهذا مما يسبب نصر المؤمنين وهزيمة الأعداء.

وهكذا شَرَّدَ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اليهود من المدينة، وَفَرَّق جمعهم، فانتشروا في نواحي الأرض، وكانوا وبالاً على أهل الأرض، وتحقق قوله سبحانه: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ فقد غُلبوا وهزموا.

ومن الآيات النازلة في تثبيت فؤاده صلى الله عليه وآله وسلم، وتأييده بنصر الله وحفظه له، أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يُحرس في المدينة خوفاً من اغتيال اليهود وأذاهم، فنزل قوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ

ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه من القبة ـ وكان حولها الحراس ـ وقال: «يَا أيها النَّاسُ انْصَرِفُوا، فَقَدْ عَصَمَنِيْ الله تعالى»(١) وفي هذا تحدٍ لليهود وغيرهم من المنافقين بأن الله قد عصم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من أذاهم، فمهما حاولوا فلن يستطيعوا إيذاءه أو اغتياله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان: ٣٢] أي: من حيث الحجة والدليل أيضاً، بحيث لو سُئل صلى الله عليه وآله وسلم عن أمور ووقائع غيبية آتية أو ماضية، نزلت الآيات الحقّ في ذلك، وتُبين صدق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذا: ما حصل مع أهل مكة، فلقد حاول كفار قريش أن يكذبوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يقدروا وعجزوا عن ذلك، حتى راح بعضهم إلى اليهود في المدينة، وسألوهم عن أمور حتى يسألوا عنها رسول الله وَيكذبوه على زعمهم، فقالت لهم اليهود: سَلوا محمداً عن ثلاثة أشياء، فإن أجابكم عنها كلها فليس برسول، وإن لم يجبكم عنها فليس برسول، وإن أجاب عن بعضها فهو رسول.

سلوه عن رجل طاف الأرض ـ وهو ذو القرنين ـ وَعَنْ فِتْية غابوا عن أهلهم ـ أصحاب الكهف ـ وسلوه عن الروح.

---

(١) الحديث رواه الترمذي في كتاب التفسير، ومن سور المائدة ٣٠٤٩/ (٨/٢١٤) عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وانظر (الدر المنثور) عند تفسير هذه الآية الكريمة.

فجاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسألوه عن ذلك، فوعدهم بالجواب، ونزل عليه الوحي بالآيات تبين ما سألوه تفصيلاً وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ [الكهف] وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ الآيات [الكهف: ٨٣]. وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ الآية [الإسراء: ٨٥][1].

الحكمة الثالثة في نزول القرآن آيات بعد آيات، ما فيه منفعة الأمة وصلاحها، وهذا كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

فلقد بين سبحانه الحكمة في ذلك وهو قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وإنّ الحكمة في قراءته صلى الله عليه وآله وسلم للآيات النازلة؛ عليه أن يتحقق بها الصحابة، ويطبقوا ما جاء فيها من أمر أو نهي، أو خلق أو أدب، أو غير ذلك على حسب الآية، وفي هذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يتدرج بهم في مراتب الكمال والصلاح والإيمان.

وفي هذا قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم كانوا: يقترؤون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل. اهـ[2].

ولهذا فإن القرآن الكريم جاء بالقضايا التشريعية على تدريج، بحيث لا يصعب ولا يشق تطبيقها على الصحابة.

---

(١) كما في سيرة ابن هشام.

(٢) كما في (المسند) (٥/ ٤١٠).

ومن جملة ذلك: كان هناك عادات كثيرة قبيحة مستحكمة في الجاهلية، جاء القرآن بآياته يستأصلها واحدة، بعد واحدة على طريقة التدريج، ومن هذا عادة شرب الخمر، ولقد كان شربها شائعاً ومستحكماً وَقَلَّ من لا يشربها كأبي بكر وعثمان رضي الله عنهما.

فأوّل ما أنزل سبحانه في بيان ذلك قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] أي: أن فيها بعض المنافع، إلا أن الأضرار المرتبة على شربها أكثر، وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: اللهم بَيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً[1].

فنزلت تلك الآية التي فيها التعريض على وجوب تركه حيث أن ضرره أكثر من نفعه، وقد تركه بعض الصحابة، إلا أن معظمهم بقي على شربه، لأنّه لم يَحْرم تحريماً باتاً بَعْدُ، ثم نزل تحريم شرب الخمرة قبل الدخول في الصلاة، لئلا يَخلط الإنسان في صلاته وهو في حالة سكر، وهذا قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ أي: بنوع من السكر ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فهناك سَكرة الخمرة وسكرة الدنيا، وربّ إنسان أخذت به الدنيا فراح قلبه وعقله فيها، حتى أنه لا يدري ما يقول في صلاته.

ولقد سأل عمر رضي الله عنه ربه أيضاً فقال: اللهم بَيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً، حتى نزل تحريم الخمر تحريماً باتاً، بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ

(١) كما في (المسند) ١/٥٣) وأبي داود /٣٦٧٠/ والترمذي /٣٠٥٣/ وغيرهما.

وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].
فتليت هذه الآية على عمر رضي الله عنه فقال: اللهم انتهينا انتهينا.

وقوله جلّ وعلا: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي: إلى متى ستدومون على شربها، وكيف لا تنتهون عنها، وقد رأيتم ضررها وقبحها.

ولا يظن المرء أنه إذا أعطى نفسه ما تتمناه أنه مُكرِمٌ لها، بل هو مُهين لها إذا خالف عمله أوامر الله تعالى.

جاء في الحديث [1]: «ألاَ يا رُبَّ نَفْسٍ طَاعِمَةٍ نَاعِمَةٍ في الدنيا، جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ يَومَ القِيَامَةِ.

ألا يا ربَّ مكرم لنفسه وهو لها مُهين.

أَلاَ يا رُبَّ مُهِيْنٍ لنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مُكْرِمٌ.

أَلاَ وإِنَّ عمل الجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، وَإِنَّ عمل النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ» الحديث.

«حَزْن»: صعب.

«بِرَبْوَةٍ»: بمكان مرتفع.

أما طريق النار فهو سهل لأنها بِسَهْوة، وهي الأرض اللينة التربة.

وهكذا فإنّ في نزول القرآن تدريجياً تَدَرُّجاً بالصحابة، للتحقق في أعلى مقامات الإيمان، فلما وقعت غزوة بدر، ونزلت فيها الآيات، وأراهم سبحانه أن النصر حقيقة من عند الله، وتحققوا بقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) أورده ابن سعد في (الطبقات) (٧/٤٢٣)، والبيهقي في (الشعب) /١٤٦١/ (٢/١٧٠) وهو في (الترغيب) للحافظ المنذري في باب الترهيب من الإمعان في الشبع /٣١٦٧/ عن سيدنا أبي البجير رضي الله عنه.

يَنصُرۡكُمۡ﴾ [القتال: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

ثم هناك في غزوة أحد أراهم حقيقة أنَّ من خالف أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه يناله من الضرر والفساد ما يناله. فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢].

* * *

من خصائص ليلة القدر

قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ طائفة بعد طائفة، والروح هو جبريل عليه السلام، إلى عالم الأرض، يتنزلون بأمر الله تعالى، وَخُصّ جبريل بالذكر لأنه ينزل إماماً للملائكة وقائداً لهم.

فكما ورد في الحديث الذي رواه البيهقي(1) وغيره: أنهم ينزلون إلى الأرض ويأتون إلى كل مؤمن ومؤمنة، ما بين قائم وقاعد، وذاكر ومصل لله تعالى، فيسلمون عليهم ـ والملائكة إنما تسلم عن أمر من الله تعالى ـ ويدعون لهم، ويستغفرون لهم، إلا أربعة: مدمن الخمر، وعاق لوالديه، وقاطع الرحم، وبينه وبين أخيه شحناء. أي: بغضاء وعداوة.

قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أمرهم الله به، وهو قوله ﴿سَلَـٰمٌ﴾ أي: من رب العالمين على عباده المؤمنين والمؤمنات.

قوله تعالى: ﴿هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: أن أمر ليلة القدر أمر عظيم، فهو منظم مؤقت، يبدأ من أول الليلة بالسلام والرحمة من الله تعالى، وينتهي عند الفجر.

---

(1) في (شعب الإيمان) في باب الصيام، فصل في ليلة القدر /٣٦٩٥/ (٣/٣٣٦) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وعزاه المنذري في (الترغيب) إلى أبي الشيخ في كتاب (الثواب).

ولهذا ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَإِذَا صَارَ آخِرَ اللَيْلِ ـ أي: دنا الفجر ـ نَادَى جِبريلُ عَلَيه السلام بِالمَلائِكَة: يَا مَعْاشِرَ المَلاَئِكَةِ الرَّحِيْلَ الرَّحِيْلَ.

فتَقُولُ المَلاَئِكَةُ: وَمَاذَا صَنَعَ اللهُ تَعَالى يا جبريل فِي حَوائِجِ المُؤْمِنِيْنَ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيل: إِنَّ الله تَعَالَى قَدْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ ـ أي: نظر رحمة ورضا ـ فَعَفَا عَنْهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ ـ أي: وأجابهم على ما سألوا ـ إِلاَ أَرْبَعَة». كما تقدم[1].

وفي هذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[2] أي: إيماناً بالله تعالى، وإيماناً بأن الله تعالى وعد على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الأجر، وحباً بالله تعالى، لأنه سبحانه يُحب من المؤمن أن يعبده في تلك الليلة، فَمَنْ فعل ذلك امتثالاً لأمر حبيبه أعطاه ما يحبه.

ومعنى: «احْتِسَاباً» أي: ادخاراً للأجر عند الله تعالى.

وأما موعد ليلة القدر: فهو في العشر الأخير من رمضان، ولاسيما في الأوتار[3]، وعلى الإنسان أن يترقبها في هذا العشر معتبراً أن كل ليلة منه هي ليلة القدر، وليغتنمها بالطاعة والعبادة.

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل العشر الأخير أيقظ أهله

---

(١) ص /٣٠٣/.

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونِيَّة /١٩٠١/ (٤/١١٥)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان /٧٦٠/ (٢/٨٤٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر الفتح (٤/٢٦٠)، ومسلم (٣/١١٨٩).

وشد مئزره[1]، وقال: «الْتَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَواخر»[2].

أما أماراتها السابقة كما ورد في الحديث [3]: أنه تكون الليلة هادئة ساكنة، ولها نور، ويظهر هذا بعد المغرب ويستمر إلى الفجر، ولا يشعر بهذا إلا من كان لطيف البصيرة.

أما علامتها المتأخرة وهي بعد طلوع الشمس: كما ورد في الأحاديث الصحيحة[4]: أن الشمس تطلع في صبيحتها لا شعاعَ لها ـ أي: لا شعاع قاهراً قوياً لها كعادتها ـ والسبب في ذلك أنه لما تنزلت الملائكة في تلك الليلة بأنوارهم وأسرارهم وروحانيتهم، فامتلأت الأرض بأنوارهم، فلما طلع نور الشمس طلع وهناك نور عمَّ وجه الأرض، لذلك أصبح شعاعها بالنسبة للنور الموجود ضعيف.

وفي هذا فائدة لمعرفة تلك الليلة، لأن اليوم الذي يأتي بعد تلك الليلة له فضله وشأنه وخيره، لأن الخير الذي يتنزل في تلك الليلة تعم آثاره على ما وراء تلك الليلة.

ولهذا كان السلف الصالح رضي الله عنهم يُكثرون من العمل الصالح في اليوم الذي يلي ليلة القدر، لينالوا من الأسرار والمضاعفات على حسب ذلك اليوم.

وجاء في الحديث[5]: «أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْساً:

---

(١) كما في (صحيح) البخاري /٢٠٢٤/، ومسلم /١١٧٤/ عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) تقدم تخريجه ص /٢٨٣/.

(٣) ينظر (مجمع الزوائد) (١٧٨/٣).

(٤) ينظر (صحيح) مسلم (١١٩٠/٣).

(٥) رواه البيهقي في (شعب الإيمان) /٣٦٠٣/ عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

أَمَا وَاحِدَةً فَإِذَا كَانَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ نَظَرَ الله تعالى إِلَيْهِم. وَمَنْ نَظَرَ الله إِلَيْهِ لمْ يُعَذِّبه أبداً.

وَأَمَا الثانِيَةُ: فَإِنَّ خلُوفَ أَفْوَاهِهِم حِيْنَ يُمْسُونَ أَطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ رِيْحِ المِسْك.

وأَمَا الثَّالِثَةُ: فإنَّ المَلاَئِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلَّ يوم ولَيْلَةٍ.

وأما الرَّابِعَةُ: فَإِنَّ الله تَعَالى يَأْمُرُ جَنَّتَهُ فَيَقُولُ لَهَا: اسْتَعِدِّيْ وتَزَيَّنِيْ لِعِبَادِي، أَوشَكَ أَنْ يَسْتَرِيْحُوا مِنْ دَارِ الدُّنْيَا إِلى دَارِي وكَرَامَتِي.

وأما الخَامِسَةُ: فَإِذَا كَانَ آخرَ لَيْلَة غَفَرَ الله لَهُمْ جَمِيْعَاً».

قَالَ رَجُلٌ: يَا رسُولَ الله أهيَ لَيْلَةُ الْقَدْر؟

قال: «لاَ، أَلَمْ تَرَ إِلَى العُمَّالِ يَعْمَلُونَ حتَى إِذَا فَرَغُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وُفُّوا أُجُورَهُم».

وهي ليلة العيد ولذلك يسمى يوم العيد يوم الجائزة، لأن الصائمون يعطون جوائزهم[1].

فالجائزة الأولى أُعطوها آخر ليلة وهي المغفرة، وأعطوا الجائزة الثانية وهي القبول والرضا من الله في يوم العيد، الذي يَعُود الله فيه على عباده بالبر والرضا والقبول والمغفرة.

ولذلك شُرعت صلاة العيد، حتى يقابل المؤمن التجلي الإلهي بالصلاة والدعاء.

وليحرص المؤمن على هذه المواسم بالتوبة النصوح إلى الله تعالى،

---

(١) ينظر (مجمع الزوائد) (٢/٢٠١).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] أي: كاملة، كالثوب الناصح الذي لا نقص فيه ولا عيب ولا ثقب.

فالتوبة النصوح هي: التوبة العامة الشاملة للأجزاء كلها: من ذنوب السمع والبصر واليد واللسان والرجل وسائر الأركان.

ومن اكتسى حلة التوبة النصوح العامة الشاملة لسائر أجزائه، كان جزاؤه كما قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: كلها ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾[التحريم: ٨].

اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين. آمين

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

من فضائل شهر رمضان
نزول القرآن الكريم في شهر رمضان المبارك
على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى فضل شهر رمضان، وأنّ هذا الشهر هو الشهر الذي أنزل الله تعالى فيه القرآن، وإن نزول القرآن في هذا الشهر ترك فيه آثاراً، لأن القرآن نزل وله روح، ونزلت معه أسرار وأنوار، ونزلت معه رَحَمَات وملائكة الله وبركاته، وجميع هذه حين نزلت تركت أثرها في الشهر الذي نزل فيه هذا القرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

وإن نزول القرآن الكريم بروحه وبأسراره وأنواره، وبرحماته وبركاته، وبشفائه وخيراته، قد ترك أثراً في هذا الظرف وهو الزمن.

وهذا لأنّ التنزلات القرآنية تترك أثراً في ظروف الأزمنة، كما أن التجليات الإلهية تترك أثراً في الأوقات، وكذلك النفحات الإلهية لها آثارها في أوقاتها، ومِنْ هذا ما جاء في الحديث[1] في بيان فضل وقت السحر،

(١) عند البخاري في كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة في آخر الليل /١١٤٥/ (٣/٢٩)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب والذكر آخر الليل /٧٥٨/ (٢/٨٤٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وإنّ أوقات الأسحار لها فضل على غيرها، لأنّ الله تعالى يتجلى فيها على عباده، تنزل رحماته وأسراره وأنواره إلى السماء الدنيا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا حِيْنَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيْبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيْمٍ وَلاَ ظَلُومٍ».

ولهذا كان لوقت السحر فضل على غيره من الأوقات، لأن الله تعالى يتجلى فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والإحسان والعطاء، وتتنزل رحماته وبركاته سبحانه إلى السماء الدنيا، حتى ينعكس أثرها على عالم الأرض.

فمعنى هذا أنّ تنزلات الرحمات وتجليات الحق لها آثارها في الأوقات، كذلك أيضاً النفحات الإلّهية لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ لِرَبِّكُمْ فِيْ أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ فَتَعَرَّضُوا لَهَا، لَعل أحدكم أَنْ يُصِيْبه منها نَفْحَةً لاَ يشقىٰ بَعْدَهَا أَبَداً»[1].

فلله تعالى نفحات ينفح بها عباده المؤمنين، فتنجذب قلوبهم إلى الله تعالى، إذ تمر هذه النفحة الإلّهية على قلب المؤمن فيشتمّها فيستطيبها، فيتعشق بها، فينجذب قلبه إلى الله تعالى، ومتى انجذب قلب المؤمن إلى الله تعالى لا يشقى بعدها أبداً.

فعلى المؤمن أن يتعرض لنفحات الحق على مدى الزمن، ومِنْ أعظم أوقات النفحات الإلّهية إنما هو شهر رمضان المبارك، إذ أنه شهر رحمات وبركات وخيرات، نزل فيه القرآن بروحه ونوره وأسراره وبركاته، وترك أثراً في الزمن إلى أبد الآبدين.

---

(١) رواه الطبراني في (الأوسط والكبير) عن سيدنا محمد بن مسلمة رضي الله عنه كما في (مجمع الزوائد) (١٠/٢٣١).

ولهذا بَيّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لهذا الشهر تجلياً خاصاً ورحماتٍ إلهية خاصة، فقال: «أَتَاكُمْ شَهْرُ رَمَضانَ، شَهْرُ بركة، يَغْشَاكُم الله تَعالى فِيهِ» أي: يتجلى عليكم «فَيُنْزِلُ الرَّحْمَةَ وَيَحُطُّ الخَطَايَا، وَيَسْتَجِيبُ فيه الدُّعاءَ».

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَأَرُوا الله مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْراً، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ فيه رَحْمَةَ اللهِ عز وجل»[1].

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ يعني: أن هذا القرآن لما نزل نَزَل وله رُوح تحيا بها الأرواح، وله نور تستنير به العقول والقلوب، وله رحمات وبركات، وقد نزل بهذا القرآن أفضل ملك مع حاشية كبرى من الملائكة لا يعلمها إلا الله تعالى.

فلقد نزل هذا القرآن في أفضل زمن، على أفضل قلب، وهو قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد نزل به أفضل ملك وهو جبريل عليه السلام، ونزل في أفضل البقاع وهي مكة والمدينة وما حولهما، فَمِنْ هنا تفهم فضل هذا القرآن، فقد نزل في أفضل ظرف زمني، وهو شهر رمضان، على أفضل مخلوق وأعظم قلب وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الذي خُصَّ من بين القلوب كلها، وعن قلبه الشريف استنارت القلوب واستمدت.

وإن لهذا القرآن روحاً تحيا به الأرواح الإنسانية كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] ومن شأن الروح أن بها

---

(١) الحديث رواه الطبراني في (الكبير) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه، كما في (مجمع الزوائد) (١٤٢/٣).

الحياة، ومتى أطلق ذكر الروح دل على الحياة، فروحك الإنسانية يحيا بها جسمك، ولكن لا بد لروحك الإنسانية من روح أخرى تحيا بها، وما هذه الروح إلا الروح القرآني، التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا حييت روحك فأنت حَيٌّ حياة الأبد، وإذا ماتت روحك فأنت ميت مِيْتة الأبد، فالمؤمن هو الذي حييت روحه بالقرآن الذي جاء بالإيمان، ومن آمن بالقرآن أحيا الله روحه، ومن أحيا الله روحه فلا يموت أبداً ولو مات جسمه. ومن لم يُؤمن بالقرآن بل أعرض عنه وكفر به، فإنّ روحه ميتة ولو كان جسمه حياً، وإنّ موتته موتةٌ أبدية كما قال تعالى في الكفار: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠ـ ٢١].

فالكفار أموات لا من حيث الجسم بل من حيث الروح، لأنهم فقدوا روح القرآن فماتوا ميتة الأبد. أما المؤمنون فهم أحياء غير أموات، كما هو مفهوم المقابلة.

وَمتى سرت روح القرآن في قلب وروح؛ صار هذا القلب والروح حياً.

وإذا لم يتقبل صاحب القلب روح القرآن لِكبْر نفس، أو عناد منه، فَرَدَّ واستفرغ روح القرآن عاد للموت الأبدي.

وقد قال تعالى في الكفار: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ [الحجر: ١٢ـ١٣] أي: لا بد لهذا القرآن أن يدخل في كل قلب يسمعه صاحبه، ومتى دخلت روح القرآن في القلب يجب على القلب أن يحيا، لكن إذا استفرغ صاحب القلب ما شربه قلبه، ورده عناداً وكبراً: فإنّه لا يستفيد شيئاً من القرآن.

كما لو أنك قَدَّمت ماءً بارداً لإنسان عطشان منصفٍ، فشربه وتركه يستقر في جوفه، حتى رُويَ وانتعشت أركان جسمه، ويقال عن هذا الإنسان: إنه قد رُوي وعادت إليه الحياة.

وهناك إنسان آخر عطشان، ولكنه منكر معاند جبار، فتقول له: اشرب هذا الماء البارد، وأنت محتاج إلى هذا الماء وبه حياتك، فأعرض وعاند، فإذا قلت له: لا بد أن تشرب ولو بالقوة، فشرب ولكنه مِنْ كبر نفسه وعناده راح يستفرغ ما شرب، وَرَدّ ما دخل إلى معدته، فلم ينفعه الماء شيئاً.

وكذلك الروح القرآنية فهي تسري في كل قلب يسمع هذا القرآن: فأما المؤمن فأنصف واعترف وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وذاق حلاوة القرآن، وأدرك حَقِّيَّتَهُ.

وأما المعاند المعارض الذي سمع القرآن، ودخل في قلبه، وذاق حلاوته، ولكنّ كبر نفسه وعناده ردّ هذا الذي دخل في قلبه فلم يؤمن، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ أي: نُدخل القرآن ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فينبغي أن يؤمنوا، ولكنهم كما قال: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: لكبر نفوسهم وعنادهم، ولو أنهم أنصفوا لآمنوا لأن الماء البارد يَروي الشارب منه.

وَمِنْ هنا لَمَّا سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعثمان بن مظعون رضي الله عنه، وكثير من الصحابة رضوان الله عنهم لمّا سمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخل في قلوبهم فآمنوا، بينما هناك أبو جهل وغيره من المشركين سمعوا القرآن، وذاقوا حلاوته بقلوبهم، وأدركوا حَقِيَّتَهُ، إلا أنهم ردّوه وأبوا أن يعترفوا، فلم يؤمنوا كِبْرَ نفسٍ وعنادٍ.

ومن ذلك: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خرجت يوماً ـ أي: حين كان في الجاهلية ـ أَتَعَرَّضُ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأذى، فرأيته دخل المسجد فتبعته، فوقف يصلي صلى الله عليه وآله وسلم، فقرأ: ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾، فقلت في نفسي هذا كلام شاعر. فقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر السورة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾. فقلت في نفسي هذا كلام كاهن. فتابع صلى الله عليه وآله وسلم قراءته: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال عمر رضي الله عنه: فوقع الإسلام في قلبي منذ سمعت هذه الآيات(١).

ثم إنه مرَّ على أخته ـ وكانت قد أسلمت قبله مع زوجها ـ فسمع هيلمة ـ أي: صوت قرآن خفي من وراء الباب ـ فطرق الباب، فأخفوا صحيفة القرآن، فدخل: فقال ماذا كنتم تفعلون؟ فعرَّضوا له، فبعد ذلك طلب الصحيفة.

فقالت له أخته: لا تمسها لأنك رجس، وهذا لا يمسه إلا المطهرون، قم فاغتسل وتوضأ. وهذا يدلك على أن الصحابة كان معروفاً عندهم أنه لا يجوز أن يمس المصحف مَنْ هو محدث: حدثاً أصغراً أو أكبراً، وأنّ هذا الأمر كان معروفاً بين نساء الصحابة ورجالها رضوان الله عليهم، فلا تدع للشيطان سبيلاً إليك بفهم آخر.

فقام عمر رضي الله عنه فاغتسل وتوضأ، فأعطته الصحيفة فقرأ في وجه الصحيفة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فاهتز قلبه، ثم تلا: ﴿طه ۝١ مَآ

(١) انظر الخبر في (المسند) للإمام أحمد (١/ ١٧).

أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ١ـ٥].

فكلما مرَّ على اسم من أسماء الله تحرك قلبه ودمعت عيناه.

ثم قلب الصحيفة فقرأ فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١] إلى قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ [الحديد: ٧].

ثم خرج وقصد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأعلن إسلامه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(١).

فقد دخل القرآن قلب عمر رضي الله عنه، ولم يكن معانداً أو معارضاً، بل كان منصفاً تقبل روح القرآن ولم يردها، فآمن وأسلم.

وكذلك عثمان بن مظعون رضي الله عنه، فقد روى أحمد في مسنده(٢) عنه أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً أمام حجرته، فمر عثمان بن مظعون وكان مشركاً، فجعل يهزأ ويومي إلى رسول الله بالهزء، فأشار صلى الله عليه وآله وسلم أن اجلس فجلس، فقرأ عليه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ...﴾ الآية [النحل: ٩٠].

قال: عثمان فدمعت عيني، وطار لها قلبي، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما ذهب وفد من الصحابة مهاجرين إلى الحبشة ودخلوا على

---

(١) انظر الخبر في سيرة ابن هشام.

(٢) (١/٣١٨) وانظر (مجمع الزوائد) (٧/٤٧).

النجاشي، وقال النجاشي لسيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: هل معك شيء مما نزل على هذا النبي؟ قال: نعم، قال: فأقرأه عليَّ، وكان النجاشي في قصره وحوله البطارقة والقسوس، فقرأ: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤] فجعل النجاشي وأصحابه ـ وكانوا من البطارقة ـ جعلوا يبكون حتى ابتلت لحاهم من دموعهم وآمنوا، وقال النجاشي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيت هذا النبي حتى أحمل نعليه[(١)]، وفي رواية: حتى أقبل نعليه.

وهناك من سمع القرآن وذاق حلاوته ولكنه لم يعترف ولم يؤمن جحوداً وعناداً وتكبراً.

ومن هؤلاء أبو جهل، والوليد بن المغيرة وغيرهما، ولما اجتمع أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق، وراحوا يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الليل، وهو يقرأ في بيته صلى الله عليه وآله وسلم، وكلٌّ منهم يَظن أنَّ أحداً لم يره، حتى جمعتهم الطريق، فتلاوموا وتواصوا أن لا يعودوا لسماع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم إنهم عادوا في اليوم الثاني والثالث فاجتمعوا فقالوا له: يا أبا الحَكَم ـ وكانوا يسمونه أبا الحَكَم ولكن الإسلام سماه أبا جهل ـ فقالوا له: ما تقول فيما سمعته من محمد؟ أي: هل هو شعر أم سحر أم كهانة؟

---

(١) ينظر (المسند) للإمام أحمد (١/ ٤٦١) و(دلائل النبوة) للإمام البيهقي (٢/ ٢٩٨و٣٠٠).

فقال: لا. فقالوا: إذاً ما هو ولِمَ لا تؤمن به؟

فقال: يا هؤلاء تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ـ أي: أن القضية هي أن محمداً حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن هذا القرآن حقاً كلام الله، ولكن الذي يمنعني من الإيمان جهلي وجاهليتي وعصبيتي ـ فأطْعَمَتْ بنو هاشم فأطعمنا، وسقوا فسقينا ـ أي: الحجيج ـ وأجاروا الضعفاء فأجرنا، حتى كنا كفرسي رهان ـ أي: في الفضائل ـ ثم افتخرت علينا بنو هاشم فقالوا: فينا نبي ينزل عليه الوحي من السماء، قال أبو جهل: فمن أين نأتي بنبي؟[1].

وما درى هذا المعاند المتكبر لو أنه أنصف وآمن ودخل تحت راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنال عز الدنيا والآخرة، ويكون في الفضل كغيره ممن آمن، ولكنه أبى واستكبر وأعرض، مع أنه عرف صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] أي: لا يعتقدونك كاذباً يا رسول الله، بل يعتقدونك صادقاً، ولكنهم يجحدون ذلك كبراً وعناداً، لأنّ الجحود لا يكون إلا بعد علم.كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

ونسأل الله أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا إتباعه.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي: بروحه ونوره وأسراره، فترك أثراً في الظرف النازل فيه، ففي رمضان تحيا القلوب والأرواح بتلاوة القرآن الكريم.

---

(١) ينظر الخبر في سيرة ابن هشام.

كما أنه نزل بنوره كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فلقد جاء القرآن بنور يُنَوِّر القلب وينور العقل، ينور المدارك والحواس، وينور الوجه، وذلك لما احتوى من أوامر وعقائد وأخلاق وآداب، فمن تحقق بها استنار قلبه وسمعه وبصره وعقله ووجهه. ومن فَقَدَ التحقق بالإيمان والعمل بالقرآن فإن الظلمة تحيط به وتعلوه نسأل الله العافية.

وقد نَبَّه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حقيقة نور القرآن للقلب والبصر والمدارك، في الحديث الذي رواه أحمد في (مسنده)[1] وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا أَصَابَ أحداً قط هَمٌّ ولاَ حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْعَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي» ـ وفي رواية: «بصري» ولا بأس أن تجمع بينهما لعموم الفائدة ـ «وَجَلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي: إِلاَّ أَذهب اللَّهُ هَمَّه وحزنه، وأبدله مكانه فَرَجاً» الحديث.

فتأمل في هذا التوسل الكبير بأسماء الله كلها، على أمر عظيم، وهو أن يجعل الله تعالى القرآن العظيم ربيع قلبك، وإذا ربَّع قلبك بالقرآن فإنه سيثمر حقائق الإيمان، وفعل الصالحات والقربات، كما إذا ربعت الأرضُ بالمطر، فإنها ستخضر وتزهر وتثمر.

---

(١) (١/٣٩١) وهو عند البزار وأبي يعلى كما في (مجمع الزوائد) (١٠/١٨٦)، وهو عند ابن حبان /٩٧٢/، والحاكم (١/٥٠٩).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وَنُورَ صَدْرِي وبَصَرِيْ» أي: نوراً لمداركي وحواسي، حتى تكون مستنيرة بنور القرآن.

وإذا عرفت أن لهذا القرآن روحاً ونوراً تحيا به الأرواح، وتستنير به الظواهر والبواطن، فاعلم أنه قد نزل بروحه ونوره وعلومه وأسراره على أعظم قلب آدمي، وهو قلب السيد الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال فيه سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤] أي: على قلبك يا رسول الله من بين القلوب كلها، فلا قلب يستطيع أن يحمل هذا القرآن بما فيه إلا قلبك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن قلبك فيه القابلية والاستعداد الكامل، أما غيرك فلا يستعد لذلك.

ولذلك فإن قلبه صلى الله عليه وآله وسلم أعظم القلوب، كما قال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١ـ٢].

والمراد هنا بقاف قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمقابلته بالقرآن المجيد، النازل على قلبه صلى الله عليه وآله وسلم، وعن قلبه صلى الله عليه وآله وسلم استفاضت واستمدت القلوب.

يدلك على هذا ما ذكره سبحانه بقاف، قلب رسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى في سورة ﴿قٓ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] أي: إن في ذلك القرآن ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فمن كان له قلب حَيٌّ استفاض عن قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واستنار عن قلبه صلى الله عليه وآله وسلم، وأصغى وتقبل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أحيا الله قلبه.

فلقد أقسم سبحانه بالمَنْزِلِ وهو قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والنازل عليه وهو القرآن المجيد، وذلك للمناسبة والارتباط الوثيق بينهما.

فما أعظم قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!! وأوسع نوره، حتى وعى واتسع لهذا القرآن المجيد، بعلومه وأسراره وأنواره!

نعم إنّ قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو القلب الأول، وهو القلب الجامع، وهو القلب المنير المنور لكل قلب، حتى وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وقد وصف سبحانه هذا القرآن بأنه القرآن المجيد أي: له مجده وعلوه وفضله وشرفه في تلاوته، وفي معانيه، وفي إعجازه، وفي هديه وأحكامه، وفي شريعته، فله المجد على جميع الشرائع، وله الفضل على بقية الكلام، كما جاء في الحديث[1]: «وفَضْلَ كَلاَمِ الله عَلَى سَائِرِ الكَلام كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِهِ».

فلا وجه للنسبة بين كلام الخالق وكلام المخلوق، لأنّ له المجد والتفوق على جميع الكلام، في تلاوته وأحكامه، وهديه وإعجازه.

وقد نزل القرآن الكريم في أفضل ليلة من شهر رمضان، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وبدأ نزول القرآن فيها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ونزل كله جملةً واحدة إلى بيت العزة في السماء الأولى في ليلة القدر أيضاً، وبيت العزة هو قبلة أهل السماء الدنيا، إذ أنّ لكل سماء قبلة كما أن قبلة أهل السماء السابعة هو البيت المعمور، وأما قبلة أهل الأرض فهي

---

(١) طرف من حديث رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن وفضائله /٢٩٢٧/ (١٢٥/٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الكعبة المشرفة. ونسأل الله أن يجعلها قبلتنا أحياءً وأمواتاً، إذ هناك من تكون قبلته حسب الظاهر الكعبة، ولكنه في القبر يُحول إلى غير جهة الكعبة؛ بسبب نفاقه أو ارتيابه في الإيمان. ونسأل الله العافية.

وجميع هذه القِبَل متوازية فوق بعضها، أي: على مستقيم واحد، فلو صَعَدت روح مؤمن من سطح الكعبة على خط مستقيم لانتهت إلى بيت العزة في السماء الأولى، وهكذا إلى قبلة كل سماء حتى البيت المعمور.

فلقد نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، إلى أشرف بقعة في السماء الدنيا وهي بيت العزة، أما نزوله إلى عالم الأرض فكان في مدة ثلاث وعشرين سنة، على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد بدأ تنزيله في ليلة القدر أيضاً، لأنّ القاعدة أنّ جميع الأمور التي تَظهر في الأرض لا بد أن تجتمع في السماء الأولى، ثم تظهر أحكامها في عالم الأرض.

وجاء في الحديث(١)، أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان قد حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، في كل سنة شهراً، وجاء في رواية ابن إسحاق: كان يخلو في غار حراء شهرَ رمضان.

وكان غار حراء مُطلاًّ على الكعبة، وإنَّ النظر إليها عبادة، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يَهجر قومه من ضلالهم وشركهم ويعبد الله تعالى، حتى إذا تم له أربعون سنة، وجاء شهر رمضان، جاءه الحق، فجاءه المَلَك، وقد نُبئَ صلى الله عليه وآله وسلم على تمام الأربعين، وذلك في شهر ربيع الأول، لأنه ولد في شهر ربيع الأول، وقد بدأت نبوته بالرؤيا الصادقة، والبشارات الصالحة، إلى أن جاء رمضان ذلك العام، وأتاه جبريل عليه السلام، وذلك بعد ربيع بستة أشهر.

---

(١) في (صحيح) البخاري، كتاب بدء الوحي /٣/ (١/ ٢٢) ومسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم /١٦٠/ (١/ ٣١٢) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

فقال لـه: اقرأ، قال: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» قـال: «فغطـني» أي: ضـمه إليـه، وهذا الضم إنما هو إفاضات يُفيض جبريل على رسول الله ما ألقـاه الله عليـه من أسرار وأنوار، وعلوم ومعارف، حملـها جبريـل مـن حضـرة الله تعـالى وأفاضها على رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم، وإنّ في الإفاضـات معاني لا تحيط بها العبارات.

«ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: مَا أَنَا بِقَـارِئٍ، فَأَخَـذَنِي فَغَطَّـني الثانيـةَ حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقالَ: اقرأ. فقلتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَـذَنِي فَغَطَّـني الثَالِثَـةَ، ثمَّ أرسـلني فقـال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾» [العلـق: ١] أي: أنت ما تقرأ بدراسة وعلم سابق، إذ أنـك أمّـيٌّ، بـل اقـرأ باسـم ربـك الذي ربّاك، فأنت تقرأ باسم الله تعالى.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أي: خلق كـل شـيء ثم ذكـر أشـرف المخلوقـات﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ أي: فالذي خلق هذا الإنسان الفصيح العاقـل مـن علقـة، وطوّره، لهو قادر على أن يُفـيض عليـك يـا رسـول الله، ويعلمـك العلـوم والمعارف؛ وإن كنتَ أمّياً بالظاهر.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلـق: ٣] أي: أن الله تعـالى كـريم علـى خلقـه كلهم، ولكنه عليك يا رسول الله أكرم.

﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] أي: علم غيركَ بالقلم، فهو قادر علـى أن يعلمك بما هو أعظم، وبواسطة أفضل من القلم، وهو جبريل عليه السلام.

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٥] وهذه الآيات هي أول مـا نـزل مـن القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم توارد الوحي في فترة ثـلاث وعشرين سنة.

فضائل ليلة القدر
وفضائل تلاوة القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

يُبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة فضل شهر رمضان، الذي فرض الله تعالى على هذه الأمة أن تصومه، وذلك أنه سبحانه فرض على هذه الأمة أن تصوم أفضل شهر في السنة وهو: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾.

فلقد بَيّن سبحانه أن هذا الشهر هو ظرفٌ لتنزل القرآن فيه، فلقد أنزل الله تعالى القرآن بأنواره وأسراره وبروحه ومعارفه، وبمعانيه وهديه، أنزله في هذا الشهر، بل في أفضل ليلة من هذا الشهر وهي ليلة القدر، ولهذا بين الله تعالى فضلَ ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

فلقد أنزل سبحانه القرآن في أفضل شهر وهو شهر رمضان، وفي أفضل ليلة من شهر رمضان، وهي ليلة القدر؛ التي هي أفضل الليالي، أنزله على أفضل خلق الله وهو سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، نزل به أفضل الملائكة، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ

قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٤] وهو جبريل عليه السلام، ونزل في أفضل شهر وفي أفضل الليالي جملةً واحدة إلى السماوات ثم إلى بيت العزة في السماء الأولى، وأشرقت أنواره على الأرض، ثم بدأ ينزل أيضاً في ليلة القدر على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: بأنواره ورحماته ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أي: أنها ليلة ذات قدر وفضل، ولها شأن ومقدار كبير، وقد وصفها سبحانه في سورة الدخان بقوله: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ١ـ٤].

فليلة القدر هي ليلة قدر وفضل وشرف وفخر ومضاعفة أجر، ولهذا قال سبحانه: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ أي: أنّ العمل الصالح فيها خير من العمل الصالح في ألف شهر، وكذا التسبيحة فيها خير من التسبيحات في ألف شهر، وهكذا الأعمال الصالحة تُضاعف في تلك الليلة.

وقوله تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ أي: ليست هي كألف شهر بل أعظم، وإنما كانت هذه المضاعفة في هذه الليلة لأن الله تعالى وصفها بالبركة بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ [الدخان: ٣] فهي ليلة مباركة، يبارك الله في مضاعفة الأعمال أضعافاً كثيرة؛ تفوق العمل في ألف شهر، لأن فيها بركة لا يعلم حدَّها إلا الله تعالى، فلما صادف عمل المؤمن تلك الليلة؛ صادفَ ليلة فيها بركة ومضاعفة كثيرة لا يعلم حدها إلا الله تعالى.

ألا تراك إذا أخذت حبة حنطة وزرعتها في أرض كثيرة الماء، طيبة الهواء، فإنها تعطي أضعافاً كثيرة، أما إذا زرعتها في أرض أقل خصوبة

وماءً فإنها تعطي أضعافاً لكن ليست كتلك الأرض، ومِنْ هنا تفهم سرّ مضاعفة الأجر إلى أضعاف كثيرة في ليلة القدر، إلى ما هو خير من ألف شهر، لأنه وافق ليلة ذات قدر وفضل، وفيها بركة من رب العالمين لا يعلمها إلا الله تعالى.

وهذا من باب الفضل والمِنّة على هذه الأمة، أن الله تعالى تفضل على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إذ لما كانت أعمار هذه الأمة أقصر من أعمار السابقين من حيث الجملة، تَفَضَّل سبحانه على هذه الأمة فأعطاها ليلة في كل سنة؛ إن عملوا فيها صالحاً فقد عملوا عملاً أعظم من العمل في ألف شهر.

فلا تُضَيِّع نصيبك من تلك الليلة أيها المؤمن، والتمس تلك الليلة في العشر الأخير من رمضان، من ليلة الواحد والعشرين إلى ليلة العيد.

وعلى هذا فليلة القدر ليلة مقدار وفضل، دل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ كما أنها ليلة تقدير للأمور والحوادث الكونية، لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] أي: فيها يُفصل عن اللوح المحفوظ إلى صحف الملائكة في السماوات، حتى السماء الدنيا كلُ أمر محكم تدبيره وتنفيذه.

وقد فهم كثير من السلف أن ليلة القدر ـ أي: المقدار والفضل، والتي هي في العشر الأخير من رمضان ـ هي ليلة التقدير كما تقدم بيانه، إلاّ أن ليلة التقدير قد تفترق عن ليلة القدر في رمضان إلى ليلة أخرى، غالباً ما توافق ليلة النصف من شعبان، كما ورد عن بعض الصحابة بيان ذلك، وقد تكون في أحد ليالي السنة، إلا أنّها غالباً ما تكون في ليلة القدر التي هي في رمضان، فتكون ليلة قدر وتقدير.

قولـه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ ففي ليلة القدر مضـاعفات للعمل وتنزلات ملكية، وانفتاح باب الـروح الملكـوتي الربـاني علـى عـالم الدنيا الشهودي، فترتفع الحجـب، ويتصـل عـالم الشـهود بعـالم الغيـب، وعالم الخلق بعالم الأمر، وعالم المُلـك بعـالم الملكـوت، دل عليـه قولـه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تتنزل تـدريجياً ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ وهـو جبريـل عليـه السلام ﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: أن تنزلهم بأمر من الله، ولأجل أيِّ شيء تنزل ملائكة الله في تلك الليلة؟ قال تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: من أجل كل أمـر أمرهم الله بتنفيذه، فتنزل ملائكة بعد ملائكة، وجماعات بعد جماعـات إلى عالم الأرض، من أجل تنفيذ كل أمر أمرهم الله بتنفيذه. وما هو ذلك الأمر؟!

قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: أن هذا الأمر هو السلام، وهو أن يُبلغوا مـن حضرة القدوس السلام إلى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فتتنزل الملائكة بقيادة جبريل عليه السلام، وتأتي إلى بيوتات المؤمنين والمؤمنات، كمـا جـاء في الحـديث[1] «فَيَـأْتُونَ إلى المُصَـلِّينَ وَالعَابِـدين، والدَّاعِينَ والذَّاكِرين الله تعالى، وَيُبَلِّغُونهم سلاَمَ الله تعالى، وَيُؤَمِّنُـونَ عَلَـى دُعائهم» أي: يؤمِّن جبريل ومن معه مـن الملائكـة، وإذا أمَّـن مَلَـك واحـد على دعائك فهو مجاب، فكيف لو أمن جبريل ومن معه !.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا قال الإِمَامُ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فَقُولوا: آمينَ، فإنه من وَافَقَ قَوْله قَوْلَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِـرَ لَهُ ما تقدم من ذنبه»[2].

---

(١) تقدم تخريجه ص /٣٠٣/.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب جهر المأموم بالتأمين /٧٨٢/ (٢/٢٦٦)=

وذلك لأن تأمين الملائكة مجاب، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكة فاسألوا الله من فضله فَإِنَّها رَأَت مَلَكَاً»[1]. أي: ادعوا الله وسلوه عند صياح الديك، فإنه رأى ملكاً، ومن دعا بحضرة مَلَكٍ ـ أي: بحضوره وشهوده ـ أمَّن الملك على دعائه، وتأمينه مجاب فافهم.

وقد ورد في (شعب الإيمان) للبيهقي، وفي كتاب الثواب لأبي الشيخ[2] في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ أي: الملائكة مع جبريل عليه السلام، أنهم ينزلون إلى الأرض، ويأتون إلى بيوت المؤمنين ويسلمون على العابدين، ويُؤَمِّنون على دعائهم، حتى طلوع الفجر، لأن الله تعالى يقول: ﴿هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: أن ليلة القدر ليست محدودة بجزء من الليل، بل إنما هي ممتدة من أول الليل إلى طلوع الفجر، وذلك حتى لا يفوت المؤمن حَظُّهُ منها «فإذا طلع الفجر نادى جبريل عليه السلام: يا معاشر الملائكة الرحيل الرحيل» أي: فليرجع كل منكم إلى سمائه.

«فتقول الملائكة: وماذا صنع الله تعالى يا جبريل في حوائج المؤمنين من أمة أحمد صلى الله عليه وآله وسلم»؟

أي: أنه في تلك الليلة قد تَوجّه المؤمنون إلى الله بحاجاتهم، وطلبهم المغفرة والرضوان من الله تعالى، ولهم حاجات في الدنيا والآخرة.

=واللفظ له، ومسلم في كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين /٤١٠/ (٢/٥٨٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) رواه الإمام أحمد (٢/٣٢١) والبخاري في كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم.. /٣٣٠٣/ (٦/٣٥٠) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة /٢٧٢٩/ (٥/٢٦١٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخرجه ص /٣٠٣/.

«فيقول جبريل عليه السلام: إن الله تعالى نظر إليهم ـ أي: نظرة رضا ـ فعفا عنهم، وغفر لهم جميعاً إلا أربعة: مدمن خمر، وعاق لوالديه، وقاطع رحم، ومشاحن» أي: بينه وبين أخيه المؤمن شحناء وبغضاء، فلم ينل هؤلاء رحمة الله ومغفرة الله تعالى في تلك الليلة.

وإن في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ بياناً وإعلاناً لشرف هذا القرآن وعلوه، وأنه أفضل الكتب الإلهية، ولذلك أنزله الله تعالى في أفضل الأشهر، وفي أفضل الليالي، على أفضل خلق الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بواسطة أفضل ملك وهو جبريل عليه السلام، وقد نزل في أشرف البقاع وهي مكة والمدينة وما حولهما.

وفي هذا تنبيه للمؤمن أَنْ يُعَظِّمَ القرآن الكريم، لأن له الشرف الأعلى والأكبر، ومن جملة تعظيمه اتباع أوامره، واجتناب مناهيه، والعمل بهديه، وهذا هو تعظيم المعاني القرآنية، وعلى المؤمن أيضاً أن يعظم القرآن بحروفه ونصوصه وآياته، فالمصحف مكرم معظم يجب على المؤمن أن يعظم صحف القرآن، لأن الله تعالى قال في وصفه وبيان علوه وشرفه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٢ـ١٦].

فالصحف القرآنية محترمة مكرمة في السماوات بين أيدي الملائكة، ويجب أن تكون كذلك في عالم الأرض.

ويقول تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢ـ ٣] فالصحف القرآنية مطهرة مكرمة معظمة، يجب توقيرها واحترامها.

وليحذر المؤمن أن يتهاون في تعظيم المصحف، أو أيّ صحيفة كتب فيها آية من آيات الله، أو اسم من أسمائه سبحانه، أو أسماء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وليحذر المؤمن أن يُلقي ذلك في الأرض، فإنه إذا رأى ذلك أو فعله ورضي به، فقد خرج عن الإسلام[1]، ويأثم إثماً كبيراً إذا رآها ولم يُزلها وهو قادر على إزالتها.

ولما جيء بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى هرقل عظيم الروم، وفيه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «مِنْ مُحمدٍ رَسُولِ الله إلى هرقل عَظِيْم الرُوم» قام هرقل وأخذ الكتاب، وقبَّل اسم رسول الله، ووضعه على رأسه، توقيراً وتعظيماً لكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2].

ولما مر الشيخ الكبير بشر الحافي رضي الله عنه ونفعنا به[3]، مر في طريقه فرأى ورقة فيها اسم الجلالة وقد أصابها التراب والغبار، فأخذها ومسحها وقبلها، وطيَّبها ورفعها في مكان عالٍ، فلما نام تلك الليلة أُتي في منامه فقيل له: رفعت اسمنا لنرفعن ذكرك في الملأ الأعلى.

[وقد فصل الكلام على هذا مولانا الشيخ الإمام الوالد رضي الله عنه في كتابه حول تفسير سورة الفاتحة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فارجع إليه].

---

(١) انظر (التراتيب الإدارية) للحافظ الكتاني (٢/ ٢٩٤).

(٢) ينظر (شرح المواهب) للحافظ الزرقاني عند أول الحديث عن مكاتبته صلى الله عليه وآله وسلم إلى الملوك وغيرهم. وانظر (فتح الباري) (١/ ٤٤).

(٣) الإمام العالم المحدث الزاهد الرباني القدوة، شيخ الإسلام، ولد سنة /١٥٢/ وتوفي سنة /٢٢٧/ رحمه الله تعالى ورضي الله عنه.

واعلم أن تلاوة القرآن من أعظم القربات إلى رب العالمين وفيها رفعة للدرجات، وكثرة للحسنات، ونزول للخيرات، وانجلاء للأنوار، وفتح باب الأسرار، ففيها قرب بعد قرب حتى تكون من أهل الله وخاصته.

ولقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم آيات متوالية، تتعلق بفضل القرآن الكريم وهي في سورة فاطر فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ـ ٣٠].

وتسمى هذه الآية والتي تليها آيات القراء لأنه فيها بياناً لفضلهم وشرفهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يقرؤونه نصاً، ويحققونه عملاً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إذ أن أهم الأوامر الشرعية القرآنية هي الصلاة والزكاة، تتبعها بقية الأوامر والمناهي الشرعية.

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: هذه هي التجارة التي لا تبور، أي: لا تهلك ولا تخسر بل إنها رابحة مضاعفة.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: في مقابل أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ ومن جملة هذه الزيادة أن يشفعهم في عشرة من أهل بيتهم قد استحقوا العذاب، فيشفع القارئ بهم حتى يدخلوا الجنة.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: في شأن القارئ العامل ـ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاسْتَظْهَرَهُ، فَأَحلَّ حَلاَلَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، أَدْخَلَهُ

اللهُ الجَنَّةَ، وشَفَّعَه فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهم وَجَبَتْ لَهُمْ النَّارُ»[1] ويشمل هذا قراباته من العصاة.

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ بأن يتجلى لهم بالرؤيا سبحانه وتعالى، وهذا أعظم جانب للفضل الإلهي.

ثم بين سبحانه فضل هذا القرآن فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر: ١١] أي: أن هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك يا رسول الله هذا هو الحق إذ يخبر عن حقائق الأمور ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فما ترك أمراً إلاَّ وبينه، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من التوراة والإنجيل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١] أي: أن الله تعالى خبير بعباده فهو يعلم أن هذا القرآن لا يليق أن ينزل إلا على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن التوراة تنزل على موسى عليه السلام فهو أهل لها، والإنجيل ينزل على عيسى وهو أهل له، وأما هذا القرآن الكريم فليس هناك من هو قابل له، ومستعد إليه، وأهل لأن ينزل عليه إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلقد نزله الله تعالى عن علم وخبرة بقلوب عباده واستعداداتهم وقابلياتهم.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن الكريم، باب ما جاء في فضل قارئ القرآن /٢٩٠٧/ (١١٢/٨)، وابن ماجه /٢١٦/ عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [فاطر: ٣١] فهو الذي نَزَّل عليك القرآن خاصة يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنك أهل لذلك.

وَمِنْ علمه سبحانه وخبرته أنّ الأمة التي ترِث هذا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إنّما هي أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو سبحانه العليم الخبير أنه لا يرث هذا الكتاب عن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلاَّ هذه الأمة، التي هي أفضل الأمم على الإطلاق فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ [فاطر: ٣٢] أي: ورَّثْنَا هذا الكتاب النازل عليك يا رسول الله، ورثناه أفضل أمة قد اصطفيناها على غيرها، وهي أمتك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأورثناها هذا الكتاب عنك يا رسول الله.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ أي: حكمنا أنّ هذه الأمة هي التي ترث عنك القرآن والكتاب يا رسول الله. أو المراد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ أي: ثم نُورِّثْ، أطلق الماضي وأراد الاستقبال.

ويا نِعمَ هذا الميراث الذي تركه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمته، فما على الأمة إلاَّ أَنْ تُحافظ عليه: اعتقاداً، وعملاً، وتخلقاً، وأدباً.

ولما مر أبو هريرة رضي الله عنه، وذلك بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مر في السوق، فرأى جماعة من التابعين تجاراً يشتغلون في تجاراتهم ـ لكنه اشتغال فيه انشغال كلي ـ فقال لهم: أنتم هاهنا وميراث محمد صلى الله عليه وآله وسلم يُقْسَمُ في المسجد؟!

فانطلقوا إلى المسجد، فرأوا جماعة من الصحابة يقرؤون القرآن فيما بينهم، فرجعوا إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقالوا: ما رأينا ميراثاً يقسم، رأينا قوماً يقرؤون القرآن!

قال: ويحكم، ذلك ميراثُ نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم[1].

ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم يوم حجة الوداع[2]: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قد تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعتصمتم بِهِ فلَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أبداً، كِتَابَ الله تعالى، وسُنَّةَ نَبِيِّهِ» صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا هو ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي ورثة للأمة حتى تعمل به، ولا شك أن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ملازمة للقرآن لأنها بيان للقرآن، ولا بد للقرآن الكريم من بيان، ولا يؤخذ بيان القرآن إلاَّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال الله تعالى له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ولقد بين الله تعالى القرآن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمره أن يُبينه للناس، ولهذا كان القرآن والسنة متلازمين لا ينفكان عن بعضهما.

ولقد سلَّم الله تعالى على هذه الأمة المتبعة سلاماً خاصاً، كما سلم على الرسل سلاماً خاصاً، وَسَلّم سبحانه على جميع المؤمنين سلاماً عاماً.

أما سلامه سبحانه على الرسل فقال تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨١-١٨٢].

وقال تعالى في أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النحل: ٥٩] أي: وهم اتباع

(١) رواه الطبراني في (الأوسط) (مجمع الزوائد) (١/١٢٣و١٢٤).

(٢) كما في (المستدرك) (١/٩٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين قال فيهم: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

وسلّم سبحانه على جميع المؤمنين، وجميع الأمم سلاماً عاماً فقال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨] وهم المؤمنون الذين يَلدون من أولادك، لأنّ البشرية محصورة في أولاد نوح عليه السلام، ولم يحصل نسل مِمَّنْ ركب في السفينة إلا من أولاد نوح عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وقد تفرعت الأمم كلها من أولاد نوح عليه السلام، كما في الحديث[1]: «سَام أبو العَرَبِ، وَ حَامٌ أَبُو الحَبَش، ويَافث أَبُو الرُوم».

فالمؤمنون من هذه الأمم إلى يوم الدين لهم سلام الله تعالى، وأما الكافرون فقال تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية [فاطر: ٣٢].

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: أن هذه الأمة التي ورثت القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان منهم ظالم لنفسه، وهو الذي لم يعمل بموجب الميراث، فارتكب بعض مناهي القرآن، أو ترك بعض أوامره، فيقال: إنه ظالم لنفسه، لأنّ الظالم لنفسه هو مَن فوّت على نفسه ما ينفعها، وما فيه سعادتها، أو عَرَّض نفسه للهلاك والعذاب.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/٩و١١)، والترمذي في كتاب المناقب، في فضل العرب /٣٩٢٧/ (٩/٤١٨) عن سيدنا سمرة بن جندب رضي الله عنه.

ألا ترى إلى الذي أُتيحت له أرباح طائلة في تجارته؛ ولكنه أعرض عن بيعها، حتى فسدت بضاعته وهلكت؛ فباعها بخسارة، وكان بوسعه أن يبيعها بربح، ألا يقال عن هذا: ظالم لنفسه؟ لأنّه فوَّت على نفسه الفائدة والربح.

وكما لو أتيح لرجل مُضْطّر إلى الغذاء، أتيح له طعام شَهِيّ متنوع وأعرض عنه، فيقال: إنه ظالم لنفسه، لأنه فَوّت على نفسه ما ينفعها وعرضها للضرر والفساد.

فالظالم هو الذي يَحرم نفسه ما ينفعها، وإذا كنت لا تفهم هذا إلا بالأكل والشرب والمال، فاعلم أنَّ هذا القرآن هو مأدبة رب العالمين، وفيه أنواع من المنافع والسعادة للبشر، وإذا تركت واحدة منها أضررتَ بنفسك، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ هَذَا القُرْآنَ مَأْدُبَةُ الله فَاقْبَلُوا مَأْدبته مَا استَطَعْتُمْ»[١].

أي: أَقْبِلْ على مأدبة رب العالمين التي فيها ألوان من الأطعمة والأغذية، والسعادات الروحية والنفسية، والفكرية والعقلية والجسمية، والدنيوية والأخروية، ولا تحرم نفسك واحدة منها، بل أَقْبِلْ عليه ما استطعت، وإذا تركت لوناً نافعاً لك فيقال: أنتَ ظالم لنفسك. وهذا وصف كل مَنْ ترك أمراً من أوامر القرآن، أو ارتكب نهياً من مناهيه؛ لأنه فوَّت على نفسه ما ينفعها ويُسعدها، وَحرَم نفسه من مأدبة الله تعالى، والمأدبة هو المكان الذي فيه كل ما ينفع النفس من ألوان الأطعمة والأغذية والأشربة.

---

(١) طرف من حديث رواه الحاكم في (المستدرك) (١/ ٥٥٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وإنما ذكر الظالم لنفسه أوَّلاً لأجل التحذير والتنفير، وحتى يتجنب هذا الإنسان الذي جعله الله مِن الأمة المصطفاة، الذين ورثوا الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يتجنب الوقوع فيما نهى الله، أو الترك لما أمر الله تعالى، وما أقل حياء من أكرمه الله تعالى، بأن جعله من هذه الأمة المصطفاة، ثم راح يُضَيِّع هذا الميراث العظيم، الذي وَرِثَتْهُ هذه الأمة عن رسولها صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو الذي تمسك بالأوامر، وانتهى عن المناهي، وليس عنده كثرة نوافل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ﴾ أي: يعمل بالأوامر وينتهي عن المناهي ويعمل بالنوافل، ويتخلق بأخلاق القرآن، ويتأدب ويسعى في طُرق القرب إلى الله تعالى، فهو من السابقين المقربين، وهو في أعلى المراتب.

ففي هذه الآية بيان من الله تعالى لهذه الأمة عن شرف ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن تحافظ على هذا القرآن: تلاوةً وعملاً وتخلقاً وتأدباً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ ما يدل على أن تلاوة القرآن قُربة إلى الله تعالى، لأنّه سبحانه خَص التلاوة بالذكر، ثم قال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [فاطر: ٢٩].

وَمَنْ قرأ القرآن أعطاه الله تعالى بكل حرف يقرؤه حسنة، وَتُضاعف إلى عشر حسنات، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ قَرأَ حَرْفاً مِنْ

كِتَابِ الله تعالى فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا»[١] وتكون المضاعفات فوق العَشر على حسب الفهم والتدبر والخشوع في التلاوة.

كما أنّ تلاوة القرآن قربة إلى الله تعالى، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ للهِ أَهْلِيْنَ مِنَ النَّاسِ».

قِيْل: مَنْ هُم يا رسول الله؟

قال: «أَهْلُ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»[٢].

فإذا أردت أن تكون من أهل الله، بل من خاصة أهل الله تعالى فقد أرشدك إلى طريق ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي المواظبة على تلاوة القرآن الكريم.

كما أنّ في تلاوة القرآن قضاءً للحاجات الدنيوية والأخروية، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الرب تبارك وتعالى: مَنْ شَغَلَهُ القُرآنُ عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وفَضْلُ كَلاَمِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الكَلام كَفَضْلِ الله علَى خَلْقِهِ»[٣].

أي: من انشغل بتلاوة القرآن عن سؤاله لله في حاجته، فإن الله تعالى يعطيه أفضل ما يعطي السائلين له، لأنّ تلاوة القرآن هي دعاء وسؤال الله، واستنزال لرحماته سبحانه.

ومن فضائل تلاوة القرآن الكريم أنه يشفع في قارئه في القبر والحشر

---

(١) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر /٢٩١٢/ (٨/١١٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن ماجه /٢١٥/ والحاكم (١/٥٥٦) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن /٢٩٢٧/ (٨/١٢٥) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والحساب، وفي الحديث [(١)]: «إن سُورَةً مِنْ الْقُرْآنِ ثَلاثُونَ آيَـةً شَـفَعَتْ لِرَجُـلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وهي سُورَةُ ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» أي: سورة الملك.

وقال فيها صلى الله عليه وآله وسلم: «هِيَ المَانِعَةُ هِـيَ المنجية تُنْجِيـهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ»[(٢)].

وفي الحديث [(٣)]: «يَجِيءُ صاحِبُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَيَقُـولُ الْقُـرْآنُ» أي: تلاوته للقرآن: «يَا رَبِّ حَلِّه» أي: هذا القـارئ «فَيُلْـبَس تَـاجَ الْكَرَامَـةِ، فيَقُولُ الْقُرْآنُ: يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيُلْـبَسُ حُلَّـةَ الْكَرَامَـة، ثم يقـول: يَـا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيَرْضَى عَنْهُ. فيقال له: اقْرَأْ وَارْقَ، وتزاد بِكُلِّ آية حَسَنَةً».

وتلاوة القرآن تُنزِّل ملائكة الله تعالى على البيت الذي يُقرأ فيه:

فقد روى الدارمي وغيره ـ ما بين موقوف ومرفوع[(٤)] ـ عن النبي صـلى الله عليه وآله وسـلم: «إِنَّ البَيْـتَ إذا قـرئ فِيـهِ القُـرْآنُ حضـرته المَلائِكَـةُ،

---

(١) رواه أبـو داود في كتـاب الصـلاة، بـاب في عـدد الآي /١٤٠٠/ (٢/١١٩)، والترمذي /٢٨٩٣/، وابن ماجه /٣٧٨٦/ وغيرهم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في (سنن) الترمذي في كتاب ثواب القرآن، باب مـا جـاء في فضـل سـورة الملك /٢٨٩٢/ (٨/١٠٣) عن سيدنا عبد الله بـن عبـاس رضـي الله عنـهما، ولورود الحديث قصة تنظر هناك.

(٣) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن /٢٩١٦/، والحاكم (١/٥٥٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه الدارمي في (سننه) في كتاب فضائل القرآن الكـريم (٢/٤٠٩) عـن سـيدنا أبي هريرة موقوفاً ـ وله حكم المرفوع لأنه لامجال للرأي والاجتهاد فيه كما هو معروف عند السادة المحدثين ـ ورواه الإمام محمد بن نصر المروزي في كتابـه قيام الليل ـ واللفظ له ـ مرفوعاً عن سيدنا أنس رضي الله عنه. انظر مختصر كتابه للقزويني ص /٧٤/.

وَتَنَكَّبت عَنْهُ الشَّيَاطِينَ» أي: تباعدت «واتسع عَلَى أَهْلِه، وكَثرُ خَيْرُهُ، وَقَلَّ شَرُّهُ، وإنَّ البَيْتَ إذا لم يُقْرأ فِيهِ القُرْآنُ حضرته الشَّيَاطِينُ، وَتَنَكَّبت عَنْهُ المَلاَئِكَةُ، وضاقَ عَلَى أَهْلِهِ، وقل خيره، وكثر شَرُّهُ».

ولما رأى الصحابة أنواراً كهيئة المصباح فوق دار ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال لهم: «لَعَلَّهُ قَرَأَ اللَّيْلَةَ سُورَةَ البَقَرَةِ» ولما سألوا ثابتاً كان الأمر كذلك[1].

كما أن الملائكة تزور قبر قارئ القرآن الكريم، فقد روى الحافظ السِّلَفيّ في البُلدانيات ـ أي: أربعون حديثاً سماها البلدانيات. لأنه تلقاها عن أربعين شيخاً من شيوخ المحدثين، من أربعين بلداً ـ روى عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ تَعَلَّمْ القُرْآنَ وَعَلِّمْهُ النَّاسَ، فَإِنَّكَ إِذَا مِتَ وَأَنْتَ كَذَلِكَ زَارَتِ المَلائِكَةُ قَبْرَكَ كَمَا تَزُورُ البَيْتَ العَتِيْقَ».

ولا عجب في هذا، فكما أن الملائكة تزور بيت القارئ في الدنيا، فإنها تزور قبره في البرزخ.

وإن البيت الذي يُقرأ فيه القرآن تَشِعُّ فيه أنوار الحق، وتضيء إلى أهل السماوات، وينتهي نورها عند عرش الله تعالى، كما تقدم في حديث ثابت بن قيس رضي الله عنه[2].

ولا يرى هذه الأنوار إلا أصحاب البصائر النافذة، كالصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

---

(١) الخبر من تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسيره لأول سورة البقرة.

(٢) قبل أسطر.

وروى الحكيم الترمذي[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن في بيُوتَاتِ المُؤمنِيْنَ لمصابيح إلى العرش ـ أي: لمصابيح تضيء إلى العرش ـ يَعْرِفُهَا مُقَرَّبو الملائكة من السَّمَاوَاتِ السبْعِ ، يَقُولُونَ: هَذَا النور مِنْ بِيُوتَاتِ المُؤمِنِينَ الَّتِي يُتلى فِيْهَا القرآن».

فليكثر المؤمن من تلاوة القرآن في بيته، وَيَحْسُنُ أن يجهر به حيث لا مانع ولاضرر على مريض أو نائم.

وإن الله تعالى يستمع لقارئ القرآن، لأنه كلامه سبحانه، وأحب ما يكون إلى الله أن تقرأ القرآن بصوت حسن مقبول، مع مراعاة الأحكام والترتيل، ففي الحديث[2]: «لله أَشَدُّ أَذَنَـاً ـ أي: استماعاً ـ للرَّجُلِ الحَسَنِ الصوتِ بالقُرآنَ مِن صَاحِبِ القَينَة إلى قينته».

والقَيْنَة هي: الأمة المملوكة التي تُغني لسيدها.

ومن استمع الله تعالى لتلاوته فقد رضي عنه، وغفر له، وأحسن إليه، وما طريق هذا إلا بتلاوة القرآن وتحسين الصوت فيه.

ونسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا وأبصارنا، ونوراً محيطاً بنا من كل الوجوه والاعتبارات، وأن يوفقنا للعمل به وتلاوته، حتى نلقى الله وهو راض عنا. اللهم آمين .

* * *

---

(١) في كتابه (نوادر الأصول) في الأصل التاسع، عن سيدنا أبي هريرة وسيدنا أبي الدرداء رضي الله عنهما.

(٢) رواه الإمام أحمد (٦/ ٢٠)، وابن ماجه /١٣٤٠/، وابن حبان /٧٥١/، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٥٧١) عن سيدنا فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

ومن فضائل شهر رمضان

مضاعفة الأجر فيه

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ٨٥].

فلقد بَيَّن سبحانه في هذه الآية الكريمة، بين لعباده فضل شهر رمضان، وفضل هذا القرآن الذي أنزله في شهر رمضان، وأمر في هذه الآية بصيامِ شهر رمضان، وفي هذا بيان للأمة أنّ شهر رمضان هو الذي أُنزل فيه القرآن، فنال فضلاً على سائر الأشهر، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «سَيِّدُ الشُّهُورِ شَهْرُ رَمَضَانَ، وأعظمها حرمة ذو الحجة»[1].

وقد فرض الله سبحانه صيام سيد الشهور على أفضل أمة وهي أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإن لشهر رمضان عدة من الفضائل والخصائص، فهو شهر الرحمة والغفران، وشهر الكرم الإلهي والإحسان، وشهرٌ نزل فيه القرآن بروحه وأنواره وأسراره، وبرحماته وشفائه، ووعظه وتذكيره، وهديه وبَيِّنَاته، وجميع هذه المناقب التي جاء بها القرآن إنما نزلت في شهر رمضان، ولهذا صار هذا الشهر ظرفاً جامعاً لآثار أنوار القرآن وأسراره وخصائصه، وهذا لأن تجليات الحق سبحانه وتنزيلاته للأوامر الإلهية، لها آثارها في الأيام والشهور.

---

(١) رواه البزار عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كما في (مجمع الزوائد) (١٤٠/٣) وفيه قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (سيد الشهور شهر رمضان، وسيد الأيام يوم الجمعة) وعزاه للطبراني في (الكبير).

فالزمان ظرف للمعاني، كما أن المكان ظرف للماديات والمحسوسات، كما أن الأواني المعروفة ظروف للماديات، ولهذا كان ظرف القرآن الذي نزل فيه بأسراره وأنواره هو شهر رمضان، ونال الفضل على غيره من الشهور.

وإن لله تجليات على عباده في رمضان، يتجلى بالمغفرة والرحمة وإجابة الدعاء، والإحسان إليهم، وإعتاقهم من النار، وبترقية الدرجات، وبتكفير السيئات، فهو سبحانه يتجلى فيه ما لا يتجلى في بقية الأشهر.

ولقد نبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا الموسم الكبير وهو موسم شهر رمضان، أن يغتنمه المسلم، وأن لا يضيعه بالقيل والقال، والملاهي الباطلة، أو بالنوم الكثير، أو الانشغال بتهيئة الأطعمة والأشربة.

وليعلم المؤمن أَنّ شهر رمضان موسم للتجارة التي لا تبور، ينهض فيه أصحاب الجد والعزائم إلى الإكثار من عبادة الله وطاعته، وفعل الخيرات، لأن الثواب يَتضاعف في هذا الشهر، وإنّ تسبيحة في شهر رمضان تُعادل سبعين تسبيحة في غير رمضان، وركعة في رمضان تعادل سبعين من النوافل في غير رمضان، وهكذا فإذا كان أهل الدنيا حريصين على اغتنام أيام المواسم لتزيد أرباحهم، وتنمو تجاراتهم، فعلى المؤمن أن يَعلم أن الدنيا وما فيها باق فيها، ومصيره إلى الهلاك، ولا ينفعه إلا ما ابتغى به وجه الله تعالى.

وينبغي على العاقل أن يغتنم مواسم مضاعفات الأجور، وأوقات تجليات الحق سبحانه على عباده بالمغفرة والرضوان، وهذا ما يكون في شهر رمضان.

ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد أقبل شهر رمضان ـ بعد أن صعد المنبر فقال: «أَتَاكُمْ رَمَضَانُ، شهر بركة، يَغْشَاكُمْ اللهُ تعالى فيْه» أي:

يتجلىٰ عليكم ويتغشاكم برحمته وغفرانه «فَيُنَزِّلُ الرَّحْمَةَ، وَيَحطُّ الخَطَايَا، وَيَسْتَجِيْبُ الدُّعَاء، يَنْظُر اللهُ إِلى تَنَافُسِكُم» أي: إلى تسارعكم في فعل الصالحات «وَيُبَاهِي بِكُمْ مَلائِكَتَهُ» وكفى المؤمنُ الصائم مَفخرة أَنْ يباهي الله به ملائكة السماوات وحملة العرش، لأنَّ مَنْ باهى الله به الملائكة فقد ثَبتت له السعادة أبد الآبدين.

ثُمَّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَأَرُوا الله تعالى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْراً، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ فيه رَحْمَةَ الله عز وجل»[1] أي: أن الشقي وهو المحروم الحقيقي مَنْ حُرِم رحمة الله في هذا الشهر، لأنه أضاعه في الشهوات والأباطيل، وحَرَمَ نفسه خيرات ورحمات رمضان، ولم تشمله مغفرة الله لعباده في شهر رمضان.

وروى البيهقي[2]، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضانَ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ نبي قبلي - وفي رواية «أمة قبلهم» -: أَمَّا وَاحِدَةً: فَإنه إذا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شهر رَمَضَانَ نَظَرَ الله عز وجل إِلَيْهِم» أي: نظرة رضاً ورحمة «وَمَنْ نَظَرَ الله تعالى إِلَيْهِ لم يُعَذِّبه أبداً».

وإذا قيل: كيف ينظر إليهم وهم في أول ليلة لم يصوموا بعد؟

فيقال: إن الله تعالى يَعلم القلب الذي نوى الصيام وعزم عليه.

«**وأَمَّا الثَّانيةُ**: فَإِنَّ خلُوفَ أَفْوَاهِهِم حِيْنَ يُمْسُونَ أَطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ رِيْح

---

(١) رواه الطبراني في (الكبير) كما في (مجمع الزوائد) (٣/١٤٢) عن سيدنا عبادة ابن الصامت رضي الله عنه.

(٢) في (شعب الإيمان) /٣٣٠٣/ (٣/٣٠٣) عن سيدنا جابر رضي الله عنه، وله شاهد عند الإمام أحمد (٢/٢٩٢) وانظر (مجمع الزوائد) (٣/١٤٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر (الترغيب) للحافظ المنذري (٢/٢٠و٢١).

المِسْكِ» أي: أن رائحة الفم المتغيرة والتي يكرهها الصائم ومن حوله، لكنها عند الله وملائكته في ذلك العالم أطيب من ريح المسك، وإن كان مظهرها الآن كريه، إلا أن معناها وحقيقتها طيبة.

«وَأَمَّا الثالثة: فإِنَّ المَلاَئِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ في كُلِّ يَوم وَلَيْلَةٍ» واستغفار الملائكة محقق الإجابة، لأنهم لا يفعلون إلاَّ ما يؤمرون.

«وأمَّا الرَّابِعَةُ: فَإِنَّ الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها: اسْتَعِدِّيْ وَتَزَيَّنِيْ لِعِبَادِي، أَوشَكَ أَنْ يَسْتَرِيْحُوا مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا إِلى دَارِي وكَرَامَتِي» فيأمر سبحانه الجنة بالتهيؤ تكرمة للصائمين العابدين.

«وأمَّا الخَامِسَةُ: فَإنه إذا كَانَ آخِرَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضانَ غَفَرَ اللهُ لَهُمْ جَمِيْعَاً» الحديث.

هذا وعلى المؤمن أن يصوم ممتثلاً أمر ربه، وأن يكون صيامه مبنياً على الإيمان بالله، ولأن الله تعالى أمره بالصوم، وأن يعلم أن أوامر الله تعالى فيها مصالح ومنافع البشر في الدنيا وفي الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] أي: خير لكم في دنياكم وآخرتكم، وهذا عندما كان الصوم بالتخيير لمن أراد أو بدفع الفدية، ثم نسخ هذا الحكم وفرض صيام رمضان إلا على المريض والمسافر ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] يصومونها في غير رمضان.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في إرشاد الأمة إلى استكثار الخيرات وفعل الطاعات في شهر رمضان، فقال يوماً للصحابة: «احْضُرُوا المِنْبَرَ».

قال كعب بن عُجرة رضي الله عنه: فحضرنا.

فلما ارتقىٰ درجة قال: «آمين»، فلما ارتقىٰ الثانية قال: «آمين»، فلما

ارتقى الثالثة قال: «آمين» فلما نزل قلنا: يا رسول الله لقد سمعنامنك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه.

فقال: «إن جبْرِيل عَرضَ لِيَ فَقَال: بَعُدَ مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قلت: آمين» أي: أن رجلاً أدرك رمضان ولم يتب إلى الله ولم يستغفر الله، بل بَقِيَ مُصِرّاً على ذنوبه ومعاصيه، ولم يغتنم هذا الموسم الكبير للمغفرة والإحسان والقرب من الحنّان المنان، فمثلُ هذا بعيدٌ عن رحمة الله تعالى.

«فلما رَقِيْتُ الثَانِيَةَ قَالَ: بَعُدَ مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، فَقُلتُ: آمين» وهذا لأن الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم قربة إلى الله تعالى، بل هي من أعظم القربات، وَمَنْ ترك القُرب صار في البعد، إذ بَعُدَ عن رحمة الله تعالى.

«فلَمَّا رَقِيْتُ الثَالِثَةَ قَال: بَعُدَ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ الكبر أو أَحَدُهُمَا عِنْدَهُ فَلَمْ يُدْخِلاَهُ الجَنَّةَ، قلت: آمين»[1] أي: من أدرك أبويه الكبر أو كلاهما وقصَّرَ في حقهما أو عصى أمرهما، أو صدرت منه جفوة نحوهما، ولم يبتغ رضاهما ودعاءهما، فمثل هذا بعيد عن الله وعن رحمة الله، لأن الله تعالى أمر ببر الوالدين والإحسان إليهما، وإنَّ من أعظم مقامات القرب إلى الله تعالى أن يَبَر المرء أبويه ضمن حدود الشريعة. أما إذا كان أمرهما فيه مظالم تتعلق بزوجك أو ابنتك أو ولدك فليست طاعتهما حينئذٍ واجبة، وليست من البر، إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل»[2].

---

(١) رواه الحاكم (٤/١٥٣) وله شواهد كثيرة انظر (الترغيب) للحافظ المنذري، وكتاب (الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم) للشيخ الإمام، فقد جمع رحمه الله تعالى فيه طرق هذا الحديث الشريف.

(٢) الحديث في (المسند) (١/٤٠٩) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه و(٥/٦٦) عن سيدنا الحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه.

ومن فضائل شهر رمضان أن الله تعالى يستجيب فيه الدعاء، كما روى الترمذي[1] عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حِيْنَ يُفْطِرِ»

وفي رواية[2]: «الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ» أي: مادام صائماً فدعاؤه مجاب، وإذا أفطر فدعاؤه مجاب، فكان إجابة فوق إجابة.

«وَالإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُوم».

فعلى الصائم أن يدعو ربه حين إفطاره، ولا يُشترط الدعاء في أول شَربة يُفطر بها، إذ أَنَّ الله تعالى وعده بإجابة دعوته حين يفطر، فله أن يدعو في أول إفطاره أو آخره، فلا تُضَيِّق رحمة الله عليك، إذ لو نسيت الدعاء أول إفطارك فادعه متى ذكرت، في أول إفطارك أو آخره، وليكن دعاؤك وسؤالك لله تعالىلأعظم أمر تحتاجه، وهو طلب العفو والعافية في الدنيا والآخرة، وأن يُثَبِّتَ عليك إيمانك، وأن يزيدك إيماناً وصلاحاً وقوة على عبادته، ثم تسأله سبحانه تيسير وقضاء حاجاتك الدنيوية، حتى لا تشغلك الدنيا عن عباداتك وطاعاتك لله تعالى.

واحرص أن تعمم في دعائك كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وعلى هذا: فشهر رمضان نزل فيه القرآن، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾

---

(١) في أول كتاب صفة الجنة ـ جعلنا الله من أهلها آمين ـ باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها في حديث طويل /٢٥٢٨/ (٧/٢١٠) وفي كتاب الدعوات /٣٥٩٢/.

(٢) عند الإمام أحمد (٢/٤٤٥) وابن ماجه /١٧٥٢/ كلهم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

[البقرة: ١٨٥] فنزل هذا القرآن بروحه وأسراره وأنواره، وشفائه ورحماته، وهديه ووعظه وتذكيره وبيناته.

وقد نزل جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا ـ أي: من سماء إلى سماء إلى السماء الدنيا ـ وهذا كله ليلة القدر، وبدأ ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة القدر أيضاً.

وقد بدأ تنزله إلى عالم العرش، ثم الكرسي، ثم السدرة، ثم سماء فسماء حتى السماء الدنيا، وفي هذا الإنزال إعلام لجميع الملائكة عن هذا القرآن، وإطلاع لهم، لأنهم مأمورون أن يتعبدوا ربهم ويتقربوا إليه بتلاوة القرآن، ومنهم المأمور بتنفيذ أوامر القرآن، وعقوبات القرآن للظالمين، وإعطاء خصائص القرآن لِمَنْ قرأه، فكان من الحكمة أن يتنزل من سماء إلى سماء حتى تطلع عليه ملائكة السماوات.

ويقول تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ الآية [عبس: ١٥ـ١٦]

أي: إن هذا القرآن في صحف مطهرة ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ﴾ أي: بين أيدي الملائكة يقرؤونه ويتقربون به إلى الله تعالى.

ولقد بَيّن صلى الله عليه وآله وسلم معنى قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ وهو: صاحب البيان عن القرآن فقال: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فيهِ وهو عليه شاق له أجران».

وفي رواية: «وَالَّذِي يَقْرَأُ يشتد عليه لَهُ أَجْرَانِ»[1]. أي: أن الذي يقرأ

(١) رواه البخاري في التفسير، تفسير سورة عبس /٤٩٣٧/ (٨/٦٩١)، ومسلم ـ واللفظين له ـ في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن /٧٩٨/ (٢/٨٧٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها وهو مروي عند أصحاب السنن.

القرآن بمهارة وسهولة، بضبطه وإتقانه، فهو مع الملائكة الذين يقرؤون القرآن، وأما الذي يقرؤه وهو شاق عليه بمخارجه وإتقان حروفه، فله أجران: أجر التلاوة وأجر الصعوبة والمشقة، إلا أنّ ذلك أفضل وأعلى، إذْ هو مع السفرة الكرام البررة. ومن أراد أن يلتحق بهم فليقرأ القرآن بضبط وإتقان، وتجويد وإحكام.

وقد نزل القرآن هُدى للناس، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

فهو هدىً للناس كلهم، يهديهم للتي هي أقوم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] أي: يهديهم للخصلة التي هي أقوم الخصال القيمة المستقيمة، ويهديهم إلى العقيدة التي هي أقوم العقائد القيمة المستقيمة، التي نزلت على من قبلنا.

ويهديهم للتي هي أقوم العقائد، وأقوم الأعمال، وأقوم الأخلاق وأقوم المعاملات، وأقوم الأحوال، فهو يهدي للتي هي أقوم على الإطلاق.

فماذا تتصور من أمر مستقيم قَيّم خلقي أو عملي، أو اعتقادي إلا والقرآن جاء يهدي لما هو أقوم وأحسن وأعظم، فلا هدي فوق هدي القرآن، وقد جاء القرآن بالهدي للتي هو أقوم، مع الدليل والبرهان على حَقِّيَّة ما جاء به، وفَرّق بين حَقِّيَّة ما جاء به وبطلان غيره، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] فالقرآن يهديك إلى الشيء، ثم يقيم الحجة والبرهان والبينات على ما هداك إليه، ويفرق لك بين الحق الذي جاء به، وبين الباطل الذي ينافيه.

ومن جملة ذلك هدي القرآن إلى توحيد الله، وأنه لا إله إلا الله،

وَيُبرهن لك على أنه حقاً لا إله إلا الله، بأنواع من الأدلة والبراهين، ويفرق لك بين الحق الذي هو لا إله إلا الله، وبين الباطل وهو الشرك بالله وتعدد الآلهة، ويُريك أنَّ لا إله إلا الله هو الحق، وأن ماعدا ذلك هو باطل.

وهذا البيان هو أحسن ما يكون في الهدي، وأقوم ما يكون، إذ أنه جاء بالهدي والدليل والبينات على الهدى، وبالفرقان بَيْنَ ما جاء به وهو الحق، وأن غيره هو الباطل، وأن كل ما خالف القرآن فلا دليل ولا برهان عليه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وإذا علمت هذا فما عليك إلا أن تتمسك بهذا القرآن، وتعمل بهديه، كما بَيَّن لك ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأرشدك إليه. فمن أراد أن يهتدي بهدي القرآن فعليه باتباع سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم، الذي كان خُلُقُه القرآن، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] أي: إذا أردتم الهدي بالقرآن فعليكم باتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو أعظم من تحقق بما جاء به القرآن، عملاً وهدياً، وخلقاً وأدباً.

واعلم أنه لا يمكن للإنسان أن يفهم القرآن أو يهتدي بهديه إلاَّ بواسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، فلقد أنزل الله تعالى عليه القرآن، وَبَيَّنَهُ له ثم أمره أن يُبين ذلك للناس، ويعلمهم أمر دينهم وأحكام شريعتهم. فالقرآن يأمرك بالصلاة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يذكر لك القرآن كيفية الصلاة، وعدد

ركعاتها وأوقاتها، ولكن الله علم ذلك رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال له قل للناس: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» الحديث[1]، وهكذا في الحج فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «خُذُوا عني مَنَاسِكَكُمْ»[2].

وكذا في الصيام والزكاة وغيرها من الطاعات والعبادات. ومن هنا تفهم أنه لا غنى لك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهديه وإرشاده، وَمَن اتّبع رسول الله حقاً فقد اتبع القرآن حقاً.

روى ابن حبان، والطبراني في (الكبير)[3] أنه صلى الله عليه وآله وسلم خرج يوماً على الصحابة فقال لهم: «أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إله إِلاَ الله وَأَنِي رسول الله» ؟

قالوا: بَلى.

قال: «فَإِنَّ هَذَا القُرْآنَ طَرَفُهُ بِيَدِ الله، وَطَرَفُهُ»أي: الآخر «بِأَيْدِيكُم، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فإنكم لن تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَداً».

وَمَا طريق التمسك بهذا الحبل إلا باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدم.

ومن عمل بهدي القرآن واتبع أوامره قاده إلى الجنة، ومن هجره ولم

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة /٦٣١/ (١١١/٢) عن سيدنا مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣٣٧/٣)، ومسلم في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر /١٢٩٧/ (١٣٣٣/٣)، وأبو داود /١٩٧٠/ عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) ابن حبان /١٢٢/ (١٦٦/١) والطبراني (مجمع الزوائد) (١٦٩/١) عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه.

يعمل به ساقه إلى النار، ففي الحديث[1]: «القُرْآنُ شَافِـعٌ مُشَـفَّعٌ، وَمَاحِـلٌ مُصَدَّقٌ» أي: مدافع عن صاحبه ومحام عنه بحق، ويدافع عن صاحبه بالحجج والبراهين فهو مصدَّق الحجة «فَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ للجَنَّـةِ، وَمَـنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلى النَّار».

فاعتبر أيها الإنسان وانظر ما هو موقفك مع هذا القرآن، فما نزل القرآن للهجران، ولكنّ الله تعالى أنزله للتلاوة والعمل بموجب ما تقرؤه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] أي: قراءة وعملاً.

واعلم أن هذا القرآن نزل معه نور من الله تعالى، بل ونزل وفيه النور، لِيُنَوِّر القلوب والعقول والأشباح والوجوه، وَمَنْ عمل به نوَّر الله قلبه وعقله، ونور الله سمعه وبصره، ووجهه وجسمه، وهذا أمر لا يخفى على كل ذي بصيرة، ألا ترى إلى وجوه أهل التقى والصلاح كيف استنارت بأنوار الإيمان والقرآن، وكذا آثار الظلمة الظاهرة على وجوه أهل الفسوق والفجور.

فإذا كان الأمر كذلك، وهو بَيِّنٌ ظاهر في المظاهر، فما بالك في القلوب والبواطن، إنه أعظم وأكبر.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ﴾ [التغابن: ٨] وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) رواه ابن حبان /١٢٤/ والبزار (مجمع الزوائد) (١/١٧١) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وقد عَلَّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمة دعاءً فيه توسل بالأسماء الإلهية كلها، على أمر عظيم وهو أن يجعل الله تعالى القرآن العظيم ربيع قلبك، ونور صدرك وبصرك، وجلاء حزنك، وذهاب همك وغمك، كما تقدم في الحديث[1].

وإذا صار ربيع القلب بالقرآن أينع وأثمر، وصار فيه الخَضار والنضار، والبهجة والجمال، وإذا ربَّع قلبك بالقرآن أنبت النبات الحسن، قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨] وقلبك بلدٌ كبير في جسمك، فإذا ربع بالقرآن أعطى الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة، واستنار بأنوار القرآن، حتى انجلت له المعارف والعلوم والأسرار، وهذا معنى: «ونُورَ صَدري».

وإذا جعل الله تعالى نور بصرك نوراً قرآنياً ربانياً، فإنك ترى الأمور بحقائقها، بخلاف مَنْ فَقَدَ هذا النور، فهو يرى كما ترى الحيوانات، وهذا شأن مَنْ عَمِيَ بصره عن القرآن، وَفَقَدَ نور القرآن.

ولقد نبه صلى الله عليه وآله وسلم إلى عظمة نور القرآن في القلوب، وعظمة نور القرآن على الوجوه، وعظمة نور القرآن في كِسْوة الجسم.

فاعتبر وفكر في قوله صلى الله عليه وآله وسلم، في الحديث الذي رواه أبو داود في (السنن) وأحمد في (مسنده)[2]: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا به، أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ضَوْؤهُ أعظمُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ في بيوت الدنيا، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهِ» الحديث.

---

(١) ص /٣١٧/.

(٢) (المسند) (٣/٤٤٠)، أبو داود في كتاب الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن /١٤٥٣/ (٢/١٤٨) عن سيدنا معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه.

أي: أنّ الله تعالى يكرم قارئ القرآن الذي عمل به إكراماً كبيراً ويتفضل عليه في نفسه، ويكرم الله والديه من أجله وبسببه، فيلبسهما تاجاً ضوؤه أعظم من ضوء الشمس لو كانت في بيوتكم. فما ظنك بنور القارئ العامل؟ إنّ نور قلبه أعظم من نور الشمس، وإنّ نور حلله وتيجانه يوم القيامة أعظم وأكبر، وهذا لأنّ نور القرآن انعكس في قلبه انعكاس النور في المرايا، وإن نور القرآن لا يُحَدُّ بِحَدٍّ ولا بكيفية، ومهما تصورت فهو أعظم وأجل.

وإذ عرفت هذا فافهم أن العمل الصالح وتلاوة القرآن تنفع والديّ القارئ فيكرمهما الله بسببه، ويُلبسهما تاجاً ضوؤه أعظم من ضوء الشمس. وكفاك بهذا دليلاً على انتفاع الأموات بما يُهدىٰ إليهم من تلاوة للقرآن، أو بعض سورة وأعظمها الفاتحة.

وإذا كان القارئ العامل الذي قرأ لنفسه قد أكرم الله والديه بسببه، فما بالك إنْ هُو وهب ثواب تلاوته لهما؟ فلا شك أن الفضل والثواب أعظم من باب أولى.

وَمِنْ هذا تَفْهم أيضاً عظمة نور قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونور عقله الشريف صلى الله عليه وآله وسلم من كل الوجوه والاعتبارات، إذ أنه كان أول مَنْزل للقرآن، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٤] فلا شك أن نوره صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من نور الشمس والقمر بما لا يقاس، بل أعظم من كل النَيِّرَات، وعن نور قلبه صلى الله عليه وآله وسلم استفاضت واستمدت القلوب، فاستنارت بأنوراه صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا قال تعالى في وصفه صلى الله عليه وآله وسلم وموقفه مع العالم: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] لغيره من العالمين صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره[1]، أن عمر بن الخطاب جاء يوماً ـ في أول أمر إسلامه ـ ومعه صحيفة فيها شيء من التوراة، وعرضها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنظر صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيفة وغضب، وتغير وجهه، فخاف عمر رضي الله عنه وعرف أن هذا لا ينبغي وقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً، وبالقرآن إماماً، ونعوذ بالله من الفتن.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كان مُوسَى حياً لَمَا وَسِعِهُ إِلاَّ أَنْ يَتْبَعَني، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كان مُوسَى حياً بَيْنَ أَظْهُرِكُم وَاتَّبَعْتُمُوه وتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ» أي: تكونوا ضالين «أنتم حَظِّي مِنْ الأُمَم وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنْ النَّبِيِّينَ» صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

أي: أنتم أيها الأمة المتبعة، أنتم نصيبي من الأمم. وفي هذا يفتخر صلى الله عليه وآله وسلم بأتباعه ـ اللهم اجعلنا منهم ـ وأَعْظِمْ وأنعم بهذه النعمة والفضل الإلهي علينا، أَنّ نبينا ليس كبقية الأنبياء، بل نبينا هو إمام الأنبياء والمرسلين، وسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم، فالفخر لنا بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويجب علينا أن نحمد الله ونشكره على هذا الفضل، وهو أَنْ جعلنا من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ففي الحديث[2]، أنه صلى الله عليه وآله وسلم مَرّ على رجل يقول: الحمد لله على دين الإسلام، وأن جعلني من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) (المسند) (٣/٣٨٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه و(٣/٤٧٠) عن سيدنا عبد الله ابن ثابت رضي الله عنه، وعزاه في (مجمع الزوائد) (١/١٧٣) لأبي يعلىٰ والطبراني.

(٢) عزاه في (الدر المنثور) (١/٣٧٤) إلى الخرائطي والبيهقي في (الدعوات) عن سيدنا منصور بن صفية رضي الله عنه.

فقال لـه صلى الله عليه وآله وسلم: «لَقَدْ شَكَرْتَ عَظِيْمَاً» أي: لقد شكرت الله وحمدته على نعمة وفضل عظيم تفضل به عليك، وهو أن هداك للإسلام، وجعلك من أمة سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى هذا فالقرآن فيه الكفاية والغاية، ويكفيك ويغنيك عن كل ما سواه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] أي: وفيه الغاية والسعادة والسيادة، وصلاح الدنيا والآخرة.

وإذا عقلت هذا فكيف تهجر القرآن وتبتغي الهدى في غيره؟!!

أما يكفيك أن الله تعالى قد بَيَّنَ لك فيه ما تحتاجه في سعادة دنياك وآخرتك، وذكر لك فيه من العلوم والحقائق التي يعجز المخلوق عن الإحاطة بها، فقال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقد بين ذلك صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديث كثيرة ، وأن من ابتغى الهدى في غير القرآن أضله الله، لأن خالق الخلق هو أعلم بمصالحهم ومنافعهم فشرع لهم ما فيه سعادتهم وفلاحهم، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ـ ٤] الإنسان هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي نزل عليه القرآن، وعلّمَه الله تعالى بيان القرآن، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ـ ١٩] أي: بيانه لك يا رسول الله.

ثم أمره سبحانه أن يبين للناس ما نزل إليهم على حسب ما يحتاجونه، وما فيه صلاحهم وسعادتهم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

أما ذكر آدم عليه السلام فقد جاء في الآيات بعدها من سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي: الإنسان الأول من حيث الجسم ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] فقد ذكر سبحانه الأب الروحاني الأول لبني الإنسان، ثم ذكر الأب الجسماني، وذلك لأن الأرواح مخلوقة قبل الأشباح، وإنّ أول روح خلقها الله تعالى هي روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونبأه في ذلك العالم [(١)].

ونسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يوفقنا لاتباعه صلى الله عليه وآله وسلم على أكمل الوجوه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

والحمد لله رب العالمين



(١) كما يدل لذلك الحديث الذي رواه ابن حبان في (صحيحه) /٦٣٧٠/ (١٠٦/٨) عن سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إني عند الله مكتوب بخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته» الحديث، وله شاهد عند الترمذي /٣٦١٣/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، والطبراني عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما في (مجمع الزوائد) (٢٢٣/٨) وينظر (كشف الخفاء) للإمام العجلوني.

الترغيب بقراءة القرآن الكريم
في شهر رمضان المبارك
والتوبة إلى الله تعالى

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

لقد فرض الله تعالى الصيام في كل الشرائع، إلاَّ أنه سبحانه خَصّ هذه الأمة بصيام أفضل شهر وهو شهر رمضان، وذلك لأنّ هذه الأمة هي أفضل الأمم، ورسولها هو أفضل الرسل صلى الله عليه وآله وسلم وشريعتها هي أفضل الشرائع.

وقد أنزل الله تعالى القرآن في هذا الشهر، وفي أفضل ليلة فيه، ونزلت معه ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، ونزلت معه الرحمات والأسرار والأنوار، فكان شهر رمضان ظرفاً لنزول القرآن وترك أثراً بخيراته وأنواره وروحه وأسراره باقياً إلى يوم الدين.

ولما كان جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تنزل معه ملائكة عظام، وقد ورد أنّ سورة الأنعام لمّا نزلت نزل معها ملائكة سدت آفاق الأرض كلها، وامتلأت الأرض بأنوار الملائكة(١)، ومن هذا تعلم فضل نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) كما روى الطبراني وغيره، انظر (مجمع الزوائد) (١٩/٧و٢٠) عن سيدنا عبد الله ابن عمر وسيدنا أنس رضي الله عنهم، وانظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي.

وإنّ في قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ تنبيهاً للأمة أن تعلم أن هذا الشهر شهر القرآن، فينبغي لهم أن يكثروا من تلاوة القرآن في هذا الشهر، فإنّ مَنْ أكثر من تلاوته في هذا الشهر، ضاعف الله لـه الأجر أضعافاً أكثر من المضاعفات في غير رمضان، ثم غرس هذا القرآن في قلبه وروحه وعقله، ثم فتح الله لـه مفاهيم ومعارف قرآنية ينالها بقراءة القرآن في هذا الشهر، لأنّ لتلاوة القرآن في هذا الشهر آثاراً أعظم من بقية الأشهر، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم، والسلف الصالح يكثرون تلاوة القرآن في هذا الشهر، وقد نقل أن الأئمة الأربعة المجتهدين رضي الله عنهم، وهم أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، كانوا إذا دخل شهر رمضان تركوا كل شيء من الأعمال وانصرفوا إلى القرآن، تلاوة وفهماً وتعلماً، حتى أنّ أحدهم كان يختم القرآن كل يوم وكل ليلة، وربما أكثر من ذلك، فكانوا أئمة في العلم، وأئمة في العمل رضي الله عنهم.

وإنّ شهر رمضان شهر الرحمة والمغفرة والإحسان والعتق من النار.

وقد بَيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن الله تعالى يعتق في كل يوم - وفي رواية وفي كل ليلة[1] ألفَ ألفِ رقبة من النار، فإذا كان آخر ليلة من رمضان أعتق في تلك الليلة مقدار ما أعتق في شهر رمضان كله[2]، وذلك لأن رمضان شهر الغفران والمنح الإلهية.

---

(١) كما في (سنن) الترمذي في كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل شهر رمضان /٦٨٢/ (٣/٤٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في (شعب الإيمان) للحافظ البيهقي /٣٦٩٥/ (٣/٣٣٥) عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

وإذا علمت ذلك فاغتنم هذا الموسم الكبير، وتب إلى الله تعالى من ذنوبك، وعاهد الله تعالى على أن لا تعود لها، واطرق أبواب رحمته سبحانه، حتى تشملك نفحات الحق في رمضان. ولا تكن من الذين حُرموا رحمة الله في هذا الشهر المبارك.



من فضائل شهر رمضان المبارك
مضاعفة الأجر والثواب فيه
وإجابة الدعاء

اعلم أن الله تعالى يُضاعف الحسنة إلى أضعاف كثيرة، ولكنّ مضاعفته سبحانه للعمل الصالح والقرض الحسن في رمضان إنما هي أضعاف ما هو مضاعف في غير رمضان، وقد ورد أن التسبيحة في رمضان تضاعف إلى سبعين، فإذا كان الله تعالى ضاعف الحسنة في غير رمضان إلى عشر، أو سبعين، أو سبعمائة، أو أكثر، فإنّها تضاعف في رمضان سبعين ما هي عليه من الأضعاف في غير رمضان.

أما ما ورد في المضاعفة العامة فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

روى الإمام أحمد في (مسنده)[١] عن أبي عثمان النهدي قال: بلغني عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إِنَّ اللَّهَ تعالى يُعْطِي عبده المؤمن بالْحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ» قَالَ: فقضي أني خرجت حاجاً أو معتمراً، فلقيته فقلت له: بلغني عنك حديث أنك سَمِعْتَ رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إن الله عز وجل يعطي عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة».

فقال أبو هريرة رضي الله عنه: لا، بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله عز وجل يعطيه ألفي ألف حسنة» ثم تلا قول الله تعالى: ﴿يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

---

(١) (٢/٥٢١).

أي: أنك سمعت ألفَ ألفِ حسنة، لكنّ الوارد الذي سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلْفَي أَلفِ حَسَنَة».

وهذه المضاعفات عامة، وهي تُضاعف في رمضان إلى سبعين ما ضوعفت إليه في غير رمضان، دل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ تَقَرَّبَ فِيْهِ» أي: في رمضان «بِخَصْلَةٍ مِنَ الخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّىْ فَرِيْضَةً فِيمَا سِواهُ، وَمَنْ أَدَّىَ فَرِيْضَةً فِيْهِ كَانَ كَمَنْ أدى سَبْعِيْنَ فريْضَةً فِيْمَا سِواه» الحديث[1].

وعلى المؤمن أن يسعى جاهداً في فعل الخيرات خاصة في شهر رمضان، وأن يتقرب إلى الله تعالى، وأن يُحَسِّن الظن به سبحانه، فإنّ مِنْ كرم الله تعالى أنه من ظن به خيراً أعطاه الله تعالى وحقق ظنه، ولا يَمنع هذا أن تنظر إلى تقصيرك مَنْ ناحية، ولكن من ناحية أخرى اطمع برحمة الله وحَسِّنِ الظن به، وأقبل عليه سبحانه راجياً منه كل خير ورحمة وفضل، ألا ترى إلى الحديث القدسي الذي أرشد فيه الله تعالى عباده إلى طريق القرب إليه وهي النوافل، كيف افتتحه سبحانه بقوله: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حين يذكُرُنِي»[2] وذلك حتى تتقرب إليه وأنت على حسن ظن به أنه يقربك ولا يقطعك، ويعطيك ولا يحرمك.

---

(١) رواه ابن خزيمة في (صحيحه) /١٨٨٧/ والبيهقي في (شعب الإيمان) /٣٦٠٨/ عن سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث قدسي رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] /٧٤٠٥/ (١٣/٣٨٤)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في أول كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار /٢٦٧٥/ (٥/٢٥٨٧)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب حسن الظن بالله تعالى /٣٥٩٨/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وجاء في الصحيح[1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَقُولُ اللَّهُ عز وجل: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي».

وفي رواية[2]: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إنْ ظَنَّ بي خَيْراً فَلَهُ، وَإِن ظَنَّ شَرَاً فَلَه».

فَمَنْ ظَنَّ بالله خيراً حَقَّقَ الله ظنه وأعطاه، وَمَن ظن به شراً عاد سوء ظنه عليه.

وفي رواية[3]: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حيث يَذْكُرُني».

وفي رواية[4]: «وَأَنَا مَعَهُ إذا دَعَاني».

«فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ» أي: جماعة «ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُ» أي: في جمع أعظم منه وأكثر، بأن يُثني عليك في الملأ الأعلى «وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ منه بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

وفي رواية[5]: «وَالله أَسْرَعُ بِالمَغْفِرَةِ».

---

(١) عند الإمام البخاري /٧٤٠٥/.

(٢) في (المسند) للإمام أحمد (٢/٣٩١)، وابن حبان /٦٣٨/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) عند الإمام مسلم في أول كتاب التوبة /٢٧٤٣/ (٥/٢٦٢٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) في (المسند) (٣/٢١٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه، وعند الترمذي /٢٣٨٩/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) عند ابن حبان /٣٧٧/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر (الفتح) (١٣/٥١٤) والله أعلم.

وليس المراد من قوله شبراً أو ذراعاً قُرب المكان، لأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن المكان والزمان، بل إن هذا من باب ضرب المثل في قرب العمل، والمعنى: أنه سبحانه يتقرب إلى العبد ضعف ما يتقرب إليه العبد. وهذا لأنه سبحانه كريم يُحب من العبد أن يتقرب إليه، فمن تقرب إليه قرَّبه ضعف ما تقرب إليه.

وما طريق التقرب إلى الله إلا العمل الصالح بأنواعه، ومن جملته الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩] مما يدل على أن السجود يقرب إلى الله تعالى، وكذلك الصيام قربة إلى الله تعالى، وكذا الزكاة، والحج، وذكر الله تعالى، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قربة إلى الله تعالى.

وعليك أن تعمل وتتقرب إلى الله تعالى وأنت على حُسن ظَنٍّ به سبحانه بأنه يتقبل منك، وأنه يُضاعف لك هذا العمل الذي عملته.

وفي الأثر عن الله سبحانه: «من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد ـ أي: مَنْ عمل ولو قليلاً أخذ الله بيده وقربه إليه ـ ومن تصرَّف بحولي وقوتي ألنت له الحديد، ومن أراد مُرادي أردت له ما يريد، أهل شكري أهل زيادتي، وأهل ذكري أهل مجالستي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أُقنطهم من رحمتي، إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب».

واعلم أن شهر رمضان شهر العطاء الإلهي، وإجابة الدعاء، فقد قال سبحانه في شأن الدعاء: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

فلقد أمر سبحانه عباده بدعائه، وتكفل لهم ووعدهم بالإجابة.

وَمِنَ المؤسف والمحزن أن كثيراً من المسلمين قد غفلوا عن الدعاء، وإذا دعوا الله دعوا قليلاً، وَرُبما أعرضوا عن الدعاء، وربما اعتقدوا أن الدعاء لا ينفع شيئاً، وما هذا إلا لانتشار الجهل بين المسلمين في أمور دينهم.

ولقد كان لنا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة، وأمرنا الله تعالى باتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثير الدعاء لرب العالمين، وإنّ الأدعية الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيرةٌ جداً، وكذا ذكر لنا سبحانه عن رسله وأتباعه فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقد ذكر سبحانه في صفة أوليائه أنهم يدعونه دائماً، كما دلت على ذلك كثير من الآيات، كما في آخر البقرة وآل عمران وغيرهما.

ومن جملة ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وإنّ من جملة ما وعد الله عباده على لسان رسله أن يجيب دعاءهم، وهو سبحانه لا يُخلف الميعاد، وقد وعد بالإجابة في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ [غافر: ٦٠] .

واعلم أن الدعاء عبادة لله تعالى، فكون المؤمن يدعو ربه ويسأله فهذا عبادة لله تعالى، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾

أي: التي من جملتها الدعاء، وهو عبادة أيضاً ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: ذليلين، لأنهم تكبروا عن الدعاء؛ وأن يقولوا يارب، ولم يرفع أحدهم يديه إلى الله، ولذلك كان جزاؤهم مناسباً لعملهم بأن يدخلوا جهنم ذليلين صاغرين.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»[1] أي: أن الدعاء هو العبادة الخالصة لله تعالى.

وفي الحديث أيضاً: «الدُّعَاءُ سِلاَحُ المُؤمِنِ، ونُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»[2].

فلا تهمل الدعاء أيها المؤمن، وادع الله تعالى دائماً حتى تكون في عبادة له دائماً، بل تكون في مخ العبادة، أي: خلاصتها، وتكون على سلاح سَلّحك الله به.

وإذا أردت أن يُحبك الله تعالى فكن على دعائه دائماً، فإنّ الله تعالى يحب أن يُسأل، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «سَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ الله يُحِبُ أَنْ يُسأَلَ، وأَفْضَلُ العِبَادَةِ انْتِظَارُ الفَرَجِ»[3] أي: كون المؤمن يدعو ربه وينتظر الفَرَجَ فهذا من أفضل العبادة. ويجب أن تعلم أن الله تعالى قال قولاً وقول الله حق: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات /٣٣٦٨/ (٩/٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه أبو يعلىٰ كما في (مجمع الزوائد) (١٠/١٤٧)، والحاكم في (المستدرك) (١/٤٩٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك /٣٥٦٦/ (٩/٢١٤) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

٦٠] فبعد هذا الوعد والضمان الإلهي لا ينبغي أن يتنابك شك أن الله لا يجيب، لأنه سبحانه لا يخلف وعده، ولا يرفع كفالته.

ولقد بَيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو صاحب البيان عن القرآن ـ بَيَّن للأمة معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وما فيها من كفالة الله بالإجابة.

فقد روى الإمام أحمد والبزار وأبو يعلى، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما من مُسْلِمٍ يَدْعُو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قَطِيعَةُ رَحِم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمَّا أن يُعَجِّلَ لَهُ دعوته، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَه فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ من السُّوءِ مِثْلَهَا»[1].

وروى مسلم في صحيحه[2]: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم؛ ما لم يستعجل».

فمن دعا بإثم فإنّ الله لا يستجيب له، كَمن دعى الله أن يوفقه في الميسر، فإن الله لا يستجيب له لأنه محرم، ولو دعا بذلك وتحقق مراده فليس ذلك من دعائه، ولكن الأمر جاءه بقدر الله تعالى وهو وبال عليه.

وَمَن دعا بأمر فيه قطيعة رحم فإن الله تعالى لا يُجيب دعاءه، لأن القطيعة تحول بينه وبين الإجابة، ومن استعجل في الدعاء فإن الله لا يجيبه،

---

(١) (المسند) (١٨/٣) و(مجمع الزوائد) (١٤٨/١٠) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وله شاهد عند الترمذي /٣٥٧٣/ عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل /٢٧٣٥/ (٢٦٢١/٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

ومعنى: «يَسْتَعْجِلْ» بَيَّنَهُ صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «وَذَلِكَ بِأَنْ يَقُولَ قَدْ دَعوتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي»[1].

فهذا الكلام الصادر ممن استبطأ الإجابة يمنع حصول الإجابة، فليحذر المؤمن في دعائه وكلامه من أن يقول ذلك.

وما أدراك أيها المستعجل في دعائك أن الله لم يُجْبك، وما أدراك أن إجابتك حصلت ولكن تَنَزّلها في العوالم حتى يصل أثرها إليك يستغرق مدةً؛ وأنتَ غافل عن هذا كله، قال تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وقد يؤخر الله سبحانه إجابة دعوة الداعي إلى الآخرة، لأنه في الآخرة أحوج إليها من الدنيا. وهذا يرجع إلى علمه وحكمته ورحمته سبحانه.

وقد يصرف عنك من السوء مثلها، أي: من أمر مكروه أو ضرر سيصيبك ولا تعلمه، فجاء دعاؤك ودفعه عنك.

ومن هنا تفهم أن الإجابة لا محالة محققة كما وعد سبحانه وتعالى.

ولما كان الدعاء عبادة، والعبادات قربات إلى الله، وإنّ كل قربة يتقرب بها المؤمن لابد أن يلقى جزاءها في الآخرة، لذلك لابد أن يلقى جزاء دعائه في الآخرة.

وقد روى الحاكم في (مستدركه)[2]، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَدْعُو الله بالمُؤمنِ يَومَ القِيَامَةِ» أي: يأمر الملائكة أن تحضر

---

(١) كما في (مسند) الإمام أحمد (١٩٣/٣) و(مجمع الزوائد) (١٤٧/١٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه، وانظر البخاري كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد مالم يَعْجل / ٦٣٤٠/ (١٤٠/١١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (٤٩٤/١) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

عبده المؤمن «حتى يوقفه بين يديه، فَيَقُولُ الله تعالى: عَبْدِي إني أَمَرْتُكَ أَنْ تَدْعُوَنِي، ووعدتك أَنْ أَسْتَجِيْبَ لَكَ، فَهَلْ كنت تدعوني؟

فَيَقُولُ: نَعَمْ يا رَبِّ.

فَيَقُولُ الله تعالى: أما إنك لم تدعني بدعوة إلا استجيب لك، أَلَيْسَ دَعَوتَنِي يَومَ كَذَا وكذا لغَمٍّ نزل بك أَنْ أُفَرِّجَ عَنْكَ ؟ ففرجت عنك.

فَيَقُولُ العَبْدُ: نعم يَارَبِّ.

فيقول: إني عجلتها لك في الدنيا.

ودَعَوتَنِي يَومَ كَذَا وكذا لغَمٍّ نزل بك؛ فِي أَنْ أُفَرِّجَ عَنْكَ فَلَمْ تَرَ فَرَجاً؟

فَيَقُولُ: نعم يَا رب.

فَيَقُولُ اللهُ تعالى: إني ادَّخَرْتُ لَكَ بها فِي الجَنَّةِ كذا وكذا» أي: وأنت أحوج إليها من الدنيا.

«ودَعَوتَنِي يَوم كَذَا وكذا في حاجة أقضيها لك ؟ فقضيتها.

فَيَقُولُ: نعم يَارَبِّ.

فيقول: إني عجلتها لك في الدنيا.

ودَعَوتَنِي يوم كذا وكذا فِي حَاجَةٍ أَقْضِيَهَا لَكَ فلَمْ تَرَ قَضاءَها.

فَيَقُولُ: نَعَم يَارَبِّ.

فَيَقُولُ: إني ادخرت لك بها في الجَنَّةكذا وكذا».

قَال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَلاَ يَدَعُ» أي: لا يترك «اللهُ دَعْوَةً دعا بها عبده المؤمن إلا بَيَّن له» الحديث.

واعلم أن الدعاء باب رحمة، فقد روى الترمذي، والحاكم، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ فُتِحَ لَهُ منكم بابُ الدُّعَاءِ

فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الرَّحمة، وَمَا سُئِلَ الله تعالى شَيْئاً يعطى أحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسأَلَ العَافِيَةَ»[1]. اللهم إنا نسألك العافية في الدنيا والآخرة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ادعُوا الله وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الله تَعَالَى لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلبٍ غَافِلٍ لاهٍ»[2].

وكما تريد أيها المؤمن أن يجيبك الله إذا دعوته، فهو سبحانه يحب منك ويأمرك أن تستجيب له إذا دعاك، وقد دعاك تعالى لعبادته وطاعته فقال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وروى مسلم والبيهقي[3] ـ والرواية له ـ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عن جبريل عليه السلام، عن رب العزة أنه تعالى قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ» أي: قولوا ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

«يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أطعَمْتُهُ، فَاستَطْعِمُونِي أطعِمكُم» أي: اطلبوا مني.

«يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُم، يَاعِبَادِي إِنَّكُم تُخْطِئونَ بِالليْلِ والنَّهَارِ» أي: أنكم معرضون للخطأ في الليل والنهار «وأَنَا أَغْفِرُ الذُنُوبَ جَمِيعاً فاستَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُم».

---

(١) الترمذي في كتاب الدعوات /٣٥٤٢/ (٩/١٩٩) والحاكم (١/٤٩٨) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات /٣٤٧٤/ (٩/١٥٦)، والحاكم (١/٤٩٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) (صحيح) مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم /٢٥٧٧/ (٥/٢٥٢١)، والترمذي /٢٤٩٧/ والبيهقي في (الأسماء والصفات) (١/٢٦٣).

يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِي فَتَضُرُّونِيْ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِيْ فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ» ـ وفي رواية[1]: «وحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُم وَرَطْبَكُمْ ويَابِسَكُم» ـ «كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا» ـ وفي رواية: «مازادوا فِي سُلْطَانِي مثل جناح بَعُوضَةٍ» ـ .

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ من سُلْطَانِي مثل جناح بَعُوضَةٍ.

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ» ـ وفي رواية: «وحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُم وَرَطْبَكُمْ ويَابِسَكُم» ـ «قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فسَأَلُونِي حَتَى تنتهي مَسأَلَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُم» أي: سأل جميع ما يعلمه ويتمناه من أسئلة وأماني «فَأَعْطَيْتُ كُلَّ واحد منهم مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ» والحق أنه لم ينقص من ماء البحر شيئاً، لأنه ولو أُخذت نقطة لابد أن تعود إلى البحر. فانظر إلى سعة كرم الله تعالى وعطاياه لعباده سبحانه.

فانهض بهمتك أيها المؤمن، واصدُق في السؤال والطلب من الله تعالى، فهو أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وكن على يقين أنه سيعطيك ولا يحرمك، ولاسيما الدعاء في شهر رمضان، الذي وعد الله فيه الصائمين بإجابة دعائهم، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الصَّائِمُ حَتَى يُفْطِر»[2] أي: لأنه في عبادة والعابد مجاب دعاؤه.

(١) في (المسند) (٥/١٤٥)، و(سنن) الترمذي /٢٤٩٧/.

(٢) الحديث: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم» رواه ابن خزيمة /١٩٠١/، وابن حبان /٣٤١٩/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وهناك دعوة للصائم مجابة حين فطره، كما دلت عليه رواية[1]: «الصَائِم حِيْنَ يُفْطِر». فلا تنس ذلك، وسل الله بعد إفطارك، واطرق أبواب رحمته وإحسانه سبحانه وتعالى.

كما أن الدعاء مجاب أيضاً في وسط الليل، وفي السحر، ووراء الصلوات. فقد قال رجل: يا رسول الله أيُّ الدعاء أسمع. أي: أسمع للإجابة والقبول؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «جوفُ الليْلِ الأخير، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ المَكْتُوبَاتِ» الحديث[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سَاعَتَانِ تُفْتَحُ فِيهِمَا أَبْوَاب السَّمَاء وقلما ترد على داع دعوته: عند حُضُور النِّدَاء، والصَّفِّ فِي سَبِيْلِ الله»[3].

وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا أهمهم أمر تربصوا وتحينوا وقت الأذان، حتى إذا نادى المؤذن راحوا يدعون، ويصغون للأذان مع إجابة المؤذن.

وفي الحديث[4]: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ فيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ».

فاحرص على ذلك أيها المؤمن، واغتنم أوقات السحر والإجابة لتسعد في الدنيا والآخرة.

---

(١) عند الإمام أحمد (٢/٤٤٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، /٣٤٩٤/ (٩/١٦٧) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود /٢٥٤٠/، وابن خزيمة (١/٢٢٢)، وابن حبان /١٧١٧/ (٣/١١٠) عن سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/٤٨٧)، والبخاري /١١٤٥/ ومسلم /٧٥٨/، والترمذي /٣٤٩٣/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

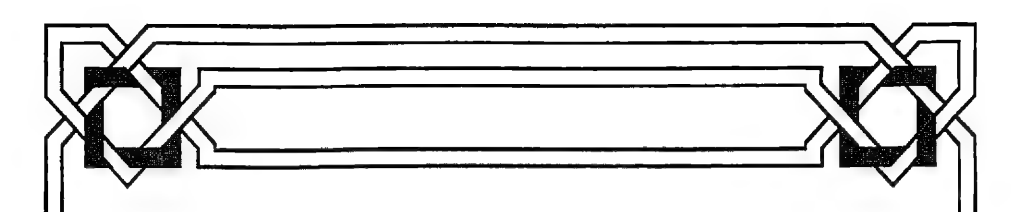
وفي الحديث[1]: «إِنَّ رَبَّكُمْ تبارك وتعالى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِن عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صُفْراً» أي: حياء كرم منه سبحانه، فلا يرد سائله ولا يخيب آمله. اهـ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء/ ١٤٨٨/، والترمذي /٣٥٥١/، وابن ماجه /٣٨٦٥/ عن سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه.

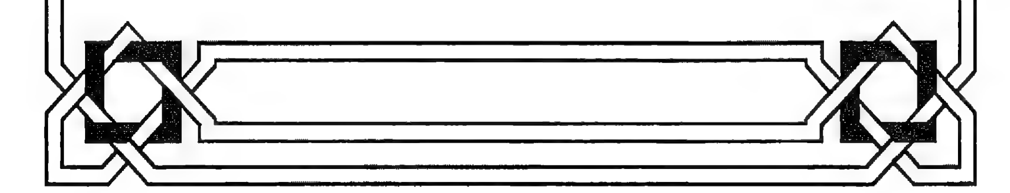


محاضرة حول

فضائل وخصائص

الأيام العشر الأوائل من ذي الحجة

بما فيها يوم عرفة



فضائل وخصائص

الأيام العشر الأوائل من ذي الحجة

بما فيها يوم عرفة

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ـ٥].

أما الفجر فهو: الوقت الذي يَنْفَجِرُ فيه النور، ويُشرِق على هذا العالم الأرضي، ويَذْهب بظلام الليل. وهذه آية من آيات الله تعالى تدل على قدرته وتدبيره سبحانه لهذا العالم.

وقال بعض السلف: المراد بالفجر في الآية فجر يوم النحر. نعم ويشمل هذا جميع الأيام التي ينفجر فيها الفجر.

وعلى المؤمن أن يعتبر في شأن هذا الفجر، الذي راح يَشُقّ الظلام المُسْتَحكِم بنوره الباهر القاهر، وينتشر النور ويقوى حتى يعمَّ الأرض كلها.

إنّ هذا كله بسبب التجلي الإلهي الذي أخبر عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في الحديث الذي رواه الشيخان[١]، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُوني فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيْمٍ وَلاَ ظَلُومٍ؟ حَتَى يَنفجر الفَجْرُ».

---

(١) تقدم تخريجه قريباً ص /٣٧٠/.

وإن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَنْزِلُ رَبُّنَا» دليل على أنه تَنَزُّل بالربوبية التي فيها تربية العالم وإمداده، وَمِنْ جملة ما يترتب على هذا التنزل انفلاق الفجر، ولولا هذا التنزل الإلهي في كل آخر ليلة لما انتظم أمر هذا العالم، ولَمَّا يريد الله تعالى خراب هذا العالم ينقطع هذا التجلي الرباني.

ويرحم الله تعالى القائل:

أَبَرْقٌ بدا من جانب الغور لامع ... أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع

نعم أسفرت ليلاً فصار بوجهها ... نهاراً به نور المَحاسن ساطع

فلما تجلى سبحانه في الثُلُث الأخير، وتنزلت أنواره بهذا التجلي، وتنزلت رحماته وإمداداته، واتصلت بهذا العالم الدنيوي، كان منها ظهور الفجر، مُؤذناً بنهاية التجلي.

وإن لوقت الفجر خصائصه الشرعية، فقد قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: أن عبادة الله تعالى والصلاة له سبحانه وقت الفجر، تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، ويشهدها الذي هو على كل شيء شهيد سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وقد أجمع المفسرون على أنها الليالي العشرة من ذي الحجة، وقد ورد في الحديث الذي رواه البخاري[١]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عز وجل مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ» يعني: عشر ذي الحجة.

---

(١) في كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق /٩٦٩/ (٢/٤٥٧)، وأبو داود /٢٤٣٨/، والترمذي /٧٥٧/.

قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه؟!

قَالَ: «وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فلم يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ».

فهذا الذي خرج بنفسه وماله مجاهداً في سبيل الله تعالى، ثم استشهد وقد أنفق ماله في سبيل الله تعالى، فعمله هذا يساوي العمل الصالح في هذه الأيام، فما أعظم العمل الصالح في هذه الأيام ! فهو أحب الأعمال إلى الله تعالى وأعظمها. كما روى الطبراني بإسناده الجيد[1]، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعظَمُ عندَ الله، وَلاَ أَحَبَّ إِلَى الله العَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ أيَام العَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فيهن مِنَ التَّسْبِيْحِ وَالتَّحْمِيْدِ وَالتَّهْلِيْلِ وَالتَّكْبِيْرِ» يعني: أَكْثِرْ فيها من عبادة الله تعالى ما استطعت، كالصلاة مثلاً، ففيها التسبيح والتكبير وهكذا.

واعلم أن أجور الأعمال مُضاعفة في هذه الأيام: في ليلها ونهارها، وأقل مضاعفة في هذه الأيام إلى سبعمائة كما دل عليه الأثر[2].

فلو قلت في هذه الأيام: سبحان الله مَرَّة، فكأنك قلت في غيرها من الأيام سبعمائة مرة: سبحان الله، وهكذا.

ولقد كان السلف رضي الله عنهم يتسارعون إلى العمل الصالح في هذه الأيام، سيما في فَصِّ هذه الأيام، وهو يوم عرفة.

وقد روى الترمذي وصححه[3]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) (مجمع الزوائد) (١٧/٤) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) كما في (شعب الإيمان) للحافظ البيهقي /٣٧٥٨/ (٣٥٦/٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) في كتاب الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر /٧٥٨/ (١٠٤/٣) عن=

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِن أَيَّامٍ أَحَبُّ إلى الله تعالى أن يُتعبد له فيها من عشر ذي الحجة، يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة، وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر» ورواه البيهقي أيضاً[1]، وهذا من حيث الثواب الإجمالي.

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ فالليالي عشرة، والأيام تسعة ولكن غلب عليها العلمية، فيقال: إن الليالي عشرة أيضاً.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ أقسم سبحانه بالشفع والوتر وهما صفتان للعدد ونوعان، فإنَّ العدد لا يَختلف أن يكون شفعاً أو وتراً، وهذان النوعان والوصفان يشملان جميع الأشياء.

فأقسم الله سبحانه بصفتين جامعتين شاملتين لسائر أنواع المخلوقات المكونات، وسائر أنواع المشروعات المأمورات، فهو قَسم بالأحكام الشرعية والأحكام الكونية.

وذلك لأنّ الأوامر الشرعية منها الشفع ومنها الوتر، فالصلاة منها الشفع ومنها الوتر، وكذلك مناسك الحج، ومواضع مناسك الحج، وأزمنة مناسك الحج كلها تدور بين الشفع والوتر.

أما المواضع فهناك الصفا والمروة شفع، والكعبة المشرفة وتر، ومواضع الجمرات ثلاثة فهي وتر.

وأما أعمال الحج: فالطواف وتر، وبعده ركعتان وهما شفع.

وكذلك الأزمنة: فيوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع؛ لأنه اليوم العاشر من ذي الحجة.

= سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) في (شعب الإيمان) /٣٧٥٧/.

وهكذا أقسم سبحانه بالشفع والوتر الشاملين لسائر المشروعات والمأمورات، والشاملين لسائر المخلوقات والمكونات، فإن جميع المخلوقات تدور بين الشفع والوتر من الذوات والصفات.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: صفتين متقابلتين ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] فما من شيء إلا وله مقابل، فهناك الذكر والأنثى، والسماء والأرض، والليل والنهار، والظلمة والنور، والحياة والموت، والعلم والجهل، والعزّ والذُل، والفقر والغنى إلى آخر هذا.

وقال بعض السلف: المراد بالشفع المخلوقات، والمراد بالوتر الخالق جل وعلا، لأنّك إذا نظرت في المخلوقات ترى أنه ما منها إلا وهو شفع، ولا وتر على الحقيقة، إنما الفردية والأحدية ذاتية لله وحده.

وأما الإنسان مثلاً فهو شفع في ذاته وفي صفاته، فأنت تسمع بالسمع مثلاً ولكنك موصوف بالصم أيضاً، فأنت تسمع ولا تسمع، فأنت تسمع إلى جهة معينة وإلى حد معين، ولكن إذا بَعُدَ الشيء عن سمعك فلا تسمع مع أنّ فيك صفة السمع، فأنت إذاً في صفاتك شفع، وهكذا أنت تبصر ولا تبصر، وأنت حي وأنت تموت وهما صفتان عارضتان عليك، وأنت عالم وجاهل فيما لا تعلمه، فجميع صفاتك فيها صفة التقابل والتضاد.

وأما الصفة الوترية الأحدية التي لا تقبل التعدد ولا المقابلة فهي صفة الله وحده، فهو سبحانه حي ولا يموت، وهو سميع بالسمع المطلق الذي لا يتصف بقيد ولا حد ولا انتهاء، كذلك سائر كمالاته سبحانه وتعالى.

وهناك قراءة متواترة بكسر الواو: ﴿والْوِتْرِ﴾ والوِتر والوَتر بمعنى واحد في لغة العرب.

كما أن الإنسان في ذاته شفع، إذ أن له عينان، وشفتان، ومنخر له ثقبان، وله في الحقيقة لسانان: لسان صغير وهو البلعوم الداخلي، ولسان كبير وهو اللسان المعروف، وكذلك قلبك له وجهان: وجه للعلو ووجه للسفل، ولك جهتان اليمين والشمال، فالشفعية محيطة بذاتك وصفاتك، وأما الأحدية والوترية فهي لله وحده.

واعلم أنه ليس للشفعية مَرتبة حقيقية، وإنما المرتبة الأصلية الذاتية الحقيقية للوتر، وإليك ما يُوضح ذلك: فالعدد كله مركب من الواحد والمرتبة الذاتية للواحد، وقد تركبت جميع رتب الأعداد من الواحد، فتقول: اثنان، ثلاثة، أربعة، مائة، كل ذلك مؤلف من الواحد، لأن الاثنان هما واحد وواحد. وهكذا بقية الأعداد.

فالواحد يدور على كل المراتب، وقد تألفت منه كل المراتب، ولولا الواحد لَمَا كان للمراتب وجود، فالواحد هو الأصل والكل فرع عنه.

فجميع الرتب للواحد أصلية ذاتية حقيقية، وأما الرتب لغير الواحد فهي نسبية اعتبارية. فما أعجب أمر الواحد مع الشفع، وما أعجب أمر الواحد في مراتب العدد وفي هذا عبرة لأولي الألباب.

وجاء في الحديث[1]: «إنَّ لله تِسعةً وتِسْعِيْنَ اسماً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ، إنَّ الله وتْرٌ يُحبِ الوِتْرَ».

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: سرىٰ مُدْبراً عن هذا العالم، لأن الفجر قد انفجر وأخذ نوره بالانتشار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحدة /٦٤١٠/ (١١/٢١٤)، ومسلم في كتاب الذكر والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها /٢٦٧٧/(٢٥٨٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

[المدثر: ٣٣ـ٣٤] فاعتبر أيها الإنسان في قدرة الله تعالى الذي أتى بالنور البَاهر والقاهر، وجعل الليل يسري عن هذا العالم مدبراً.

واعتبر في أصل ومبدأ الأشياء، إذ كانت كلها في العدم، والعدم ظلمة، ثم أفاض الله تعالى عليها نور الوجود فصارت موجودة به سبحانه.

قوله تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ وهو استفهام تقريري، أي: إنَّ في انفجار الفجر وظهور الضياء، وإدبار الليل بظلامه، في هذا كله قسم لذي حِجْر، لأنّه أمر واقع مشهود، يَحق أن يُقسم به لكل صاحب عقل.

وإنما يقال لصاحب العقل: ذي حجر، لأنه يَحْجُر ـ أي: يمنع ـ صاحبه عن الرذائل.

ويقال له: عقل، لأنه يَعقل صاحبه كالعقال.

ويقال له: نُهْية، لأنه ينهى صاحبه عن المضارّ.

وفي هذه الآيات المشهودة يقيم الله تعالى الحجة على كل من له عقل وحِجْر وفهم، لأن عقله يمنعه عما نهى الله تعالى، لأنه عرف الدلائل الدالة على الله تعالى، وعلى وحدانيته وقدرته، فما عليه إلا أن يمتثل أمر الله تعالى فيما أمر أو نهى.

ولا تكن أيها العاقل كالذين استكبروا واستنكفوا عن أمر الله تعالى واعتمدوا على علمهم وفهمهم فدمرهم الله، ومَنْ هؤلاء؟ قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦] الذين ادعوا أن لهم القوة ولا أحد أشد منهم، كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾؟ [فصلت: ١٥] فلقد افتخروا بقواهم وما عندهم من العلم والمصنوعات والأسباب.

فرد الله تعالى عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فما عليك يا صاحب العقل إلا أن تمتثل أمر الله تعالى، ولا تستكبر عن عبادته وطاعته، ولا تستهين بعقابه وعذابه، أَوْ تظن أنه غير قادر على إهلاكك وتعذيبك، فلقد أهلك سبحانه من هو أقوى منك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: في قوتها وآلاتها وأسبابها ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٦ـ٩] أي: قطعوا الصخور من الوديان، ونقلوها حتى يبنوا منها الأبنية العالية الشامخة، وأنت تعلم أنه لقطع الصخر لا بد من أسباب وآلات ومخترعات؛ وإن كانت على هيئة تختلف عن التي في زماننا.

وهذه عادة الأمم الكافرة على وجه الأرض، فلكل أمة مخترعاتها وأسبابها التي تفتخر بها، ويسخرون بها من المرسلين صلوات الله عليهم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي العلوم الكونية الأرضية ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

فلا تعجب من الكفار إذا اخترعوا وابتدعوا، وتطوروا في علومهم الكونية ومخترعاتهم، فلقد كانت الأمم الكافرة قبلهم، والتي ذكرها الله تعالى لنا في القرآن، كانت أقوى منهم وأشدَّ تأثيراً، وأنكل قوة في الأرض.

وعلى هذا فعلى صاحب الحِجْر أن يحجره عقله، ويمنعه عن ارتكاب ما نهى الله تعالى، وإلا فإنّ الله تعالى سيعاقبه كما عاقب من قبله ممن هو أشد قوة وآثاراً في الأرض، وذلك لأن الله تعالى لهم بالمرصاد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ

لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] أي: بالرصد والترقب لك، فلا تظن أن الله غافل عنك سبحانه وتعالى.

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾ وأول ما يشمل هذا فجر يوم النحر وليلة عرفة، وإنّ يوم عرفة وليلة عرفة هي فَص خاتم العشر.

واعلم أنَّ ليلة عرفة هي ليلة العيد، وليست هي الليلة السابقة عن يوم عرفة، وليلة العيد هي تابعة ليوم عرفة، ولها حكم يوم عرفة، ولذلك مَنْ أدرك الوقوف في عرفة ليلة العيد كفاه، ولكنه ترك واجباً وهو الوقوف بجزء من الليل وجزء من النهار.

وقد خص الله تعالى يوم عرفة بالخصائص والأسرار منها: أنه يوم التعارف، إذ يَتعرف الله فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعطاء، وهو يوم يتعرف فيه العباد إلى الله بالعبدية والذل والافتقار، والاعتراف بالذنوب والافتقار إلى الله تعالى.

وهو يوم عرف فيه آدم بأنه ظلم نفسه، فقال تعالى مخبراً عنه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فتعرف الله إليه بالمغفرة والرحمة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

فهو يوم اعتراف العبد بذنبه: ليعرفه الله بمغفرته، واعتراف العبد بفقره وذله: فيعرفه الله برحمته وعطائه وهكذا.

وقد روى الطبراني[1]، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:

---

(١) (مجمع الزوائد) (٣/٢٥٧).

خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم عرفة فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله تعالى قَدْ تَطَوَّلَ عَلَيْكُم فِي هَذَا اليَوم فَغَفَرَ لَكُم، إِلاَّ التَّبِعَات فيما بينكم» أي: حقوق العباد فيما بينهم «وَوَهَبَ مُسِيْئكُم لِمُحْسِنكُم» أي: فهو سبحانه قَبِل المحسن، وتجاوز عن المسيء «وَأَعْطَى لِمُحْسِنِكُم مَا سَأَل، فَادْفَعُوا بِاسْمِ الله» أي: إلى مزدلفة.

فَلَمَّا كان في مُزدلفة قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ الله تعالى قَدْ غفَرَ لِصَالِحِيكُمْ، وَشَفَّعَ صَالِحِيكُم فِي طَالِحِيكُم، تَنْزِلُ الرحْمَةُ فَتَعُمُّهُم، ثُمَّ تفرق الرَّحْمَةُ في الأَرْضِ، فَتَقَعَ عَلَى كُلِّ تَائِبٍ مِمَّنْ حَفِظَ لِسَانَهُ وَيَدَهُ، وَإِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ يَنْظُرُونَ عَلَى جِبَالِ عرفات، ينظرون مَاذَا يَصْنَعُ الله بِهِم، فَإِذَا نَزَلَتِ الرَّحْمَةُ دَعَا إِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ بالوَيلِ والثُّبُور» أي: فتنزل المغفرة والرحمة في يوم عرفة أولاً على أهل عرفة، ثم تَعم جميع المؤمنين على وجه الأرض.

كما أن يوم عرفة هو أشد يوم على إبليس وأعداء الله تعالى، لِمَا روى مالك في الموطأ[١]، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَا رُؤِي الشيطان يَوماً هُوَ فيه أَصْغَرُ وَلاَ أدحر، ولا أَحْقَرُ، ولاَ أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوم عَرَفَةَ، وما ذاك إلا لِمَا رأى مِنْ تنزل الرحمة، وتجاوز اللهِ عن الذُّنُوبِ العِظَام، إِلا مَا أُرِي يَومَ بدرٍ» الحديث. أي: فكان غيظه أعظم، لأنه رأى جبريل عليه السلام يَزَعُ[٢] الملائكة.

وهكذا تجلى الله تعالى على أهل عرفة بالمغفرة والرحمة، بعدما اعترفوا

---

(١) (الموطأ) في كتاب الحج، باب جامع الحج (٣٦٩/١) بشرحه (تنوير الحوالك) للحافظ السيوطي.

(٢) أي: يصفهم.

له بالذنوب والافتقار إلى رحمته، فلما غفر لهم ورحمهم جعل لهم اليوم الثاني عيداً، فالعيد هو عِيْدٌ حقيقي سعيد لمن شملته مغفرة الله ورحمته.

ومعنى أن يكون اليوم الثاني عيداً لِمَنْ شملته مغفرة الله ورحمته يعني: أن فيه معَايدة الله عليك بالإحسان وبالوصال والوداد والمحبة.

وهذا معنى العيد، أن يصلك ربك ويتجلى عليك بالرضا والسرور وهذا هو العيد السعيد، وليس العيد بلبس الجديد، والتبرج في مواضع الوعيد.

وقد خرج يوم العيد الإمام الشبلي رضي الله عنه من المسجد، ورأى الناس قد فرحوا فقال مخاطباً ربه:

إذا ما كنت لي عيداً ... فما أصنع بالعيد
جرى حبك في قلبي ... كجري الماء في العود

وأنت تعلم أن حياة العود بجريان الماء فيه، فَمَنْ سرى حب الله في ذرات قلبه حَيِيَ قَلبه حياة الأبد، وفرح وسعد سعادة الأبد. وهذا العيد السعيد.

ودخل مرة على الإمام الجنيد رحمهما الله تعالى، ووقف أمامه، وجعل يميل ويقول:

عَوّدوني الوصال والوصل عَذْب ... ورموني[1] بالصدِّ والصدُّ صعب
زعموا حين أجمعوا أن ذنبي ... فرط حبي لهم وما هو ذنب
لا وحق الخضوع عند التلاقي ... ما جزا من يُحِبُّ إلا يُحَبُّ[2]

---

(١) من رمى: بفتح الميم.
(٢) الأول مبني للمعلوم، والثاني للمجهول.

أي: إذا أحببت الله تعالى أحبك الله سبحانه، ومن ذاق ذَرّة من حب الله زهد في كل ما خلق الله تعالى من الدنيا وزخارفها.

كما أنّ يوم عرفة هو يوم قبول القاصدين لحضرة رب العالمين، فهو سبحانه يَقبل في هذا اليوم كل مَنْ قصده، وفي الحديث(١): «الحَجُّ عَرَفة».

والحج هو: القصد، وأنت مأمور أن تحج البيت، أي: تقصده، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] أي: قصد البيت بالجسم لكن القلب قاصد ربّ البيت، كما تقول: ذهبت إلى بيت فلان، فهل أنَّ مرادك البيت؟ أم صاحب البيت؟

ويقال: اذهب إلى بيت فلان فلا يخيبك، أي: إلى صاحب البيت.

فلما دعانا سبحانه إلى البيت بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ فالجسم يذهب إلى الجسم، والقلب يتوجه إلى الرب، وَمَنْ قصد بيت الكريم فلا يخرج منه إلا وقد شمله الكرم والعطاء، وأعظم يوم الحج والقبول الإلهي هو يوم عرفة، وهذا معنى: «الحَجُّ عَرَفَة».

وَمَنْ لم يتيسر له الحج بالذهاب الحسي فعليه أن يقصد ربه بقلبه وروحه.

والحاج على ثلاثة مراتب: رجل يحج بجسمه وروحه فهو في أعلى المنازل. ورجل يحج بروحه لا بجسمه؛ لعدم استطاعته، فله أجر الذي ذهب بجسمه وروحه. ورجل حج بجسمه لا بروحه وقلبه، وهذا شأن كثير

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٤/ ٣٠٩ ـ ٣١٠)، وأبو داود في كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة /١٩٤٩/ (٢/ ٤٨٥)، والترمذي /٨٨٩/ وغيرهم، عن سيدنا عبد الرحمن بن يَعْمر رضي الله عنه.

من أغنياء الزمان ومترفيهم، إذ يتضايقون من أداء مناسك الحج، ويتأففون من الحر وزحمة الناس، وغفلوا عن الأجر الكبير والثواب العظيم الذي ادخره الله تعالى لمن تَحَمّل تلك المشاق والمصاعب لأداء مناسك الحج.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ بالمدِينَةِ أَقْوَامَاً مَا سِرتُم مَسِيْراً وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيَاً إِلاَ كانوا مَعَكُم».

قالوا: يا رسول الله وهم في المدينة؟

قال: «وهم في المدينة، حَبَسَهُم العُذْرُ»[1].

واعلم أن فريضة الحج لا تسقط عن المكلف المستطيع إلا بالذهاب بجسمه لأداء مناسك الحج.

وكما أنك تحج بيت الله تعالى بقلبك وروحك، فكذلك تزور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقلبك وروحك، وتسلم عليه صلى الله عليه وآله وسلم وتخاطبه وتستشفع به.

وفي هذا يقول القائل:

شدوا المطي وقد نالوا المُنى بمنى
وكلهم بأنين الشوق قد باحا
سارت ركائبهم تندى روائحها طيباً
بما طاب ذاك الوفد أشباحاً

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي /٤٤٣٢/ (٨/١٢٦) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ـ وهذا نصه ـ وانظره فيه أيضاً /٢٨٣٩/، ومسلم في كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر /١٩١١/ (٤/١٩٩١) عن سيدنا جابر رضي الله عنه، وأبو داود /٢٥٠٨/ وغيرهم.

نســيم قــبر الــنبي المصــطفى لهــم
رَوحٌ إذا شــربوا مــن ذكــره راحــا
يــا راحلــين إلى المختــار مــن مُضــر
ســرتم جســوماً وســرنا نحــن أروحــا
وقــد أقمنــا علــى عُــذر وعــن قَــدَرٍ
ومــن أقــام علــى عُــذر كمــن راحــا

كما أنَّ يوم عرفة هو اليوم الذي أكمل الله فيه هذا الدين، وأتم النعمة على عباده المسلمين، وحفظ دينهم، وأَمَّنَهُم من أن ينال الكفار هذا الدين بالأذى والضرر، وقد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة، يوم حج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجة الوداع، وقد كان يوم نزولها يوم عيد وفرح للمؤمنين، حتى جاء بعض اليهود إلى عمر رضي الله عنه حينما كان خليفة.وقالوا له: آية في كتابكم لو نزلت علينا لاتخذنا لها عيداً.

قال: أيَّة آية؟

قالوا: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية.

فقال عمر رضي الله عنه: والله إني لأعلم أين نزلت، وفيما نزلت، وأين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين نزلت، نزلت يوم جمعة في عرفة،

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعرفة. فكان يوم فضل على فضل[1].

ولقد بَشَّر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية أن دِيْنَ سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم لا يُمحى من وجه الأرض ما دام هذا العالم موجوداً، وإنْ قوي في بقعة فقد يضعف في أخرى، وإن اختفى في بقعة ظهر في أخرى، ولكنه لا يزول من وجه الأرض حتى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ أي: يئسوا من أن يَخذلوا هذا الدين ويمحوه ويتغلبوا عليه ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣].

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِيْن عَلَى الحقِّ، لاَ يَضُرُّهُم مَنْ خذلهم، حَتَى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُم عَلَى ذَلِكَ»[2].

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ والكمال لا يقبل الزيادة بل هو منتهى الزيادة في الأمر.

فتقول: أتممت الكأس بالماء، أي: جعلتها غير ناقصة، لكن الكمال إذا أفرغت عليها الماء حتى سال على جوانبها، وهذا الفرق بين الكمال والتمام، فتمام الكأس بالماء ملؤها بالماء وعدم نقصها، ولكنّ كمالها أن تزيد الماء فيها حتى يسيل على جوانبها.

---

(١) الخبر في البخاري في كتاب المغازي باب حجة الوداع (٨/١٠٨)، ومسلم في كتاب التفسير /٣٠١٧/ والترمذي /٣٠٤٦/ وغيرهم.

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) /٤/١٠٤/ عن سيدنا سلمة بن نفيل رضي الله عنه، والبخاري في كتاب المناقب /٣٦٤١/ (٦/٦٣٢) عن سيدنا معاوية رضي الله عنه، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال طائفة...» /١٩٢٠/ (٤/١٩٩٧) عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه.

فلقد بلغ دين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوج الكمال، ولا دين أكمل منه، ولا شرع ولا حكم أكمل منه، ولا أسعد للبشرية منه، في عقيدته وأحكامه، يَعرف هذا كل من تعقل وأنصف وعرف الحق واعترف به.

ولقد نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ناقته العضباء يوم عرفة في حجة الوداع.

ولما نزلت الآية بركت الناقة على الأرض، ووضعت جِرانها لثقل القوة الروحية حالة الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم تتحمل الناقة ذلك، حتى بركت، ونزل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1]، وتدبر وتأمل في القوة التي أمد الله تعالى بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى ثبت وتحمل نزول هذا القرآن العظيم عليه في حين لو نزل شيء منها على الجبال الرواسي لتصدَّعت.

ولما نزلت هذه الآية فَهِمَ منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد اقترب أجله، باعتبار أنّ الأمر قد بلغ حد الكمال، وقد انقضى أمر تبليغك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد بلّغت وأدَّيْتَ ونصحت، حتى بلغ هذا الدين كماله.

وقد فهم هذا أيضاً كبار الصحابة رضوان الله عنهم، حتى جعل عمر رضي الله عنه يبكي، لأنه فهم أنها نعي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإيذان بقرب وفاته صلى الله عليه وآله وسلم، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذا اليوم بواحد وثمانين يوماً صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن جرير.

ولما نزلت هذه الآية وفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرب أجله، وَدَّع الصحابة وَوَدَّع الأمة، وذلك يوم حجة الوداع، وقد اجتمع وقتئذٍ عدد كبير من المسلمين، فخطب فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووعظهم ونصحهم وأرشدهم إلى ما فيه مصالحهم الدنيوية والأخروية، فأفاض عليهم من علومه وأسراره صلى الله عليه وآله وسلم، وأفاض عليهم من أجزائه الشريفة، إذ وزع عليهم شعره[1] وأظفاره[2] الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد خطبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم عرفة، ويوم النحر وأيام التشريق، وأكثر وأطال في ذلك، مُودعاً لهم، فكان أول ما خطبهم قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاس اسمعوا قولي حَتَّى أُبَيِّنَ لَكُم، فإني لا أدري لَعَلِّي لاَ أَلْقَاكُم بَعْدَ عَامِي هذا»[3].

وقال لهم يوم النحر: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا» ؟ قَالُوا: يَوْم الحج الأكبر، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟

أَلاَ لاَ يَجْنِي جَانٍ إِلاَّ عَلَى نَفْسِهِ، وَلاَ يَجْنِي وَالِدٌ عَلَى وَلَدِهِ ؛ وَلاَ وَلَدٌ عَلَى وَالِدِهِ، أَلاَ لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ إِلاَّ مَا أَحَلَّ مِنْ نَفْسِهِ، أَلاَ

---

(١) كما في (المسند) (٣/٢١٤) و (صحيح) البخاري في كتاب الوضوء، باب الماء الذي يُغسل به شعر الإنسان /١٧١/ (١/٢٧٣)، و(صحيح) مسلم في كتاب الحج، باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم .../١٣٠٥/ (٣/١٣٣٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) كما في (مسند) الإمام أحمد (٤/٤٢) عن سيدنا عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

(٣) كما في سيرة ابن هشام.

وَإِنَّ كُلَّ رِباً فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، لَكُمْ رُؤوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ» أي: أسيرات «عِنْدَكُمْ» أي: تحت ولايتكم وأمركم «لاَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، ألا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، أَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ: فَلاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ» أي: لا يجوز للمرأة أن تُدخل بيت زوجها من لا يرضاه «وأما حَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ: أَنْ تُحْسِنُوا فِي طَعَامِهِنَّ وكِسْوَتِهِنَّ بالمعروف، لكم مثل الذي عليهن بالمعروف ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]»[1].

وقد خطبهم صلى الله عليه وآله وسلم يوم النحر، كما جاء في الصحيح[2] عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ» إذ كان المشركون في الجاهلية يتلاعبون في أوقات الأشهر الحرم، لأنها كانت حُرماً عندهم مما وصلهم من شرع إسماعيل عليه السلام، فيتلاعبون فيها تقديماً أو تأخيراً عن وقتها حتى يستمروا في قتالهم، فلما بُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل الأشهر كلها في أوقاتها التي خلقها الله تعالى عليها، فاستدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض.

وهكذا استدار الزمان الشهودي على الزمان الغيبي الروحاني، فإنّ الزمان الغيبي الروحاني بدأ أوّلاً برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) ينظر (مجمع الزوائد) (٣/٢٦٥) وما بعدها.

(٢) (صحيح) البخاري في كتاب العلم، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «رب مبلغ أوعى من سامع» /٦٧/ (١/١٥٧) وانظر فيه /٣١٩٧/، ومسلم في كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدعاء والأعراض والأموال /١٦٧٩/ (٤/١٧٤٧) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أوّل نبي في عالم الأرواح، ثم استدار الزمان حتى بعث صلى الله عليه وآله وسلم، وقد بعث صلى الله عليه وآله وسلم نبياً إلى جيمع الأنبياء، ورسولاً إلى كل الرسل، وأمر الله تعالى جميع الرسل والأنبياء أن تؤمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أيُّ يومٍ هَذَا» ؟ قال: فَسَكَتْنا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِه، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ» ؟ قُلْنَا: بَلَى، ثم قال: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا» ؟ فظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِه، قَالَ: «أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّة» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا» ؟ فَسَكَتْنا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بغَيْرِ اسْمِه، قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلَدُ الحرامَ» ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا» فحرمة المؤمن على المؤمن أعظم من هذه الحرمات الثلاثة مجتمعة.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلاَ فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ، أَلاَ هَل بلغتُ، أَلاَ هَل بلغتُ، أَلا فَلِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَ» ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اشهد».

وقال لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أبداً: كِتَابُ اللَّهِ تعالى فَاعْمَلُوا به.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، ولا لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ ؛ وَلاَ لأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلاَّ بِتقْوَى الله».

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يَامَعْشَرَ قُرَيشٍ لاَ تَأْتُونِي يومَ القِيَامَة تَحْمِلُونَ الدُّنْيَا على رِقَابِكُمْ، وَتَحْمِلُ النَّاسُ الآخِرَةَ، فَإِنِّي لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله شَيْئاً» أي: لا تكفروا وتتهافتوا على الدنيا وتنتظروا شفاعتي بكم بعد ذلك، بل عليكم أن تؤمنوا وتعملوا فأنا أشفع بكم عندئذٍ.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَسَأُخْبِرُكُمْ مَنِ المُسْلِمُ: الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنِ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللَّهِ تعالى».

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّكُمْ مَسؤولُونَ عَنِّيْ فَمَا أَنْتُم قائِلُونَ» ؟

قالوا: نشهدُ يا رسول الله أنكَ قد بلَّغْتَ وأدَّيْتَ ونَصَحْتَ.

فَرَفَعَ بَصَرَهُ صلى الله عليه وآله وسلم إِلَى السَّمَاءِ وَجَعَلَ يَرْفَعُ أُصْبُعَهُ وَيُحَرِّكُهَا عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: «اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ»[1].

ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم تحلل، وحلق شعره، وأمر الحلاق أن يأخذ الجانب الأيمن من شعره ـ وهذا من سنته صلى الله عليه وآله وسلم ـ فأمر أن يعطىٰ هذا لأبي طلحة رضي الله عنه، ثم أمر أن يُحلق الشق الأيسر، وأمر أن يعطى لأمِّ سليم زوجة أبي طلحة، ثم قسم أبو طلحة رضي الله عنه شعره الأيمن على الصحابة، وكذلك أمُّ سُليم قسمت على نساء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

---

(١) تقدم التخريج للخطبة ص /٣٩١/.

قال جابر رضي الله عنه: فكان الواحد يأخذ الشعرة والشعرتين حتى توزع شعره صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا دليل كثرة الصحابة وقتئذ.

وهكذا أودع عندهم صلى الله عليه وآله وسلم أجزاء منه، وفي تخصيص أبي طلحة رضي الله عنه إشارة إلى أنه هو الذي يحفر قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، وقد حفره بالواقع لما توفي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم قَصّ صلى الله عليه وآله وسلم أظفاره وأعطاها لبعض الصحابة[(١)]، باعتبار أن الأظفار قلائل، فأعطاها للقلائل.

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبركون ويستشفعون إلى الله تعالى ببركة شعره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، ويستنصرون الله تعالى بشعره صلى الله عليه وآله وسلم، كما فَعل خالد بن الوليد رضي الله عنه حينما كان يضع شعرته صلى الله عليه وآله وسلم في قلنسوته، ويتوجه بها إلى الله، ويباشر المعارك في سبيل الله تعالى[(٢)].

وقد أوصى سيدنا معاوية رضي الله عنه أن تُوضع شعرته صلى الله عليه وآله وسلم تحت لسانه بعد وفاته رجاء أن يغفر الله له[(٣)].

وما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شعره وأظفاره إلا لهذه الغاية، وهي التبرك بها، والاستشفاء والاستفتاح، وإذا كانت أجزاؤه صلى الله عليه وآله وسلم يُتبرك بها ويستشفى بها؛ فما بالك بذاته صلى الله عليه وآله وسلم، فهذا من باب أولى. فافهم.

---

(١) تقدم تخريج ذلك ص/٣٩٤.

(٢) رواه الطبراني وأبو يعلىٰ كما في (مجمع الزوائد) (٩/٣٤٩).

(٣) ينظر (سير أعلام النبلاء) للحافظ الذهبي (٣/١٥٨) وينظر فيه أيضاً (٣/١٤٨).

وقد روى البخاري وغيره[1]، أنه لَمّا أرسلت قريش يوم الحديبية رجلاً للمفاوضة، فلما رجع إلى قومه قال لهم: ما رأيت مَلكاً يعظمه أصحابه مثل تعظيم أصحاب محمدٍ لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ما بصق بصاقاً، ولا تنخم نُخامة إلا أسرعوا إليها وأخذوها، ودلكوا بها أجسادهم.

وإنا نتوسل إلى الله تعالى بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن يشفعه فينا، وأن يرزقنا مِنْ مسحاته ونفحاته صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يُلْهِمَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينظر إلينا نظرة مُحَمَّدية، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] فانظرنا يارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أنّ نظرة منه صلى الله عليه وآله وسلم تَجعل الحديد إبريزاً، وتجعل القلب القاسي قلباً نورانياً.

ورحم الله القائل:

فَنظرةٌ من رسول الله تلحقني ... بالسابقين وإن أمشي على مَهَلِ

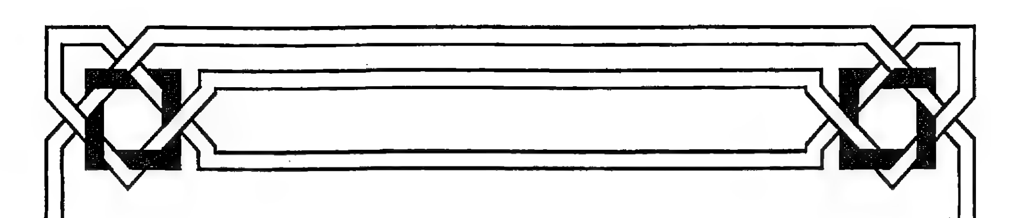
وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين

* * *

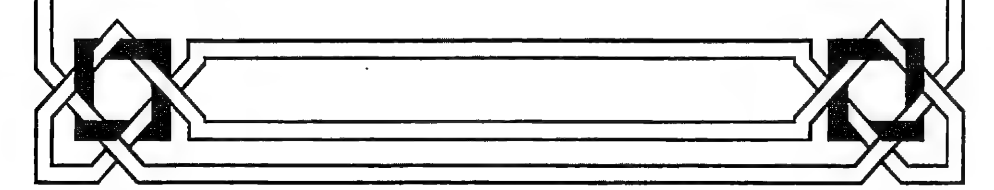
---

(١) البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد /٢٧٣١و٢٧٣٢/ (٥/٣٣٠) وينظر في شرح المواهب وكتب السيرة النبوية.



محاضرة

حول
بعض أسرار مناسك الحج



بعض أسرار مناسك الحج

إن عادة الله تعالى في خلقه، أن يخلق الخلق ثم يختار منهم ويصطفي من يشاء، ويفضله على من يشاء، وهذه عادة الله تعالى في سائر مخلوقاته، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من المخلوقات﴿وَيَخْتَارُ﴾ منها خِيَرة، ويصطفي صَفْوة، وليس المراد بالاختيار في الآية المشيئة، لأنه قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾بل المراد في الآية من الاختيار، أخذ الخيرة واصطفاء الصفوة: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: من المخلوقات ﴿وَيَخْتَارُ﴾ أي: مما خلق ما شاء، ويصطفي مما خلق ما شاء.

وينطبق هذا على: الأمكنة، والأزمنة، والأشخاص، وسائر المخلوقات، فقد اختار سبحانه بعضها على بعض، وفضل بعضها على بعض وهكذا.

ولقد خلق الله تعالى الملائكة بمشيئته ثم اختار واصطفى منهم فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء: «اللهمَ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ اهْدِني لِمَا اخْتُلِفَ فِيْهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِيْ مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1] وذلك لِمَا لهؤلاء الملائكة من الفضل والرتبة على غيرهم من الملائكة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه /٧٧٠/ (٨٥٦/٢)، والترمذي /٣٤١٦/ عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

ولقد خلق الله تعالى البشر واصطفى منهم الأنبياء، وقد جاء في بعض الآثار[1] أن عدد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ونحن نؤمن بأنبياء الله كلهم سواء كان هذا عددهم أو أكثر.

وقد اصطفى الله تعالى من الأنبياء صفوة وهم المرسلون، وقد جاء في الحديث الذي رواه ابن حبان وأحمد[2]، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنَّ عَدَدَ المرسلين ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً، ونحن نؤمن برسل الله كلهم.

وقد اصطفى سبحانه من المرسلين أُولي العزم، وهم الخمسة المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

وقوله تعالى ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وقد اختار واصطفى سبحانه من أولي العزم الخليلين العظيمين السيد الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وسيدنا إبراهيم عليه السلام، واختار منهما السيد الأعظم سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وفضله، وخصَّه بالمقامات، منها: مقام الوسيلة، والمقام المحمود والشفاعة العظمى.

---

(١) عند الإمام أحمد في (المسند) (٥/ ٢٦٥)، والطبراني (مجمع الزوائد) (١/ ١٥٩) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه، وابن حبان /٣٦٢/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (المسند) (٥/ ١٧٨و١٧٩)، ابن حبان /٣٦٢/ (١/ ٢٨٧) في حديث طويل.

فهو سبحانه خلق الأزمنة واختار منها، وخلق الشهور واختار منها شهر رمضان، وخلق الأشهر واختار منها العشر الأخير من رمضان، وخلق الأيام واختار منها يوم الجمعة ويوم عرفة وهكذا، وخلق الأمكنة والبقاع واختار منها بقعة مكة، وأفضل بقاع مكة بقعة البيت الحرام.

وقد جاء في الحديث، لَمّا هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة، أنه صلى الله عليه وآله وسلم وقف بعيداً عن مكة والتفت إليها وقال: «والله إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرضِ الله، وَإِنَّكِ لأَحَبُّ أَرضِ الله إلى الله، وَلولاَ أَني أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»(1).

أما البقعة التي حوت وضمت جسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي موضع قبره الشريف فهي أفضل الأماكن على الإطلاق، لأنَّ هذا المكان شَرُفَ بشرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما كانت مكة المكرمة هي أم القرى ـ أي: عاصمة العواصم ـ ومرجع الأمصار كلها في عباداتها، اقتضت حكمة الله تعالى أن يُرْسِلَ فيها رسولاً إلى جيمع القرى وجميع العالمين.

وقد أقام الله تعالى في هذا البلد الأمين بيتاً وهو الكعبة المشرفة، كما قال سبحانه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآيِفِينَ وَٱلْقَآيِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦].

* * * * *

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٤/٣٠٥)، والترمذي في (السنن) في كتاب المناقب، باب في فضل مكة /٣٩٢١/ (٩/٤١٥) وغيرهم عن سيدنا عبد الله ابن عدي بن حمراء الزهري رضي الله عنه.

ومن حِكَم أعمال الحج وأسرارها

إنه مما لا شك أنك عَبْدٌ والله ربك، ولا شك أن العبد يحب الرّبَّ، هذا إذا أنصف وتفكر، علم أنّ محبة الرب لازمة واجبة عليه، لأنه يربيه ويمده ويغذيه ويعطيه.

وقد علم الله تعالى أن من عباده من يحبه والمحبة تقتضي الشوق إلى المحبوب، فالعبد يشتاق إلى رؤية ربه سبحانه، ولكن هذا لا يمكنه في هذا العالم بهذا البصر.

ومن ناحية أخرى فإن الله تعالى ليس جسماً حتى تَسعى إليه بجسمك، ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يقيم في هذا البلد الأمين بيتاً، يشرفه ويكرمه، ويتجلى فيه على عباده، قال تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة: ١٢٥] وفي هذه النسبة والإضافة تشريف وتقدير لهذا البيت مالا تحيط به العقول، فأقام سبحانه في هذه الأرض بيتاً جسمانياً، وأمر العباد أن يسيروا ويتوجهوا إلى هذا البيت الجسماني بأجسامهم وأن يتوجهوا ويقصدوا رب هذا البيت بقلوبهم، وهذا هو الحج، وهو القصد وهو قصد الفقير إلى الغني وقصد الضعيف للقدير، وقصد المذنب للغفار، ولا يقال على لسان العرب حج فلان إلى فلان إلا إذا قصده في حاجة.

فلما تَحجّ بيت الله تقصد البيت جسماً؛ وتقصد ربّ البيت قلباً وهذا هو الحج. أي: قصد العبد لربه.

وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] ولم يقل وللبيت على الناس، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فهو حق لله على الناس

أن يقصدوا بيته، وَمَنْ قَصَد بيتك ماذا يريد؟ نعم يريد صاحب البيت، فلما يقول فلان: قصدت بيتك، أي: قصدتُكَ أنتَ لحاجاتي.

فلما قصد العباد البيت فقد قصدوا ربّ البيت، ليتجلى عليهم بالمغفرة والرحمة، والكرم والعطاء، ولينالوا ما أرادوا، فإنَّ مَنْ قصد بيت الكريم لا يخيب فما بالك بِمَنْ قصد رب البيت الذي هو رب السماوات والأرض سبحانه وتعالى.

ولما قال تعالى لعباده: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ راح هذا العبد يجيب دعوة الرب إلى بيته، لأجل أن ينال كرم ورحمة وعطاء ومغفرة رب البيت، ولينال ضيافة رب البيت.

ولكنه سبحانه شرع لهم أن يحجوا بيته، ويقصدوه سبحانه وعليهم شعار العبودية، وكأنه قال لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنتم معشر العباد قصدتم بيتي ابتغاء مرضاتي، فعليكم أن تقصدوني وعليكم شعار العبودية والذل والانكسار، فتتركوا تقاليدكم السابقة، وعاداتكم المألوفة فتحرموا إحراماً.

والإحرام هو: ترك العادات والتقاليد المستحكمة، وترك الشهوات ورغبات النفس.

فيذهب العبد فيحسر عن رأسه، ويخلع لباسه المعتاد، ويلبس الإزار والرداء، ولولا رحمة الله بهم لأمرهم أن يسيروا حفاة، لكنه سبحانه أباح لهم أن يلبسوا النعال في أرجلهم لكن على شكل غير معتاد أيضاً.

فلما أحرموا حَرّموا على أنفسهم العادات والتقاليد المستحكمة فيهم، والشهوات النفسية، وتوجهوا بالذل والانكسار، وعليهم شعار العبودية،

حتى صاروا عباداً يقصدون ربهم، وأجابوا دعوته، وقالوا: لبيك اللهم لبيك ـ أي: أجبت دعوتك إجابة بعد إجابة ـ ولم يقل العبد: لبيك أيها البيت بل قصد ربّ البيت، وأجاب دعوته وقال: لبيك اللهم لبيك.

فلما دخل مكة بعمرة أو حج راح للطواف، وهذا من جملة تفضيل الله لهذا المكان، أنه سبحانه حَرّم دخوله لأيٍّ أحد كان إلا بعمرة أو حج، إلا ما كان من أهل مكة الذين يخرجون منها ويدخلون إليها لحاجاتهم المتكررة، كما أنه سبحانه جعل في هذا البلد الأمين جعل الهمة بالسوء سيئة، وذلك لفضل المقام، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] ولم يقل: ومن يرد فيه إلحاداً، بل قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ لأنه سبحانه ضَمَّن الإرادة معنى الهمة، وكأنه قال: وَمَنْ يهم فيه بإلحاد بظلم، يعني: من هم فيه بفعل سيئة كتبت عليه سيئة، بخلاف بقية البقاع.

ولما دخل العبد المُحْرِم مكة، ولبى دعوة الله تعالى، وتوجه إلى المسجد الحرام، وقبل أن يشرع بالطواف حول البيت عليه أن يستلم الحَجَر، وإنْ لم يتمكن من ذلك أشار إليه بيديه مستلماً، وراح يطوف حول البيت، متشبها بالملائكة الذين يطوفون حول عرش الله تعالى، وكما أن لله تجلياً على العرش فله تجلٍّ على البيت، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وينبغي للطائف أن يُسبح الله في طوافه كما تفعل الملائكة، وأن يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وإنّ الملائكة لمّا تطوف حول عرش الله، فإنها تراقب وتشاهد أنوار

ربها جل وعلا، وهذا ما ينبغي على الطائف حول الكعبة أن يشاهد ربه بقلبه، وَمِنْ هذا ما جاء أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يطوف حول البيت، فسلم عليه رجل فلم يرد عليه السلام، فرفع ذلك إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فجيء بابنه فلما قيل له ذلك، قال: يا أبت كنا نطوف حول البيت نتراءى الله تعالى. أي: كنا نشاهد الله بقلوبنا.

وأما استلام العبد للحجر الأسود فينبغي عليه أن يستلمه ويقبله واضعاً جبهته عليه، ساجداً لله عليه، وإن لم يتمكن أشار إلى ذلك إشارة فيها هذا المعنى، وأما استلام الركن اليماني فهو مَسكه باليدين تبركاً وتيمناً، على أنه موضع اليُمن والبركة، ويؤمِّنُ عنده سبعون ملكاً على كل دعوة يدعو بها المؤمن الطائف حول الكعبة. كما ورد ذلك[(١)].

أما الحكمة من استلام الحجر الأسود وتقبيله، والسجود لله تعالى عليه: فاعلم أولاً أن هذا الحجر قد نزل من الجنة، كما جاء في (سنن) الترمذي[(٢)]، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «نَزَلَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ».

أما قوله «فَسَوَّدَتْه» أي: جعلته أسود اللون من السواد إذ أثرت فيه معاصي وخطايا بني آدم فصار أسوداً.

وقد يقال: إنه في العهد الذي بُعث فيه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وطهَّر الأرض من الشرك والدنس، فَلِمَ لَمْ يعد إلى أصله الأول وهو البياض؟

---

(١) في (سنن) ابن ماجه كتاب المناسك، باب فضل الطواف /٢٩٥٧/ (٢/٩٨٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في كتاب الحج، باب ما جاء في فضل الحجر الأسود... /٨٧٧/ (٣/٢٣٢)، وابن خزيمة /٢٧٣٣/ عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وقد أجاب العلماء على ذلك: بأن الحجر بقي أسوداً عِبْرة للناس حتى يعتبروا، ويعلموا أن المعاصي تؤثر في الحجر، فَمِنْ باب أولى أنها تؤثر في القلوب، وتجعلها سوداء مظلمة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وقد قال العارفون رضي الله عنهم في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ» أي: جعلته سيدا من السؤدد، وذلك لَمّا خالف بعض بني آدم ربهم وعصوه، وجاؤوا تائبين قاصدين هذا البيت، وقبلوا هذا الحجر، راجين مغفرة الله وفضله، وبذلك صار الحجر سَيّداً، نعم فلقد لبس هذا الحجر لون السواد، لأنه شعار الأسياد فهو سيد اكتسى سواداً.

ومن ناحية أخرى: فإنّ استلام الحجر الأسود بمنزلة المبايعة مع الله تعالى، كما روى الترمذي[1]، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لَيَبْعَثَنَّهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي: الحجر الأسود «لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، يَشْهَدُ عَلَى مَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ» فَمَنِ استلمه بحق فقد بايع الله؛ كما في رواية ابن أبي حاتم.

وفي الحديث الذي رواه الديلمي وغيره[2] «الحَجَرُ يَمِينُ الله في الأرض، فمَنْ مَسَحَ يده على الحجر فَقَدْ بَايَعَ الله أن لا يعصيه».

وليس معنى اليمين: الجارحة المعروفة، كما أنه لَمّا قال سبحانه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] فليس المراد منه موضع المبيت كما يبيت

---

(١) في أواخر كتاب الحج /٩٦١/ (٣/٣٢٩) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الفردوس /٢٨٠٧/ عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، وعزاه السيوطي في (الجامع الصغير) إلى الأزرقي في (تاريخ مكة المكرمة) عن عكرمة موقوفاً، كما في (كنز العمال).

الإنسان في بيته، ولكن المعنى بَيْتَ عبادتي، وبَيْتَ طاعتي، وبيت معرفتي، وهي البقعة التي يتجلى فيها الله على عباده؛ وهي الكعبة المشرفة.

وقد أمر الله تعالى عباده أن يتوجهوا إلى بيته المعظم في صلواتهم لأنه لَمّا يدخل وقت الصلاة يتجلى الله في هذا البيت على عباده بالإقبال، وهذا معنى قول المؤذن: حي على الصلاة. أي: أقبل على الصلاة لأن الله قد توجه إليك، وأقبل عليك في بيته المعظم سبحانه، وما دام العبد متوجهاً إلى ربه في صلاته فالله تعالى متوجه إليه ومقبل عليه، كما في الحديث: «فإنَّ الله يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِه»[(١)].

وعلى هذا فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحَجَرُ يَمِينُ الله في الأرض» أي: موضع يُمن الله وبركة الله تعالى، وموضع المبايعة مع الله، فمن استلم هذا الحجر بِحَقٍّ، وقبله بحقٍّ فكأنما بايع الله تعالى.

وهنا يظهر لك الفرق جلياً بين استلام الركن واستلام الحجر، فاستلام الركن للتبرك، واستلام الحجر للمبايعة، فمن استلمه بحق فكأنما بايع الله تعالى على التوبة، وأن لا يعصي الله تعالى، ومَنْ فعل ذلك فإن الله تعالى يُجيبه بالمغفرة على ما سبق منه، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رجع مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَومَ وَلَدَتْهُ أمهُ»[(٢)].

---

(١) طرف من حديث رواه الترمذي في كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة /٢٨٦٧/ (٧٦/٨)، وابن حبان /٦٢٠٠/ عن سيدنا الحارث الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور /١٥٢١/ (٣٨٢/٣)، ومسلم /١٣٥٠/ وغيرهما عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

ولقد جعل الله تعالى هذا الحجر الأسود يمين الله في الأرض، أي: موضع يمنه وبركته سبحانه، وجعل هذا البشر الأسعد، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم خليفة عنه في الأرض، وأمر أن يبايعوه وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] فانظر في فضل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، خليفة الله الأعظم في أرضه.

وإن نسبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بقية الأنبياء كنسبة الحجر الأسود إلى بقية أحجار الكعبة، إذ أنَّ بيت الله هو الكعبة المشرفة، مؤلف من أحجار ولبنات، وأفضلها الأسود، كما أَنَّ بيت النبوة الذي حوى جميع الأنبياء قد فضله وجمَّله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما جاء في الحديث[(١)]: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ من قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلا مَوضِعَ لبنة من زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يطوفون بِهِ وَيَعَجبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَة».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَأَنَا اللبنةُ، وَأَنَا خَاتَم النَّبِيينَ» فهو صلى الله عليه وآله وسلم جمال الأنبياء، وهو فَصُّ خاتمهم، وهو ياقوتهم، وهو وجههم الجميل صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

وعلى هذا فكأن كل لبنة من أحجار الكعبة قائمة مقام نبي، وكما أن أحجار الكعبة متفاوتة في العلو والحجم، وكذلك تتفاضل الأنبياء فيما بينهم، وهناك حجر وسطي ـ وخير الأمور أوساطها ـ في ركن قوي ثابت،

---

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم /٣٥٣٥/ (٥٥٨/٦) واللفظ له، ومسلم /٢٢٨٦/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي /٢٨٦٦/ عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

وهذا هو الحجر الأسود، وأفضل لبنات النبوة لبنة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

واعلم أن مبايعة الله تعالى عند استلام الحجر، إنما على ترك المعاصي والذنوب، وكأن العبد يقول: يا رب اغفر لي ما مضى، وأعاهدك على أن لا أعود إليها.

أما مبايعة الله تعالى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهي مبايعة على أصل الإيمان والدخول في الإسلام.

وهكذا لما استلم العبد الحجر، وبايع الله تعالى على ترك الذنوب والتوبة إلى الله تعالى، راح يسعى بين الصفا والمروة، فقد صفا من ذنوبه، وتخلص من أكداره، وعاهد ربه على أن لا يعود إلى الذنوب، راح يسعى بين الصفا والمروة إلى مغفرة الله، ورحمة الله، وإلى رضوان الله، والله تعالى يقول: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِه ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلاٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلاٍ خَيْرٍ مِنْهُ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْه ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(١).

فراح هذا العبد يسعى ـ أي: يمشي ـ ويهرول إلى الله تعالى، أي: إلى مغفرة ربه ورحمة ربه، كما أخبر سبحانه عن الخليل: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] أي: ذاهب بقلبي وروحي ومتوجه إلى الله تعالى.

ثم يذهب العبد إلى عرفات، وهو موقف يَعْرِف فيه العبد أنه عبد، ويعرف فيه مقام الربّ، وهذا موقف ينبغي على العبد أن يعرف فيه نفسه

---

(١) تقدم تخريجه ص /٣٦١/.

بالذنوب، ويعرف ربه بالمغفرة، ويعرف العبد أنه مسيءٌ، وأن ربه العفوّ، وهكذا فهو مَوْقِفُ عَبْدٍ عليه شعار الذل والمسكنة، يستمطر مغفرة الله ورحمته، إذ أن في عرفات عرف آدم عليه السلام بأنه ظَلَم نفسه، ورجع إلى ربه سائلاً المغفرة، قال تعالى مخبراً عن آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ وهذا اعتراف بالذنب ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ وهذا رجوع إلى الله ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ولما وقف العباد هذا الموقف، حتى أتت عليهم عشية عرفات، ولم يُخَيِّبْهم الله تعالى، بل تجلى عليهم بالمغفرة والرحمة، وباهى بهم الملائكة فيقول: «انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً ضاحين» بارزين للشمس غير مستترين منها «من كل فج عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم»[(١)].

ثم تعم الرحمة جميع المؤمنين على وجه الأرض، ولذلك راح إبليس يدعو على نفسه بالويل والثبور[(٢)]، لِمَا رأى من سعة مغفرة الله تعالى في ذلك اليوم.

فلما أفاضوا من عرفات وقد غفر الله لهم، وقد ارتفعت وزالت الموانع والعوائق التي كانت تمنعهم من التقرب إلى الله تعالى، وهي الذنوب والمعاصي، وأصبح العبد صافياً نقياً، صار أهلاً عندئذٍ أن يدخل في مقامات القرب من حضرة الله تعالى، فراح إلى المزدلفة. ومعنى زَلَف

---

(١) كما في (شعب الإيمان) للبيهقي /٤٠٦٨/ (٣/٤٦٠) واللفظ له، وابن حبان /٣٨٤٢/ وغيرهما عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٢) كما رواه الطبراني في (الكبير) (مجمع الزوائد) (٣/٢٥٧) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

وازدلف: أي اقترب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: ٤٠] أي: قُرب، فيقال: زلف، أي: قَرُب، وازدلف إذا اقترب أكثر فأكثر، فالمزدلفة موضع الاقتراب والتقرب من حضرة الله تعالى.

ثم مضوا إلى مِنى لينالوا المُنى، وينالوا ما يتمنون وما يطلبون ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَيَّامُ التَّشْرِيْقِ أَيَّامُ أكلٍ وشُربٍ وذكر لله»[١].

فهي أيام ضيافة رب العالمين لعباده المؤمنين، فلا يجوز لأحد الصيام في تلك الأيام لأنها أيام ضيافة الله تعالى، وإكرامه لعباده بأنواع المكارم والعطايا والمواهب الربانية، والمعارف الإلهية.

وهكذا راحوا إلى مِنى لينالوا المُنى، لأنهم لَمّا دخلوا مقام القرب قيل لهم: تمنوا فَتُعَطوا، فراحوا يتمنون والله يعطيهم، ثم قيل لهم:[٢] إن إبليس يُريد أن يضركم بشيء من وساوسه وإزعاجه، فنهضوا بقوة، وأخذوا الجمرات التي جمعوها من مزدلفة، وكانت بمنزلة السلاح في يدهم، وراحوا يرمونه ويقولون له: اخسأ يا عدو الله، فما تضرنا وسوستك بعد اليوم، فلقد قَصَدْنا ربّنا فغفر لنا، ورحمنا، وقَرَّبنا من حضرته، وأعطانا مُنانا وفوق منانا، فالتقم الحجر يا عدو الله ـ ومثال ذلك كالكلب يعوي، وأنت في حضرة الملك تَنْعم بقربه وعطائه، فما يضرك عواء ذلك الكلب، بل تُلقمه بيدك الحجر لإبعاده عنك وإذلاله ـ فيرمونه سبعاً. وهو من أعداد الكثرة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق /١١٤٠/ (١١٥٩/٣) عن سيدنا نبيشة الهذلي رضي الله عنه، وأبو داود /٢٤١٩/، والترمذي /٧٧٣/ عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) ينظر (صحيح) ابن خزيمة /٢٩٦٧/، و(المستدرك) (٤٦٦/١).

وهكذا مَنْ عرف الحُكْم والحِكمة من أعمال الحج طار إلى الله بجناحيه، وَمَن عرف الحُكم بلا حِكْمة عرَج بجناح واحد.

ولما أراد أبرهة أن يهدم بيت الله الحرام، ليرغم الناس أن يحجوا إلى بيتٍ بَناه في صنعاء اليمن، وقد بناه من ذهب، وكلَّلَهُ بالأحجار الثمينة، ولما بلغ العرب أن أبرهة يريد أن يصرف الناس إلى حج بيته، راح رجل من بعض قبائل العرب إلى هذا البيت وبال وتغوط فيه، ثم انصرف هارباً، فلما علم أبرهة بذلك، عزم على أن يذهب ويهدم الكعبة، حتى إذا وصل إلى المغمَّس ـ بشد الميم وكسرها وفتحها، وهو موضع قريب من مكة، على ثلثي فرسخ ـ أرسل رجلاً يُخبر أهل مكة أنه ما جاء محارباً لهم، بل يريد هدم البيت فقط، وكان كلّما مَر في طريقه على دواب وأنعام اغتصبها، حتى إنه اغتصب أموالاً لعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وطلب من أهل مكة أن ترسل إليه بأشرافها، فجاء إليه عبد المطلب، وكان رجلاً مهيباً، فنزل أبرهة عن كرسيه وجلس إلى جانبه.

وقال له عبد المطلب: إنك أخذت لي مائتي جمل فأريد ردها.

فقال أبرهة: إنك لما دخلت عَليّ عظمت في عيني، والآن صغرت.

قال: لِمَ؟ قال: لقد سألت عن إبلك، ولم تسأل عن هذا البيت الذي أريد هدمه.

فقال عبد المطلب: أما الإبل فأنا ربها ـ أي: صاحبها ـ وإن لهذا البيت رباً سيحميه. فقال أبرهة: ما يمتنع مني.

فقال عبد المطلب: أنت وذاك ـ أي: أنت ورب البيت ـ فلينظر الغالب.

وقد كان عبد المطلب عَرَض على أبرهة أن يُعطيه ثلثي أموال تهامة ـ مكة وما حولها ـ على أن يرجع فلم يفعل ولم يرض، فرجع عبد المطلب إلى الكعبة.وأخذ بحلقة باب الكعبة، ومعه جماعة من أشراف قريش، فجعلوا يدعون الله ويستنصرونه. و كان فيما قال عبد المطلب:

لا هـمَّ[1] إن العبد يمـ ـنع رحله فامنع رحالك
إن كنت تاركهم وقبلتـ ـنا فأمر ما بدا لك[2]

وراح رجل من العرب ـ وكان أسيراً ـ وجاء إلى أذن الفيل الذي أراد أبرهة أن يُسلطه على البيت، وكان أبرهة قد سمى هذا الفيل (محموداً) وجاء هذا الرجل، وأخذ أذن الفيل وفركها وقال له: اقعد محمود، وإن شئت فارجع من حيث جئت؛ فإنك في بلد الله الحرام.

فلما جاء جيش أبرهة إلى الفيل ليقوم معهم فلم يقم، وحاولوا مراراً فلم يفعل، حتى إنهم ضربوه وحرقوه بأسياخ الحديد المحماة بالنار فلم يقم، ولكنهم لَمّا يُحَوِّلونِ جهته يقوم حالاً، كما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حَبَسَهُ حَابِسُ الفِيْلِ» أي: أن الله رب البيت وخالق الفيل حبس هذا عن هذا.

وَهُمْ على ذلك أرسل الله تعالىٰ طيوراً أبابيل ـ جمع أُبّولة ـ أي: جماعة بعد جماعة، وكل منها تحمل ثلاثة أحجار من طين، وَجَعلت ترمي بها هؤلاء الذين أرادوا هدم الكعبة حتى قضت عليهم، ثم أصابت أبرهة وجعل جسمه يتفطر، وأعضاؤه تتقطع، وهو ينهزم ويسأل عن طريق

---

(١) وهي تخفيف اللهم، والمعنى: يا الله.

(٢) أي: أنت تفعل ما تريد يا الله.

الرجعة، وجعل نفيل بن حبيب يقول:

أيـن المفـر والإلـه الطالـب   والأشـرم المغلـوب لـيس الغالـب

والأشرم هو أبرهة، لأنه كان أشرم الأنف

ووصل أبرهة إلى بلده مهزوماً، وهو يذوق أنواع العذاب ومات فيها، وقد هلك كل الجيش الذي كان معه، إلا واحداً بقي حياً إلى أن رجع إلى الحبشة، ودخل على ملكها وأخبره الخبر، وكان هناك طيرٌ من الطير الأبابيل يتتبعه، حتى إذا بلَّغ الرجل الرسالة للملك، وأنه هكذا فعل الله بهم وأهلك الجيش كله، هناك رمى الطير حجرته على هذا الرجل، فخرقت السقف وأصابت رأسه وخرجت من دبره ومات(١).

ولقد امتن الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مذكراً له فضله عليه، وعنايته به فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ أي: ألم تعلم يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم علماً يقيناً كأنها رؤية عيان ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ الذي هو ربك وسيدك ومولاك، والذي هو رباك ويربيك، والذي له بك عناية خاصة، ومنها أنه حفظ لك هذا البيت، الذي يكون لك ولأمتك مُصَلّى ومرجعاً. تشريفاً لك وتكريماً.

وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم وُلد في ذلك العام الذي حصلت فيه حادثة الفيل، وَحَفِظ الله فيه بيته، تكريماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ أي: جعله في إبطال وضياع، وردَّه عليهم.

---

(١) ينظر الخبر في سيرة ابن هشام وابن كثير وشرح المواهب وغيرها.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي: جماعـات بعـد جماعـات، كالغـارة تلي الغارة.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: من طين مطبوخ، وجعلت تـرميهم بإتقان وإحكام، حتى أنها ما أخطأت واحداً منهم.

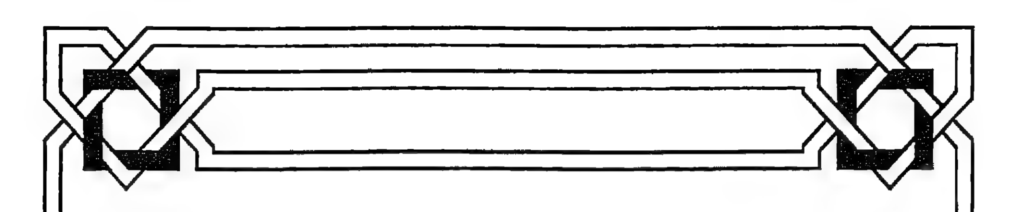
﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي: كـزرع أُعـد للحيوانـات أن تأكلـه كالتبن الذي ترعاه الدواب.

وقد كانت هذه الحادثة مُقدمة وبشارة لبعثـة سـيدنا رسـول الله صـلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يُذَكِّر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآلـه وسـلم بتلـك المنـة والفضـل الإلهـي العظيم عليه صلى الله عليه وآله وسلم، بأنْ حفظ لـه هذا البيت كما تقدم.

وكَم هناك مِنْ بشائر ومقدمات سبقت بعثة النبي صـلى الله عليـه وآلـه وسلم، وكلّها مُؤذنة بقرب ظهوره صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم، وانتشـار دعوته صلى الله عليه وآله وسلم.

والحمد لله رب العالمين

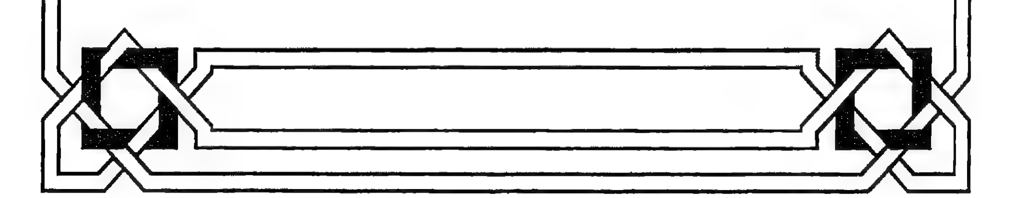
* * * * *



محاضرة حول

حياة القلوب بالروح القرآني والروح النبوي المحمدي

صلى الله عليه وآله وسلم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تقدم الكلام على أن الله تعالى قد أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة.

ومن هذه المواقف المحمدية أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ومن مواقفه أيضاً أن الله تعالى أرسله ﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ـ ٤٦] وأن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين، وأرسله هادياً للعالمين.

ومِنْ مواقفه أيضاً موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في الوعظ والتذكير، وقد تقدم بيان ذلك مفصلاً.

ومن مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أن الله تعالى أرسله بحياة العالم كله، فقد جاء ومعه الروح الرباني ليُحييَ به العالم، فَمَنِ اقتبس من الروح المحمدي وتحقق بما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم فقد حَيِيَ حياة الأبد، ومَنْ فَقَدَ ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الحياة، ولم يتبع النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فقد مات ميتة الأبد، وفيما يلي كلمات جامعة تدل على هذه المعاني، تُبين معاني الروح القرآنية الربانية، وأثرها في حياة الروح الإنسانية حياة الأبد، ومن وجوه متعددة:

الوجه الأول: لقد بَيَّن سبحانه أنه أرسل رُسله بروح أمرية ربانية إيمانية، تحيا بها أرواح وقلوب من استجاب لدعوتهم مِنْ أممهم، قال سبحانه: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الرسل والأنبياء عليهم السلام ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وأعظم رسول جاء بأعظم روح ربانية أمرية قرآنية، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أرسله الله سبحانه إلى الناس جميعاً إلى يوم الدين.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٤] فالوحي الرباني على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بما فيه من وحي قرآني ووحي نبوي، إنما هو رُوح تحيا بها الأرواح والقلوب الإنسانية، التي استجابت لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واقتبست من الروح التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالقرآن الكريم النازل على رسول الله فيه روح أمرية ربانية، وأحاديثه الكريمة صلى الله عليه وآله وسلم التي هي بوحي من الله تعالى، فيها أيضاً روح ربانية محمدّية، لأنّ القرآن والحديث كلاهما بوحي من الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلاَ وَإِنِي أوتِيْتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»[1] أي: وحياً أيضاً، وهو الأحاديث النبوية التي سمَّاها القرآن بالحكمة، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وهي: السنة بما اشتملت عليه من أقواله صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله وأخلاقه وآدابه الشريفةصلى الله عليه وآله وسلم.

إلا أنّ القرآن نَزل به جبريل عليه السلام على سيدنا رسول الله بالوحي القرآني، وأما الوحي النبوي فله أنواع ومراتب:

فمنها ما نزل به جبريل عليه السلام، ومنها غيره من الملائكة، ومنها ما يتمثل به جبريل بصورة رجل، ومنها بواسطة النَفْث في الرَّوْع، ومنها بواسطة الرؤيا المنامية وهكذا.

الوجه الثاني: إنّ مِنْ شأن الروح أن تعطيَ الحياة لمن سرت إليه، ولَمّا كانت الروح على مراتب فالحياة على أنواع:

فهناك حياة لا روح فيها: وهي حياة النموّ كحياة النبات والشجر.

وهناك الحياة المتوقفة على الروح: كالحياة الجسمانية التي تتوقف عليها المدارك والقوى الحسّيّة، كالسمع والبصر والشمّ والذوق، واللمس والحركة وهكذا.

---

(١) طرف من حديث رواه أبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة /٤٦٠٤/ (٥/١٠)، والترمذي /٢٦٦٦/ عن سيدنا المقدام بن معديكرب رضي الله عنه.

وهناك **الروح العالية** التي تكون بسبب الروح الربانية الأمرية الإيمانية، والتي تحيا بها الأرواح والقلوب الإنسانية حياة سعيدة طيبة أبديَّة، وهذا قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فليس المراد لما يُحيي أجسامكم، إذ أنكم أحياء الجسم والمدارك، بل المراد استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما فيه حياة قلوبكم وأرواحكم، حياة الأبد العالية.

وَمَنْ زعم أنّ الحياة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ أنها حياة مجازية لا حقيقية، فيقال: إن الحياة على مراتب وأنواع، وكل مرتبة منها هي حياة حقيقية، كما قال سبحانه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣] فهل كانت مَيتة على الحقيقة وأحياها الله على الحقيقة؛ أم على سبيل المجاز؟!

فهي لما حييت أنبتت وأعشبت، وأزهرت وأينعت، وهكذا كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥].

وكذلك الإنسان لَمَّا يكون جنيناً في بطن أمه، فيرسل الله إليه ملكاً بعد مضي مائة وعشرين يوماً على تخليقه وتصويره ونموِّه، فينفخ فيه الروح، فتدب فيه الروح الجسمانية وهي حياة حقيقة، بحيث أنه إذا كبر وفارقت روحه بدنه مات في أجله الذي أجَّلَه الله له.

وهكذا حياة القلوب والأرواح الإنسانية، فإنها تحيا بروح الوحي الرباني المحمدي حياة الأبد، وهي حياة إيمانية طيبة سعيدة، وهي حياة حقيقية، يشعر بآثارها كل مؤمن اطمأن قلبه على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] أي: في الدنيا والآخرة.

الوجه الثالث: لقد أشار الله سبحانه إلى إحيائه لأرض القلوب القاسية الميتة بقوله سبحانه: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦-١٧].

فقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تنبيه للعقلاء أن يتدبروا ويتفكروا في كلامه سبحانه، إذ أنّ أرض الأجسام الحسِّيَّة تحيا بماء السماء، وهذا أمر يشهده كل عاقل ولا يحتاج إلى جهد وإعمال للفكر.

أما مَنْ تدبر في الآية قبلها، وأنّ أولئك طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، حتى صارت صمّاء كالأحجار القاسية، فإنّ الذي يُلين هذه الأرض الجامدة الهامدة القاسية، ويحييها بماء السماء، ويجعلها تُنبت وتخضر، وتزهر وتثمر هو الله سبحانه، الذي يُحيي أيضاً أرض القلوب الجسمانية بوحي السَّماء، الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال: «إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الهُدْىٰ وَالعِلْم كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ

أَرْضاً: فَكَانَت مِنْهَا طَائِفَةٌ طيبةٌ قَبِلَت الْمَاءَ فَأَنْبَتَـت الْكَـلأَ وَالْعُشْـبَ الْكَـثِيرَ، وكَان مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسكَت الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ؛ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُـوا. وَأَصَاب مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ الله، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[1].

فماء السماء قد يصيب أرضاً تمسك منه شيئاً وتخضـر وتنبـت، ومنـها ما يمسك الماء لكنها لا تخضر ولا تنبت ولا تزهر، ومنـها قاسـية صـلبة لا تمسك الماء ولا تخضر ولا تنبت.

وهذا مثل مَنِ استفاد وانتفع بالعلم والهدي المحمدي؛ ونفـع غـيره، ومثل مَنِ انتفع ولم ينفع غيره، ومثل مَنْ لم يستفد ولم ينتفع ولم ينفع غيره.

وقال ابن عباس رضي الله عنـهما في قولـه تعـالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧] إنّ الله تعالى يُحيـي القلـوب الميتـة بنـور الإيمان والعلم، وإلاّ فقد عُلِمَ إحياء الأرض بالمطر مشاهدة. اهـ

وَرُوِيَ أن لقمان عليه السلام قال لابنه: يابني جـالس العلمـاء واسمـع كلام الحكماء، فإنّ الله تعالى يحيي القلب الميت بنور العلم والحكمة، كما يُحيي الأرض بوابل المطر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله أيُّ جلسائنا خير؟

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب فضل مَنْ عَلِـمَ وعَلّـم /٧٩/ (١/١٧٥)، ومسـلم في كتـاب الفضـائل /٢٢٨٢/ (٥/٢٣١١) عـن سـيدنا أبي موسـى الأشعري رضي الله عنه.

قال: «مَـنْ ذَكَّـرَكُم الله رؤيَتُـهُ، وَزَادَ فِـي عِلْمِكُـم مَنْطِقُـهُ، وَ ذكَّـرَكُم بِالآخِرَةِ عَمَلُهُ»[1].

وقوله صلى الله عليـه وآلـه وسـلم: «مَـنْ ذَكَّـرَكُم الله رؤيَتُـهُ» أي: إذا نظـرت إليـه ذكـرت الله تعـالى، لِمَـا عليـه مِـنْ علامـات التقـىٰ والصـلاح والإخلاص مع الله تعالى، كما قال تعالى في أصحاب رسـول الله صـلى الله عليه وآله وسلم: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩].

وإن لكل مؤمن سيما تُعـرف في وجهـه، وتكـون قـوة ظهورهـا علـى حسب إيمانه وصلاحه.

ويقول سبحانه في بيان سيما المؤمنين وسيما الكافرين: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ [الأعراف: ٤٦].

فكلٌّ من أهل الجنة له سيما، وكل من أهل النار له سيما.

الوجه الرابع: إنّه لَمّا كانت الأجسام الإنسـانية تحيـا بـالروح الإنسـانية فكلما كان الجسم صحيحاً سليماً؛ كلما قويـت مداركـه وحواسـه، كبصـره للمشهودات وسمعه للمحسوسات أقوى وأشد.

وكلما ضعف الجسم كلما ضعفت مداركه وحواسه، أي: ضعفت آثار الحياة فيه، وكذلك أيضاً الحياة الإيمانيـة، فكلمـا قويـت حيـاة الإيمـان في قلب المؤمن؛ كلما زادت وقويت تطلعاته الغيبية وقويت بصيرته، فيرى مـا لا يراه غيره، ويسمع ما لا يسمعه غـيره، كـل ذلـك لقـوة نـور الإيمـان في قلبه، وقوة الروح الإيمانية التي أمدَّته بالحيـاة الإيمانيـة العاليـة، وَمِـنْ هـذا

---

(١) رواه أبو يعلىٰ (مجمع الزوئد) (١٠/٢٢٦) و(مسند) أبي يعلى /٢٤٣٦/.

تدرك معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله»[1].

أي: بنور الإيمان الذي أودعه الله في قلبه، فينظر بنور الله، ويسمع بنور الله، وهكذا تندرج كرامات الأولياء رضي الله عنهم في هذا المضمار، لأنّ قوة الإيمان في قلوبهم جعلت آثار الحياة الإيمانية في مداركهم وحواسهم أقوى وأشد.

الوجه الخامس: إنّ مَنِ استجاب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسرت الروح الربانية القرآنية المحمدية في قلبه، فقد نال حياة الأبد، فإنّه وإنْ مات جسمه، وفارقت روحه الإنسانية جسدَه؛ إلا أنّ قلبه حيٌّ، وإنما انتقل إلى حياة برزخية أخرى، وهي أقوى وأعلى من الحياة الدنيوية المقيّدة، وهكذا يتنقل في برازخ الآخرة، حتى يدخل دار الخلد في جنة الله ليحيا حياة الأبد.

وأما الكافر الذي أعرض عن قبول الروح الرباني القرآني المحمدي، فقد مات مِيتة الأبد، وفقد مداركه وحواسه الإيمانية، واقتصرت حياته الجسمانية في الدنيا على الأكل والشرب، والانغماس في شهوات النفس، حتى صار كالبهائم في حقيقته، وإن كان آدمي الصورة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [القتال: ١٢].

وقال تعالى في الكافرين الذين فقدوا حياة القلوب والأرواح:

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير، ومن سورة الحجر /٣١٢٥/ (٨/٢٨٢) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

وإنّ شأن الميت أَنْ تتوقف حواسه عن الإدراك والعمل، فلا يُبصر ولا يسمع، ولا يشعر بجسمه الذي فارقه الروح، فكذلك الكفار الذين فقدوا الروح الإيمانية، قال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] وقال فيهم سبحانه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ [الأنعام: ٣٦] أي: إنما يستجيب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ الذين يسمعون بآذانهم سماع قبول وتفكر وتدبر، فيؤمنون ويذعنون، وأما الكفار المعرضون فهم أموات لا يسمعون بقلوبهم بل بآذانهم فقط.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ أي: حيَّ القلب، يقبل الموعظة وينتفع، أما الكافر فهو ميت القلب فيعرض عن الحق، ويحق عليه العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في القرآن الكريم وتذكيره.

﴿لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي: قلب حَيٌّ سليم، إذ لا يخلو أحد من القلب الجسماني اللحماني الصنوبري الشكل.

وقال تعالى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: موتى القلوب والأرواح ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾

لأنهم تصاموا عن سماع وقبول الحق ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ لأنهم تعاموا وآثروا العمي على الهدى ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [الروم: ٥٢-٥٣] أحياء القلوب والأرواح، استسلموا للحق لمّا ظهر لهم.

وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

الوجه السادس: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي: أن مقتضى إيمانكم يقتضي منكم ويحتم عليكم أن تستجيبوا لدعوة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولم يقل سبحانه: إذا دعاكم الله ودعاكم رسول الله.

وفي هذا بيان من الله تعالى إلى أنّ دعوة الله تعالى هي دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَمَنْ أجاب دعوة رسوله فقد أجاب دعوته سبحانه، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

لأنه هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناطق عن الله تعالى، والمعبِّر عن الله تعالى، والمبلّغ عن الله شرعه وأوامره، فالاستجابة له صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي استجابة لله تعالى، **ولم يقل سبحانه**: إذا

دعواكم، بل قال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أي: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَبَيّن وجوب الاستجابة لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم فقال تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فَمَنْ أجابه فقد حصل على الحياة، وَمَنْ لا: فهو في الممات.

وتفكّر لَو أَنّ طبيباً عالماً حاذقاً دعاك لعلاج عِلة فيك، أفلا تُسرع إليه وتجيب دعوته، وتذعن لنصائحه لتشفى وتبرأ؟!

نعم فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء يدعو الناس كلهم لما فيه حياتهم الطيبة السعيدة، فينبغي عليهم أن يُسرعوا لإجابة دعوته وامتثال أمره صلى الله عليه وآله وسلم.

فقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يحييكم حياة طيبة إيمانية سعيدة في الدنيا، ويحييكم حياة سعيدة أبدية في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يُحيي قلوبكم فتدركون بسمع قلوبكم وبصرها ما لا يدركه غيركم، وتشهدون ما لا يشهده غيركم، وتعقلون ما لا يعقله غيركم.

ولذلك تجد أَنّ عقلية المؤمن ومداركه ليست كمدارك الكافر، إذ أَنّ مدارك الكافر محدودة؛ وإن بَرع في الدنيا، ولكنه ضِمْن حدود الدنيا.

أما عقلية المؤمن فهي نافذة من الدنيا إلى ما وراء هذا العالم إلى الآخرة، تنفذ من عالم الخلق إلى عالم الأمر، وتنظر في عواقب الأمور كلها.

الوجه السابع: في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يأمر سبحانه العقلاء أن يستجيبوا لدعوة رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم استجابة مطلقة عامة، في جميع ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا معنى الاتباع المطلق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى لو أن أحداً زعم أنه يؤمن بوجود الله تعالى من خلال فكره وتدبره في المخلوقات الكونية، وأنه لا يتبع رسول الله في ذلك، بل انتهى بفكره وعقله إلى وجود الخالق، فيقال له: إيمانك غير صحيح، وغير مقبول؛ إلا من كان في زمن الفترة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعد بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيجب على كل عاقل مكلّف أن يتبع رسول الله، وأن يؤمن بالله تعالى على الوجه الذي دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنّ هذا شأن كل من أدرك رسالة رسول الله، ولهذا قال تعالى مخبراً عن سحرة فرعون: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٢] ولم يقولوا: آمنا برب العالمين فقط، بل ربّ العالمين الذي هو رب موسى وهارون، والذي دعا موسى وهارون إلى الإيمان به وعبادته جلَّ وعلا.

كما أنّ موسى عليه السلام مرسل إلى فرعون وإليهم أيضاً، فآمنوا بالرب الذي دعا إليه موسى وهارون عليهما السلام اتباعاً لهما.

ومما تقدم يَعلم العاقل أنّه لا حياة طيبة ينشدها، ولا خير يرجوه ولا نجاح ولا فلاح يؤمّله، ولا علمٌ ينفعه في الدنيا ولا في الآخرة؛ إلا ما كان من طريق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الوجه الثامن: إنّ الحياة الإيمانية المحمدية تحفظ على المؤمن صورته الإنسانية الآدمية الكاملة، فَمَن مات على الإيمان فإن الله تعالى

يحشره على صورة إنسانية آدمية كاملة، وَمَنْ فقد الحياة الإيمانية ومات على الكفر فإن الله تعالى يحشره على صورة البهائم.

ويدل على ذلك ما رواه الإمام البخاري[1]، عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يلقىٰ إِبْرَاهِيْمَ أَبَاهُ آزر يوم القيامة وعلى وجْهِ آزر قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ» أي: عمه وكان قد مات على الكفر[2]، ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ لإبرَاهِيمَ عليه السلام أنَّ الجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الكَافِرِيْنَ، وأَنَّهُ لاَ اسْتِعْدَادَ وَلاَ قَابِلِيَّةَ عِنْدَه لِدُخُولِ الجَنَّة «فيقول الله تعالى: إنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ على الكافرين، ثم يقال: يَاإِبْرَاهِيْمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ، فَيَنْظُرُ فإذا هو بِذِيْخ متلطخ» وهو: ذَكَرُ الضباع، فلما يرى إبراهيم حقيقته تبرأ منه «فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار». أي: أن الجنة لا يدخلها إلا الإنسان الكامل في إنسانيته: معنىً وصورةً، وهو الإنسان المؤمن الكامل الإيمان.

أما الكافر فهو في الدنيا بصورة الإنسان، ولكن حقيقته حيوان بهيم فإذا جاء يوم القيامة ظهر على حقيقته ونال جزاءه.

قال تعالى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٣٩] فلما اتصفوا في الدنيا بصفات البهائم، حشرهم الله يوم القيامة على صورتها.

وأما الجنة التي هي دار ضيافة الله وفي جواره فلا يليق أن يدخلها

---

(١) في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ [النساء: ١٦٥] /٣٣٥٠/ (٦/٣٨٧) وينظر في /٤٧٦٨و٤٧٦٩/.

(٢) وتطلق كلمة الأب على العم، وعلى ذلك أدلة كثيرة ذكرها الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتاب: (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) فارجع إليه ينفعك الله تعالى به.

البهائم والحيوانات، ولا يليق أن يكون في جواره سبحانه إلا الطيبون الأخيار. اللهم اجعلنا منهم، وما طريق الفوز بذلك إلا اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليحيا الإنسان حياة الأبد، وينال كرامة الأبد.

وإنّ أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، أي: في البهاء والنور، إذ أنهم أجمل وأحسن من القمر، ثم على أشد كوكب دريٍّ في السماء إضاءة؛ وهكذا. يكون طول أحدهم ستون ذراعاً بعرض سبعة أذرع، على صورة أبيهم آدم عليه السلام[1].

الوجه التاسع: قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ولَما فقد الكفار هذه الحياة الإيمانية، وصاروا في الآخرة، جعلوا يتحسّرون على فواتها، حتى جعل الكافر يقول كما أخبر سبحانه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤] أي: ياليتني في الدنيا كنت قد آمنت وعملت صالحاً، حتى أحيا في الآخرة الحياة الإيمانية الطيبة السعيدة الأبدية.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢١-٣٠].

---

(١) كما في (المسند) (٢/٢٥٣) و(صحيح) البخاري أول كتاب أحاديث الأنبياء /٣٣٢٧/ (٦/٣٦٢)، ومسلم (٢٨٣٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر (المسند) (٢/٢٩٥-٩٤٩) و(المجمع) (١٠/٣٩٩).

يُخبر سبحانه عن أهوال يوم القيامة، إذ تسوى يومئذ الأرض وتمهد، فلا ترى جبلاً ولا بُرجاً، بل هي أرض ممهدة.

ثم يتجلّىٰ سبحانه على أرض المحشر لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد أن شفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أهل الموقف، وانفض أمرهم إلى الحساب.

ثم يجاء بجهنم أي: تُقَرَّبُ إلى الكفار، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يؤتىٰ بجهنم يومئذ» أي: تُقرب من الكفار وهم في أرض الحساب «لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَام» أي: سلسلة وحبل «مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(١).

وهذا يعني أنها عالم كبير، يقوم على أمره ويحرسه ملائكة الله، بأمر الله تعالى، وهذا شأن كل عالم من عوالم الله تعالى، كالأرض والجبال والنجوم، فقد وكَّل الله تعالى بها ملائكة يقومون بتدبيرها، بأمر الله سبحانه وإمداده لهم(٢).

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يتذكر جميع ما فعله في الدنيا لا ينسى شيئاً، ولا ينفعه ذلك، فقد فات الأوان، قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؟!!. ﴿يَقُولُ﴾ أي: الكافر. ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي: ياليتني قدمت في الدنيا حتى أحيا الحياة الطيبة السعيدة مع أهل الجنة، في جوارهم لرب العالمين جل وعلا.

وما طريق الحصول على تلك الحياة؟

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب شدة حر نار جهنم /٢٨٤٢/ (٢٧٠٨/٥)، والترمذي /٢٥٧٦/ عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر كتاب الإيمان بالملائكة عليهم السلام للشيخ الإمام رحمه الله تعالى.

نعم هو الاستجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال فيه سبحانه: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: لا أحد يومئذ يعذب الكافر مثل تعذيب الله له، ولا أحد يوثقه في الأغلال مثل وثاق الله له.

أما حال المؤمنين الذين اطمأنت قلوبهم على الإيمان، وأقامت على شرع الله فهم في نعيم الله وجواره.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ نسأل الله ذلك من فضله.

الوجه العاشر: إنّه مما تقدم بيانه يتبين للعاقل أنَّ الحياة الإيمانية الربانية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والروح القرآنية التي جاء بها صلى الله عليه وآله وسلم، إنما هي رُوح العالم وسر بقائه، وإذا ذهبت آثارها من العالم مات العالم وخرب، وقامت الساعة على عالم الدنيا، كما يموت الإنسان إذا فارقت الروح الإنسانية جسمه.

فإذا فُقِدت الآثار الروحية القرآنية الإيمانية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذا فقدت من هذا العالم خرب العالم وقامت الساعة.

وَمِنْ هنا يعلم العاقل أنه لا يمسك العالم عن الخراب إلا الروح القرآني المحمدي، الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فلو أنه لم يبق على وجه الأرض إلا مؤمن واحد فإنّ الساعة لا تقوم، حتى إذا فُقد مَنْ على وجه الأرض من المؤمنين قامت الساعة، وهذا قوله

صلى الله عليه وآله وسلم في رواية (المسند)[1]: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يقال في الأرضِ: لاَ إله إِلاَّ الله» يعني: يقولها اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي رواية[2]: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَى لاَ يقال في الأَرْضِ: الله الله».

وقد[3] ثبت عن سيدنا عيسى عليه السلام قوله: من أحبني فليحفظ وصيتي، فإنني سأطلب من الرب جل وعلا أن يَبْعث فارقليط آخر من بعدي ـ يعني: رسولاً حامداً محموداً، يقُدم الخير للعالم كله وهو سيدنا محمد الذي بشر به سيدنا عيسى عليهما أفضل الصلاة والسلام ـ يثبت مَعكم إلى الأبد. أي: تبقى رسالته إلى يوم الدين ولا رسول بعده.

وفي رواية: يبقى معكم الدهر كله، هو روح الحق ـ أي: التي يُحيي الله تعالى بها العالم ـ فإذا جاء روح الحق فلا يتكلم من تلقاء نفسه، بل يتكلم بما يُسمِعه الله، ويخبر عن الغيوب، وعما هو كائن إلى يوم القيامة.

وهذه هي أوصاف سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ـ٤].

ومما تقدم يتبين للعاقل أنّ حياة العالم وبقاءه متوقفة على الروح القرآني المحمدي، فإذا فُقِدت آثار هذا الروح القرآني من على وجه الأرض خرب العالم. كما يموت الجسم إذا فارقته الروح الإنسانية.

فما أعظم مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع

---

(١) (٣/٢٦٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) في (المسند) (٣/١٦٢)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان /١٤٨/ (١/٣٠٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٣) كما في شرح المواهب للحافظ الزرقاني.

العالم، حتى إنّ حياة العالم ونظامه واستمراره وصلاحه كل ذلك موقوف على المبادئ التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

حتى إن من مواقفه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم أنه روح العالم، وجاء بحياة العالم، وإنّ الحياة السعيدة الأبدية هي تلك التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما أخبر سبحانه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولذلك يتحتم على كل مؤمن أن يكون شأنه الاستجابة الدائمة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم، حتى تقوى فيه آثار الحياة الإيمانية الطيبة.

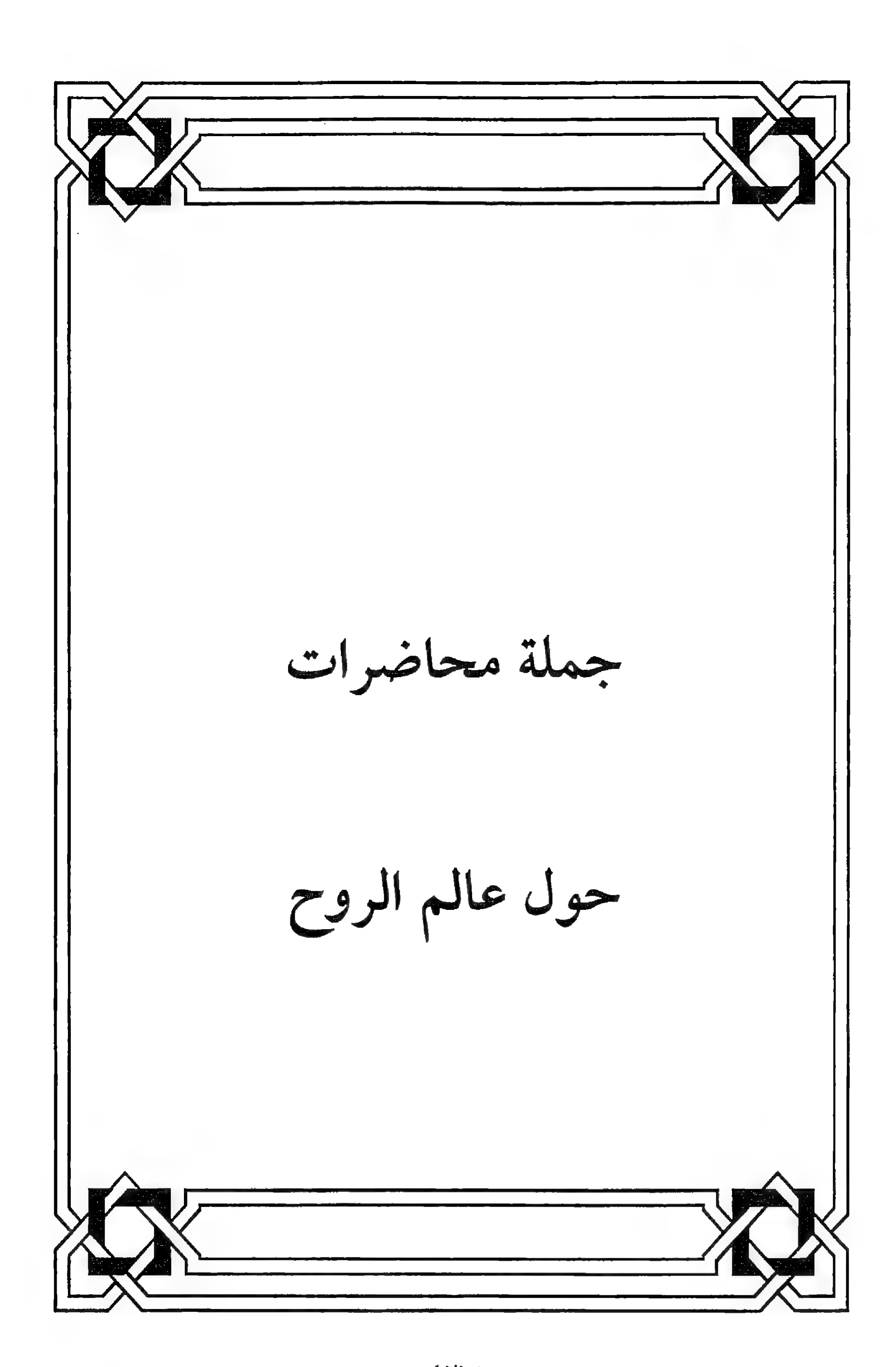
وكلّما قويت الحياة في القلب والجسم قويت المدارك والحواس، وكلما قويت المدارك قوي التعقل والتدبّر في الأمر، وصحت الاعتبارات وانكشفت المغيبات، وارتقى مقام المؤمن في الجنة.

ونسأل الله ذلك من فضله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين.

* * * * *


جملة محاضرات
حول عالم الروح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تقدم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

امتن الله تعالى على العباد ببعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وبيَّن الحكمة في إرساله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك أن الله تعالى أرسله إلى العالم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، وَمِنْ هذه المواقف أنه جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

أما الكتاب فهو القرآن الجامع للعلوم كلها، والمتضمن لذكر العوالم كلها.

ومن جملة العوالم التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم عالم الأرواح، وقد جاء بيان ذلك في أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم التي هي بيانات للقرآن الكريم، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

إنّ كلمة الروح جاءت في القرآن الكريم على عدة معاني :

فقد تطلق الروح على الروح الإنساني، وهي التي تنشأ عنها الحياة الجسمانية، وتقوم على تدبيرها، وهذا قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقد تطلق الروح على الروح الملكي الجبريلي، كما قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٤].

وقد تطلق الروح على الروح القرآني كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: وهو الوحي الرباني الذي أوحاه الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بما تضمنه من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية التي هي أيضاً بوحي من الله تعالى.

فَمَنْ تشربَّت روحه الإنسانية روح القرآن: صارت روحه الإنسانية حَيَة بالحياة الأبدية.

وهناك الروح الإيماني الذي تحيا به القلوب، بحيث إذا حل الروح الإيماني في قلبٍ صار حياً، وجاءت روح القرآن لتغذيه وتنميه، وهذا قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والمعنى: أومن كان ميتاً فأحييناه بالإيمان وهي الروح الإيماني التي قال فيها سبحانه: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فهذا الروح الإيماني أحيا الله تعالى به قلوب المؤمنين، ولما صار القلب حياً صارت المدارك والحواس حية فصار المؤمن سميعاً بصيراً لما ينفعه، وصار عاقلاً يتعقل في الأمور النافعة.

وَمَنْ فَقَد هذه الحياة الإيمانية بقي قلبه ميتاً وصارت مداركه وحواسه ميتة كما قال سبحانه في الكافرين: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

والمراد: صم وعمي القلب، وإلا فهم يسمعون ويبصرون لكن في أمور معاشهم، وتدبير حياتهم فقط، كالبهائم التي لا تعرف إلا الأكل والشرب والشهوة، أما التطلع إلى الأمور الغيبية، والتفكر بما ينفع النفس ويرتقي بها في الكمالات؛ فَقد حُجب الكافر عن ذلك، لأنه استحب العمى على الهدى، والصم على سماع القبول.

وهذا قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ أي: كان كافراً فأحيا الله تعالى قلبه بالإيمان، فصار قلبه حياً سميعاً بصيراً عاقلاً.

وإنّ الإيمان ينزل في القلب كنزول النواة في بطن الأرض، فيحتاج إلى سقيا، وإلى تغذية وتنمية، حتى يُثمر الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة وهذا لا يكون إلا باتباع القرآن الكريم، والسنة المطهرة النازلة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولهذا ضرب الله تعالى مثل الإيمان في القلب كمثل الشجرة فقال

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

أي: فليتذكر الإنسان وليعبر من هذا المثل إلى ما وراءه، والكلمة الطيبة هي: لا إله إلا الله كما جاء بيان ذلك عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[١]، لأنّ كلمة لا إله إلا الله هي نواة شجرة الإيمان في القلب.

ثم يأتي الوحي النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيسقي هذه النواة الإيمانية، فتنمو وتُزهر وتثمر.

ولهذا قَرن سبحانه الإيمان بالقرآن وأنهما متلازمان فقال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] أي: أن الكتاب وتفاصيل شعب الإيمان لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمها من تلقاء نفسه، حتى علمه الله تعالى إيَّاها.

وهذا مدح لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أن الله تعالى هو الذي علَّمه وأوحى إليه، وليس الأمر كما زعم الكافرون مِنْ أنه صلى الله عليه وآله وسلم استمع لغيره، أو افتراه من تلقاء نفسه، فلقد كان صلى الله عليه وآله وسلم أُمّيّاً لا يُتصور أن يأتي بمثل هذا القرآن من تلقاء نفسه فَمَنِ الذي علمه وأدراه وفهمه؟! نعم إنه الله رب العالمين الذي قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

---

(١) كما في تفسير الطبري و(الدر المنثور)، وهذا له حكم المرفوع لأنه لا مجال للرأي فيه.

وروى الشيخان[1]، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ، حَدَّثَنَا: «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نزل الْقُرْآنِ، فعلموا من الْقُرْآنِ وعَلِمُوْا مِنْ السُّنَّةِ».

ثم حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأمانة قال: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِه، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مثلَ أَثَرِ الْوكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَة مِنْ قَلْبِه، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فنفط، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ».

فلقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نزول الإيمان في القلب وعن رفعه من القلوب، وهذا ما يجري آخر الزمن، حيث تكثر الفتن، نسأل الله العافية.

قول حذيفة رضي الله عنه: رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ.

أما الذي رآه فهو نزول الإيمان في القلوب، فرأى كيف كان الصحابي يؤمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويصير من الصديقين بعد أن كان مشركاً، فكم منهم من أصبح كافراً ثم أمسى مؤمناً صِدِّيقاً، بعد أن أجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآمن.

والأمانة هي الإيمان، نزلت في جذر قلوب الرجال ـ أي: نزل الإيمان في أصل القلب ـ ثم بعد ذلك جاء القرآن والسنة لتنمو بهما نواة الإيمان في القلب، وتصير كالشجرة بأوراقها وأغصانها، وأزهارها وثمارها.

---

(١) البخاري في كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة /٦٤٩٧/ (١١/٣٣٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة... /١٤٣/ (١/٢٩٣).

وإنما أطلق على الإيمان: الأمانة، لأن الإيمان أعظم أمانات الله تعالى عند الإنسان.

وهذه الأمانة الكبرى ـ أي: الإيمان بما فيه من جميع التكاليف الشرعية ـ هي التي عُرضت على السماوات والأرض والجبال.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: خافت أن تحملها ولا تقوم بحقها.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] أي: تقدم الإنسان لحملها دون أن تُعرض عليه، لأنه كان ظلوماً جهولاً.

ولا يرفع الظلم عن نفسه، ولا يدفع الجهل عنه إلا بحمل الأمانة فتقدم وحملها حتى يصير عادلاً عالماً.

وبيان ذلك قولك مثلاً: إنه لقد أكل كذا وكذا من الطعام، إنه كان جائعاً، أي: لأنه كان جائعاً. فالذي حمله على الأكل هو الجوع، وما أكل إلا لحاجته إلى الطعام.

فكان ظلم الإنسان لنفسه وجهله في الأمور قد حتَّم عليه، ودفعه إلى حمل الأمانة حتى يُزيل عنه الظلم والجهل، ويرتقي في الكمال.

ويقال مثلاً: إنّ فلاناً تحمّل أمانة التعلم، والتزام النظام في المدرسة، لأنه جاهل يريد أن يتفقه ويتعلم، فالتزم المدرسة حتى يزيل الجهل عن نفسه. وهكذا.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الأَمَانَةَ» أي: الإيمان.

«نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نزل الْقُرْآنُ، فعلموا من الْقُرْآنِ وعَلِمُوا مِنْ السُّنَّةِ» أي: تفاصيل قضايا الإيمان، فنمت وأثمرت شجرة الإيمان.

وقال سيدنا حذيفة رضي الله عنه: وحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأمانة «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَة مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فنفط، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ».

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ» ليس المراد النوم المعروف، وإنما الغفلات التي تأخذ القلوب لكثرة الفتن آخر الزمن، فينغمس الإنسان في الشهوات والمحرمات، فيضعف الإيمان في قلبه، حتى يصير في قلبه كأثر الوكت. أي: كالنقطة على اللوح.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ» أي: في الانهماك في المعاصي والمحرمات، حتى يصل إلى استحلال ما حرم الله تعالى، فَيُقْبَضُ ما تبقى من إيمان في قلبه، لكن ظاهره الإسلام.

ومثال ذلك: كجمر دحرجته على رجلك، فاحترق الجلد، فانتفخ وتورَّم، وامتلأ من المفرزات والصديد، فإذا رآه جاهل ظنَّ أنه سِمَن، ولكنه في حقيقته لا شيء من هذا فيه.

وفي هذا تحذير لكل مؤمن أن يُحافظ على إيمانه بالبعد عن المعاصي والشهوات المحرمة، وإنّ مِنْ أصَرَّ على الحرام جره إلى الاستحلال، ومتى استحل الحرام القطعي خرج عن الإيمان والعياذ بالله تعالى.

ومما تقدم يتبين للعاقل أَنّ الإيمان والقرآن متلازمان، إذ لا بد لشجرة الإيمان بسقيا من ماء القرآن، حتى تنمو وتخضر وتزهر وتثمر.

ولا غنى لأحد أبداً عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يحفظ عليه الإيمان.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُعلم الناس الكتاب والحكمة، أي: يُعلمهم معاني القرآن الكريم ويعلمهم السنة، لأنهم محتاجون إليها، ولولا أنهم بحاجة إليها لما علمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك.

ولهذا قال ابن عمر رضي الله عنهما: (لقد لبثنا دهراً طويلاً وإنَّ الإيمان ينزل في قلوبنا قبل القرآن، ولقد كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن)[1] أي: يأتي القرآن فيفصل قضايا الإيمان وأحكامه وفروعه.

وَمَنْ زعم أنه أمّي لا يقرأ القرآن حتى يتفهم شيئاً من معانيه، فيقال له: عليك بالاستماع إلى تلاوة القرآن، ولابد لك من فهم بعض آياته، فيزيد ذلك في إيمانك، كالماء الذي ينزل من السماء فيسقي الأرض فتتغذى النوى، وتنمو وتُثْمِرُ.

وَلَمَّا ضرب سبحانه مثلاً للإيمان في القلب كالشجرة في الأرض ضرب مثلاً آخر للماء الذي يَسقي تلك الشجرة، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] أي: أن كل واد أخذ من الماء على حسبه، وهكذا القرآن الذي أنزله الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وراحت القلوب تستقي وتستمد من قلبه صلى الله عليه وآله وسلم، وكل قلب أخذ على حسب توجهه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتمسكه بما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم، وبذلك تنمو وتثمر شجرة الإيمان في القلب.

وروى الشيخان عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ مثلي ومَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا»[2].

---

(١) رواه الطبراني في خبر طويل (مجمع الزوائد) (١/١٦٥) والحاكم في (المستدرك) (١/٣٥).

(٢) تقدم تخريجه ص /٤٢٤/.

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ أي: أحيينا قلبه بروح الإيمان ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي: أن الإيمان له نور إذا حلّ في القلب انتشر هذا النور في سائر المدارك والحواس.

وإن هذا النور يهدي صاحبه إلى حقائق الأمور.

وهذا النور الإيماني الذي تنكشف به حقائق الأمور، ليس من الأنوار المحسوسة، وإنما هو نور من عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولما قرأ صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥] قالت الصحابة: وكيف يشرح الصدر؟

قال: «نُورٌ يُقْذَفُ فيه فَيَنْشَرِحُ لَهُ وينفسح»[١].

وفي رواية[٢]: «إِذَا أَدْخَلَ الله النُّورَ القَلْبَ» أي: نور الإيمان النازل من عند الله تعالى «انْشَرَحَ وانفسح» والانشراح هو الاتساع.

قالوا: فهَل لِذَلِكَ مِنْ أَمَارَةٍ يعرف بها ؟ أي: علامة.

قال: «الإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الخُلُودِ، وَالتَجَافِي عَن دَارِ الغُرُورِ، والاسْتِعْدَادُ للمَوتِ قَبْلَ لِقَاءِ المَوْتِ».

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وغيرهم.

(٢) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن أبي شيبة، والحاكم، (٤/ ٣١١) والبيهقي في (شعب الإيمان) (٧/ ٣٥٢) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه[1] عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ قَالَ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ» أي: حاسب نفسه «وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّه الأَمَاني».

فالكَيِّسُ هو الفطن العاقل، صاحب الذكاء والنظر، هو الذي يسعى في تحصيل سعادة مستقبله المحتم الوقوع، وهو ما بعد الموت، وهو المستقبل الذي لا بدّ لكل إنسان أن يدركه، أما مستقبل العمر في الدنيا فهو محتمل الوقوع، قد يدركه الإنسان، وقد يموت قبل ذلك حسب ما قدَّر الله له.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] أي: إنّ خير وأفضل ما تتزودون به لسعادة آخرتكم هو تقوى الله تعالى، وأما زاد الدنيا فأمره مقيد محدود.

ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الزمر: ٢٢] [الحشر: ١٨] ما الذي قدمته لغد الآخرة المحقق الوقوع.

قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فكل مؤمن على نور من ربه.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيهِم نُوراً مِنْ نُورِهِ».

أي: لم يتركهم في ظلمة الهوى والنفس والدنيا.

«فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ يومئذ اهْتَدَى» أي: اهتدى إلى الله فعرف

---

(١) الترمذي في كتاب صفة القيامة /٢٤٦١/ (٧/١٦٥) وابن ماجه /٤٢٦٠/.

الله، وآمن به بنور من الله تعالى «وَمَن أَخْطَأَهُ ضَلَّ»[1].

ومعنى: «أَلْقَى عَلَيهِم نُوراً مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ يومئذ اهْتَدَى» أي: أرسل الرسل في الخلق، وأنزل عليهم الشرائع وهي أنوار من الله تعالى، فمن أجاب دعوة الرسل اهتدى إلى الله تعالى، وَمَنْ أعرض عنهم بقي في ضلاله.

وإن أول مَشرق من مشارق أنوار رب العالمين الإيمانية، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو صلى الله عليه وآله وسلم أول المرايا التي ظهر فيها نور رب العالمين، ومنه تستمد القلوب وتستنير.

وفي الحديث الذي رواه أبو يعلى في مسنده[2] عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرَّم وجهه، أنه قال يوماً لمن حوله: ألا يقوم أحدكم فيصلي أربع ركعات، ثم يدعوا بما دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «تَمَّ نُورُكَ فَهَدَيتَ فَلَكَ الحَمْدُ، عَظُمَ حِلْمُكَ فَعفَوتَ فَلَكَ الحَمْدُ، بَسَطْتَ يَدَكَ فَأَعْطَيْتَ فَلَكَ الحَمْدُ، رَبَّنَا وَجْهُكَ أَكْرَمُ الوجُوه، وَجَاهُكَ أَعْظَمُ الجَاه، وَعَطِيَّتُكَ أَفْضَلُ العَطِيَّةِ وَأَهْنَاهَا، تُطَاعُ رَبَّنَا فَتَشْكُر، وَتُعْصَىٰ ربنا فَتَغْفر، تُجِيبُ المُضطَّرَ، وتكشف الضُّرَّ، وَتَشْفِي السَّقِيمَ، وَتَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَتَقْبَلُ التَّوبَةَ، ولاَ يَجْزِي بِآلاَئِكَ أحد، وَلاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَكَ قَولُ قَائِلٍ» جلَّ وعلا.

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «تَمَّ نُورُكَ فَهَدَيتَ» أي: تم نورك المفاض علينا، فهديتنا إليك بنورك الذي أفضته على قلوبنا، فلك الحمد على ذلك.

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (١٧٦/٢)، والترمذي في كتاب الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة /٢٦٤٤/ (٢٩٨/٧)، والحاكم (١/ ٣٠) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) (مجمع الزوائد) (١٠/ ١٥٨).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «تُطَاعُ رَبَّنَا فَتَشْكُر» فهو سبحانه يشكر عبده المؤمن إذا أطاعه وعَبَده، كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

وفي الحديث[(١)]: أن أعرابياً سقى كلباً كان يلهث من العطش فشكر الله له فغفر له.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولاَ يَجْزِي بِآلاَئِكَ أَحد» أي: لا أحد يستطيع أن يُحصي ثناء عليك لكثرة نعمك، فإنَّ نعمهُ تعالى لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨] وإنّ نور الإيمان في قلب المؤمن نور قوي باهر، يظهر له ذلك في عالم الآخرة وأوله بعد الموت، وذلك لأنَّ عالم الآخرة عالَمٌ تظهر فيه الحقائق، وتنجلي فيه الدقائق، أما عالم الدنيا فهو عالم مقيد، قائم على الظلال والستر، لأنه عالم تكليف وامتحان، ولو انكشفت فيه حقائق الأمور لضاعت حكمة التكليف، ولَمَا تخلّف عن الأوامر الشرعية أحد، وفي هذا النور الإيماني يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢] وهو نور الإيمان الذي أضاء للمؤمن ما حوله على حسب قوة إيمانه.

وفي الحديث[(٢)] يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أولَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةِ البَدْرِ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُونَهُم عَلَى أَشَدِّ

---

(١) رواه البخاري في كتاب المساقات، باب فضل سقي الماء /٢٣٦٣/ (٥/٤٠)، ومسلم /٢٢٤٤/، وأبو داود /٢٥٥٠/ وغيرهم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه ص /٤٣٢/.

كَوكَبٍ دُرِّيٍ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ» وذلك لأن الله تعالى يُنشئهم نشأة أخرى طيبة، بلا دَرَنٍ ولا قذر، بل كلهم طُهر وطِيْبٌ ونقاء.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَمْشَاطُهُمْ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُم المِسْكُ عَلَى صُورَةِ أَبِيْهِم آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعَاً فِي السَّمَاءِ».

ولم يكن أحد خَلَقَهُ الله تعالى أجمل وأحسن من صورة آدم عليه السلام، إلا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو أجمل خلق الله على الإطلاق.

وما نال يوسف عليه السلام شطر الحسن إلا لأنه يشبه آدم عليه السلام.

وإن أنوار الحور العين في الجنة أنوار قوية باهرة، أقوى من نور الشمس، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ أشرفت لملأت الأَرْضِ ريح مسك، ولأَذْهَبت ضَوء الشَّمْس والقمر»[1].

وأما زوجات المؤمنين من أهل الجنة فأنوارهن أقوى وأبهر، لأن مقام المؤمنة في الجنة أعلى من مقام الحوراء، وما الحوراء إلا نعيم لأهل الجنة، وفي الحديث يقول صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتحدث عن الرجل في الجنة: «فبينما هو متكئٌ معها على أريكته، إذا أشرف عليه نور من فوقه، فيظن أن الله عز وجل قد أشرف على خلقه، فإذا هي حوراء تناديه...» الحديث[2].

---

(١) رواه الطبراني والبزار (مجمع الزوائد) (١٠/٤١٧) عن سيدنا سعيد بن عامر بن خزيمة رضي الله عنه.

(٢) طرف من حديث رواه الطبراني في (الأوسط) (مجمع الزوائد) (١٠/٤٨١).

فلقد أعطى الله تعالى أهل الجنة لإيمانهم نوراً في قلوبهم، ونوراً في أسماعهم وأبصارهم وجوانبهم، وبهذا النور صاروا أهلاً لسماع كلام رب العالمين ورؤيته جلَّ وعلا.

قال عكرمة تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما[1]: لو أنّ إنساناً أعطاه الله أبصار الخلائق من الإنس والجن والحيوان، ثُم كشف الله له عن حجاب واحد من سبعين حجاباً من حُجب الشمس لَمَا تحمَّل أن يرى الشمس.

يعني: أن الناظر إلى نور الشمس في الدنيا إنما يراه من وراء سبعين حجاباً.

قال: ونور الشمس هو جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، ونور الكرسي هو جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، ونور العرش هو جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب.

وهو الحجاب الذي أشار إليه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَو كَشَفَهُ لأحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إِلَيهِ بَصَرُهُ مِن خَلْقِهِ»[2].

قال عكرمة: فانظروا ما أعظم نور بصر الإنسان حين ينظر إلى ربه عياناً.

واعلم أن رؤية أهل الجنة لربهم جلَّ وعلا إنما هي على مراتب، وكلٌّ منهم يرى على حسب قوة نوره، وقوة النور تكون على حسب قوة الإيمان، ونسأل الله ذلك من فضله.

---

(١) كما في (الدر المنثور) (٨/٣٥٠) معزواً إلى عبد بن حميد.

(٢) طرف من حديث رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينام» /١٧٩/ (١/٣٤٦) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ولما ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مَثَلَ أنوار أول زمرة يدخلون الجنة بنور القمر [1]، مع أنّ القمر يستمد نوره من الشمس ولا نور له من ذاته، دلَّ ذلك على أَنّ شمس تلك الأقمار والكواكب الدرِّيَّة التي تدخل الجنة، والتي تبستمد منها النور؛ إنما هو سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، الذي وصفه الله تعالى بالسراج المنير، والذي أفاض الله عليه النور لتستنير منه قلوب المؤمنين.

ونسأل الله تعالى أن يفيض علينا من أنواره وأسراره صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

(١) الحديث تقدم قبل قليل.

عالم الروح الإنساني

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فلقد أثبت القرآن الكريم أنّ هناك عالماً يسمى: عالم الروح، وليس هذا العالم من العوالم المادية المتوالدة، وإنما هو من عالم الأمر الرباني، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من عالم مخلوق بقول الله تعالى له ﴿كُن﴾ دون أن يكون هناك مادة عنصرية، ولا توالد، وإنما هو مُبْدَع إبداعاً بقول الله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

فقد أثبت الله سبحانه للروح الإنساني وجوداً وتحققاً، وأحكاماً تتعلق بالبدن في عدة عوالم، بدءاً من عالم الجنين، ثم تصحب الإنسان إلى أبد الآبدين، وكلما انتقل الجسم في عالم فإنّ للروح تعلقاً بالجسم، ولكن أنواع تعلقاتها مختلفة.

قوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ فقد وَرَدَ أنّ مشركي مكة سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح، ثم سألته اليهود عنها لَمّا هاجر إلى المدينة.

فقد ذهب مشركو مكة إلى أحبار اليهود حتى يعلّموهم سؤالاً غامضاً دقيقاً لا يعلمه إلا من أطلعه الله عليه، فقالت اليهود لهم: سلوه عن الروح، فنزل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ...﴾ الآية.

وذلك أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا دعا المشركين في مكة إلى عبادة الله تعالى، وأقام عليهم الحجة والبرهان، وكان من دهاة قريش النضر ابن الحارث فقال: يا معشر قريش: لقد جاءكم محمد بأمر لا تقدرون على رده بأية حيلة، والله تعلمون أن محمداً حين كان حدثاً شاباً، تعلمون أنه أصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، فلما وخط الشيب في صدغيه ـ أي: قارب أن يشيب ـ لم يكن ليكذب، ولم يكن ليخون الأمانة.

ولما وخطه الشيب وقال لكم: إني رسول الله، قلتم عنه: ساحر، والله ما هو بساحر. وقلتم عنه: شاعر، والله ما هو بشاعر. وقلتم عنه: كاهن، والله ما هو بكاهن. وقلتم عنه: مجنون، والله ما هو بمجنون.

قالوا[1]: اذهب أنت وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في المدينة، وأخبراهم عن شأن هذا الرجل، وأنه يقول إنّه رسول الله، وخذا عنهم سؤالاً.

فذهبا إلى اليهود، وذكرا لهم أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال اليهود: سلوه عن ثلاثة أمور، فإن أجابكم عنها فهو نبي مرسل، وإنْ لم يجبكم عنها أصلاً ـ أي: جواباً تفصيلياً ـ فليس بنبي ولا رسول.

سلوه عن فِتية ذهبوا في الأرض، وسلوه عن ذي القرنين طاف الشرق والغرب، وسلوه عن الروح وانظرا ماذا يجيبكم؟

فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الأرض، وعن رجل طاف الأرض، وأخبرنا عن الروح؟

فنزلت الآيات في الجواب بعد هذا: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٩ـ١٠].

---

(١) الخبر في سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٠).

وذكر لهم قصة الفتية الذين ذهبوا في الأرض وهم أهل الكهف والرقيم، فأما الكهف فهو الغار في الجبل، وأما الرقيم فهو اسم للجبل، وقيل: للوح الذي رَقَموا عليه أسماءهم، وعلَّقوه على الباب.

ثم أجابهم صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل الذي طاف الأرض بقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ ويقال له: ذو القرنين لأنه عاش قرنين من قرون زمنه، وطاف قرني الأرض غرباً وشرقاً.

ثم سألوه عن الروح، فنزل قوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وهذا جواب فيه إجمال، لأنه لا يمكن للعقل الإنساني أَنْ يحيط علماً بحقيقة الروح؛ إلا من أطلعه الله تعالى من رسله وأنبيائه، ومن خصه الله تعالى من أوليائه كرامة لهم.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: أن الروح من عالم الأمر الوجودي الإبداعي، مخلوق بأمر الله ﴿كُن﴾، دون مادة أو توالد أو تكاثر أو تجزئ من غيره.

فالروح من عالم الأمر الإبداعي اللطيف الرباني، الذي يخلقه الله بقوله: ﴿كُن﴾ وبدون مدة أو مادة، وأما تفصيل حقيقة الروح فلا يعرفه إلا مَنْ عرَّفَهُ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: أنَّ علم جميع الخلائق بأجمعه هو قليل من كثير لا يتناهى؛ وهو علم الله تعالى.

وفي هذا قال الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام لما رأيا عصفوراً

نقر من ماء البحر نقرة ثم طار، قال الخضر: يا موسى ما علمي وعلمك مِنْ علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر[1].

وليتفكر الإنسان وليتدبر، في أنّ روحه التي يحيا بها جسمه الإنساني؛ هو عاجز عن إدراك حقيقتها، ومعرفة تفاصيلها إلا ما علمه الله إجمالاً، مِنْ أنّ الروح الإنساني هي من عالم الأمر اللطيف الرباني كما تقدم.

فأنّى للإنسان إذاً أَنْ ينطلق بأفكاره ليحيط علماً بكمالات الله تعالى؟!! وأنَّى له أَنْ يدرك حقيقة ذاته سبحانه؟!! بل إنّ الإنسان على الحقيقة عاجز عن إدراك كثير من العوالم المادية حوله، وما عَلِمَ منها إلا ما أذن الله تعالى له.

وليعلم كل إنسان أنّما هو إنسان معروف بروحه لا بجسمه، وجسمه تابع لروحه، لأنّ الروح هي التي تنشأ عنها قوى الإنسان ومداركه وحواسه، فبروحه يسمع، وبروحه يبصر وهكذا.

حتى إذا ما فارقت الروح الجسم لمَ يعد هذا الجسم يسمع أو يبصر، أو يتحرك، بل تجرى عليه أحكام البرزخ الذي انتقل إليه.

ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم، سأله اليهود عن الروح، كما روى البخاري في (صحيحه)[2]، عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ نَفَراً مِنْ الْيَهُودِ أقبلوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في طريقه إلى

---

(١) ينظر الخبر بتمامه في (صحيح) البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ /٤٧٢٥/ (٨/٤٠٩)، ومسلم في الفضائل، باب فضائل الخضر عليه السلام /٢٣٨٠/ (٥/٢٣٧٣) عن سيدنا أُبيّ بن كعب رضي الله عنه.

(٢) في كتاب العلم، باب قول الله تعالى: ﴿وما آوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] /١٢٥/ (١/٢٢٣)، وينظر /٤٧٢١ و٧٤٥٦ و٧٤٦٢/.

المدينـة، فَقَـالَ بَعْضُـهُمْ: سَـلُوهُ عَـنْ الـرُّوحِ، قَـالَ بَعْضُـهُمْ: لاَ تَسْـأَلُوهُ، يستقبلكم بشيءٍ تَكْرَهُونَهُ. أي: ربما أجابكم بمـا تكرهـون، وذلـك لأنهـم يعلمون أنه رسول الله حقاً، وأنه سيجيبهم عن سؤالهم جواباً نبوياً بوحي مـن الله تعالى، وإذا أجابهم كرهوا ذلك حسداً من أنفسهم.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ما رابكم؟ أي: ما رابكم مـن أمـره، وهـل ترتـابون في رسالته؟ فهو حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسـلم، لكنـهم لم يعترفـوا حسداً وبغياً، كما قال سبحانه فيهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وفي رواية لغير البخاري: ما رأيكم؟

فلما سألوه نزل الوحي بالجواب، ثم قرأ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

وقد نزلت هذه الآية مرتين: أولاً في مكة جواباً للمشركين، وثانيـاً في المدينة جواباً لسؤال اليهود.

وهذا يدلُّ على أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يتكلم من تلقـاء نفسـه إن هو سُئل عن أمر، ولم يُجب اليهود حتى أوحى الله إليـه بـالجواب، وأنّ الجواب هو نفس الجواب الذي علَّمه الله تعالى له، وأجاب به مشركي مكة.

ولما كانت الروح من عالم الأمر اللطيف الرباني، وليست مـن العـالم الكثيف المادي، فهي لا تُرى ولا تدرك بالحواس، وَمَنْ أنكر وجودها لأنـه لا يراها فيقال له: إنّ حَقِّيَّة وجود الشيء لا تتوقف على رؤيتك له، فكم مِنْ مخلوقات لطيفة تُثبت وجودها لوجود آثارها مع أنك لا تراها ببصر عينـك،

كالهواء مثلاً الذي يحيط بك من كل جانب، فلا يمكنك إنكار وجوده مع أنك لا تراه، ولكن آثاره تدل عليه، فهو يُحرِّك الأشجار، ويثير الغبار، ويدفع الأمواج وهكذا.

فإنّ حقيقة الروح موجودة، وآثارها ظاهرة في جسم الحي، وعن الروح نشأت الحياة الجسمانية، وعملت المدارك والحواس والحركة، بحيث لو فارقت الروح البدن صار هامداً جامداً، مع أنه لم يَفقد عضواً من أعضاء جسمه! فما الذي كان فيه ثم فارقه حتى مات؟!

إنها الروح الإنسانية اللطيفة المخلوقة بقول الله تعالى: ﴿كُن﴾.

وإنّ أول تعلق للروح في الجسم لَمّا يكون جنيناً في بطن أمه، كما رواه الشيخان[1]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ فقَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرسَلُ إلَيه المَلَكُ، فينْفُخُ فِيهِ الرُّوحُ» أي: فصار جسم الجنين حياً بحياة روح نُفخت فيه، أما حركته قبل ذلك ونبض قلبه إنما هي الحياة النامية، لأنّ الحياة على أنواع: فحياة الشجر والنبات حياة نمو وحركة، إذ يطول ويكبر من كافة جهاته.

وإنّ تعلق الروح بالجسم تعلق عَشَاقة، لقوة المناسبة بين كل جسم وروحه، وإذا انفصل الجنين عن بطن أمه، وخرج إلى عالم الدنيا راح ينمو ويقوى، حتى إذا بلغ سن الاحتلام ظهرت فيه كمالات الروح سمعاً وبصراً

---

(١) البخاري كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة عليهم السلام /٣٢٠٨/ (٣٠٣/٦)، ومسلم في أول كتاب القدر / ٢٦٤٣/ (٢٠٣٦/٥)، والترمذي ـ واللفظ له ـ /٢١٣٨/.

وعقلاً، فصار موضعاً لخطاب رب العالمين، تتوجه عليه التكاليف الإلهية الشرعية، أما قبل بلوغه سن الاحتلام فقد كانت الأوامر الشرعية تتوجه على وليه أنْ يأمره، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مُرُوا أولاَدكُم بِالصَّلاةِ وَهُم أَبْنَاء سَبْع»(١).

واعلم أنّ بين الجسم والروح ارتباطاً وثيقاً، وأنّ التكاليف الشرعية تتوجه عليهما، فالروح هي التي تدير قوى الجسم ومداركه، ولكن للجسم أيضاً تدخلاً في التكليف، وهو الذي يباشر الأمور، ولهذا لما نزل قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الناس يختصمون يوم القيامة بين يدي رب العالمين، حتى تختصم الروح مع الجسم.

فالخصام يجري يوم القيامة بين المظلوم والظالم، وبين المبغيِّ عليه والباغي، وبين المهتدي والضالِّ وهكذا.

ولما نزلت هذه الآية، وقرأها النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الصحابة، قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: يا رسول الله أتُعادُ علينا الخصومة بعد ما كان بيننا في الدنيا؟

قال: «نَعم حَتَى يُؤدِّي إلى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ» يعني: كل منهم يُدلي بحجته، ويحكم الله بينهما.

قال الزبيررضي الله عنه: إن الأمر إذاً لشديد(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/١٨٠و١٨٧)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة /٤٩٥/ (١/٣٣٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما.

(٢) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن جرير، وابن مردويه، والطبراني (مجمع الزوائد) (٧/١٠٠).

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «ألاَ وإنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يأكُلُ مِنْهُ البَرُّ والفَاجِرُ، وإنَّ الآخِرَةَ أَجَلٌ صَادِقٌ يَقْضِي فيه مَلِكٌ قَادِرٌ»[١].

أمّا اختصام الروح مع الجسد: فتقول الروح للجسد: أنتَ فعلت، ويقول الجسد للروح: أنتِ أمرت وأنت سَوّلْت[٢]. فيرسل الله تعالى ملكاً فيقول الملك: سوف أقضي بينكما، مَثَلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستاناً، فنظر المقعد فرأى ثماراً فقال للضرير: إني أرى هاهنا ثماراً، ولكن لا أستطيع أن أصل إليها. فقال له الضرير: اركبني وتناولها، فحمل الضرير المقعد فأخذ الثمار بيده، فقال الملك للروح والجسد: مَنِ المعتدي؟

فقالت الروح والجسد: كلاهما مذنب.

فقال الملك: أنتما قضيتما على أنفسكما[٣] أي: أنَّ كليهما مسؤول، إذ لم يتوجه التكليف عن الجسد إلا بعد أن نفخت فيه الروح وبلغ حدّ كماله.

ولو كانت المسؤولية والتكاليف على الروح فقط، لتوجّه عليها قبل أن تنفخ في الجسد، إذ أنّ الأرواح مخلوقة قبل الأجسام، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: أرواحاً ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] أي: أشباحاً، فبين خلق الروح والجسم أزمان كثيرة، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «خَلَقَ اللهُ الأَرْوَاحَ قَبْلَ الأَجْسَادِ بِأَلْفِي عَامٍ»[٤].

---

(١) عزاه في (المشكاة) إلى الإمام الشافعي عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وروى نحوه أبو نعيم عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) الروح في اللغة: تذكر وتؤنث من ناحية اللفظ.

(٣) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن منده، عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٤) كما رواه ابن منده عن سيدنا عمر بن عبسة رضي الله عنه.

وإذا انْتَقَل الإنسان إلى عالم البرزخ، وهو عالم ما بعد الموت، صار لروحه ارتباط بجسده، وتعلق يختلف عما كان عليه في الدنيا، إذ أنّ عالم الدنيا عالم تكاليف شرعية، تتوجه على الروح والجسد بالأمر والنهي.

وأما في عالم البرزخ فإنّ تعلق الروح بالجسد تعلق ثانٍ لا ينفك، وله أحكام خاصة.

فيتحسس ويشعر الجسد بالنعيم تبعاً للروح، ويتحسس بالألم والعذاب تبعاً للروح، وإنْ فني الجسد وبليت عظامه وغاب عن النظر أثره فإنّ له وجوداً في عالم البرزخ، ويتحسس بالنعيم إن كان مؤمناً وبالعذاب إن كان كافراً.

وإذا أطلق عالم البرزخ فيُراد منه عالم ما بعد الموت لقوله سبحانه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وهو عالم وسطي بين عالم الدنيا وعالم الآخرة.

وأما برازخ الآخرة فهي العوالم التي يمرُّ عليها الإنسان، كعالم الحشر، وعالم النشر، والموقف، والصراط، وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى دار الخلود، إما الجنة وإما النار، اللهم اجعلنا من أهل الجنة.

وَمَنِ انتقل إلى عالم البرزخ ولم تكن الذنوب وحقوق العباد تُقَيّده عن الإطلاق، فإنه يُشرف على عالم الدنيا وعالم الآخرة، وهذا شأن مَنْ وقف في الوسط بين شيئين.

وأما مَنْ تراكمت عليه الذنوب فيبقى مشغولاً بنفسه، كالمريض المتألم الذي لا يهمه إلا أمر نفسه.

وإن لعالم البرزخ أحكامه واعتباره: ففيه النعيم والألم، وفيه الثواب والعقاب، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ

﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾
تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ
نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ
إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا
لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة ٨٣-٩٦] صدق الله العظيم.

وفي هذا يخبر سبحانه عن أحوال الموتى بعد أن تفارق أرواحهم أجسادهم إلى عالم البرزخ.

قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي: بلغت روح المحتضر حلقومه، ودخل في الغرغرة.

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أي: تنظرون إلى المحتضر ولا تستطيعون أن تقدموا له شيئاً يمسك عليه روحه.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي: بقدرتنا وعلمنا وملائكتنا.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: خاضعين لسلطة وتصرف رب العالمين.

﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فلا تستطيعون أن تردوا على الميت روحه، ولا يمكنكم أن تُمسكوا على أجسادكم أرواحكم، بل أنتم جميعاً تَحت قهرٍ وسلطان رب العالمين جلَّ وعلا.

قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: إن كان هذا الميت الذي فارقته الروح إن كان من المقربين.

﴿فَرَوۡحٌ﴾ والفاء للتعقيب، أي: أنه ينقل إلى الروح والريحان فور انتقاله إلى البرزخ.

والرَّوْح ما ترتاح به النفس وتُسرُّ لـه، وأعظم ما يكون هذا حين تصعد روح الميت، وتلقى الله تعالى وهو عنها راض. والريحان هي الأرزاق العلوية التي تتوارد عليه من حضرة رب العالمين.

وهذا قوله سبحانه: ﴿فَرَوۡحٌ وَرَيۡحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ لينعم فيها.

قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ وهـم الأبـرار، الـذين هم دون المقربين في الرتبة والمقام.والأبرار هم أهل الإيمان الكامـل الـذين تحققـوا بشـعب الإيمـان كلـها، وأمـا المقربـون فـزادوا علـيهم في فعـل الصالحات فسبقوهم في الأجر والفضل.

قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ أي: يا مؤمن.

﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ يعني: أنّ أصحاب اليمين الذين هـم في الـبرزخ أقبلوا يسـلِّمون علـى هـذا المـؤمن الـذي هـو أيضـاً مـن أصـحاب الـيمين ويستقبلونه ليأنس معهم بعد أن خرج من الدنيا وفارق أهله.

قوله تعـالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنۡ حَمِيمٍ﴾ أي: فور انتقاله إلى البرزخ تكون ضيافته المعجلة له هي الحميم.

﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: نوعاً من الصَّلْي . أما الصَّلْيُ الأكـبر فيكـون في جهنم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٥].

ثم بَيّن سبحانه أنّ ذلك حَقٌّ وحقيقة، فعلى الإنسان أن يوقن به قبل أن ينتهي ويصير إليه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾.

ومما تقدم يتبين للإنسان أنّ أهل الإيمان في البرزخ على مراتب، وإن أعلى مرتبة في عالم البرزخ هي للأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهو مقامهم في الرفيق الأعلى، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي اجتمع ليلة الإسراء والمعراج مع الأنبياء والرسل، وأطلعه الله على مراتبهم، ولقد كان آخر كلامه صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا حين احتضاره: «اللهم الرَّفِيقَ الأَعَلى»(١) ولا شك أنه صلى الله عليه وآله وسلم سيد الملأ الأعلى، ولقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ أي: من الملأ الأعلى من أرواح الأنبياء والرسل وكبار أوليائه سبحانه ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ...﴾ الآية [غافر: ٧].

ثم هناك مقام الشهداء ومنهم شهداء بدر وأحد.

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود(٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ««لَمَّا أُصِيْبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ، جَعَلَ الله أَرْوَاحَهُمْ فِيْ جَوفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِيْ إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِيْ ظِلِّ العَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيْبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيْلِهِم قَالُوا ـ أي: لبعضهم ـ: مَنْ يبلِّغُ عَنَّا إِخْوَانَنَا أَنَّنَا أَحْيَاءٌ فِيْ الجنة نُرزَقُ؟ لِئَلاَ يَزْهَدُوا فِيْ الجِهَاد، وَلاَ يَنْكِلُوا عِنْدَ الحَرْبِ.

---

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل السيدة عائشة رضي الله عنها /٢٤٤٤/ (٥/٢٤٢٤) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) (المسند) (١/٢٦٦)، أبو داود في كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة /٢٥٢٠/ (٣/٣٢)، والحاكم (٢/٢٩٧).

فَقَالَ سبحانه: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُم، فأَنْزَلَ الله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾» [آل عمران: ١٦٩] الآيات.

وفي هذا دليل على اجتماع الأرواح المتناسبة إلى بعضها في عالم البرزخ، وأنّ كل روح تأوي إلى جنسها وصنفها ونوعها، فالصِّدِّيق مع الصديقين، والصالح مع الصالحين، والشهيد مع الشهداء، وهكذا كلٌّ مع زمرته.

ولما قتل عبد الله بن حرام رضي الله عنه شهيداً قال صلى الله عليه وآله وسلم لولده جابررضي الله عنه: «أَلاَ أُبَشِّرُكَ بما لقي الله به أباك» ؟

قال: بلى يا رسول الله.

قال: «ما كلّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيىٰ أباك فكلمه كِفَاحًا» أي: بلا حجاب، وهذا التجلي بالرؤيا من الخصائص التي يخص الله بها من يشاء من عباده الصالحين، وأما في الجنة فإن أهل الجنة كلهم ينالون هذا النعيم بالرؤيا.

«فَقَالَ: يَا عَبْدِيْ تَمَنَّ عَلَيَّ أعطيك؟

فَقَالَ: يَارَبِّ تحييني فأُقْتَلَ فِيْكَ ثَانِيَةً.

فقال الرب تبارك وتعالى: إنه قد سَبَقَ القَولُ مِنِّيْ ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾»[1].

وقد بَيَّن صلى الله عليه وآله وسلم في عدة أحاديث تفاصيل أحكام

---

(١) الحديث رواه الترمذي في كتاب التفسير /٣٠١٣/ (١٨٧/٨)، وابن ماجه في المقدمة /١٩٠/.

البرزخ، ونعيم أهله من المؤمنين، وعذاب الكافرين، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَى يَبْعَثَكَ الله يوم القيامة»(١) أي: وَتَرِدُ عليه ألوان من النعيم الجناني، فينعم بها إلى يوم الدين.

ومن أنواع النعيم في البرزخ أيضاً، أَنّ منهم مَن ينعم بالصلاة لرب العالمين، وبذكره سبحانه، وبتلاوة القرآن الكريم، وهذا من جملة نعيم أهل الإيمان الكامل، وأعظم من جمع هذه المقامات هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم الأنبياء والرسل، ومن خصَّه الله تعالى من كبار الأولياء.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِم يُصَلُّونَ»(٢) أي: يصلون لله تنعماً.

وروى مسلم في (صحيحه) (٣)، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى مُوسَى وَهُوَ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ».

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي /١٣٧٩/ (٣/٢٤٣)، ومسلم في كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب عرض مقعد الميت... /٢٨٦٦/ (٥/٢٧٢٢) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه أبو يعلىٰ والبزار (مجمع الزوائد) (٨/٢١١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم /٢٣٧١/ (٥/٢٣٧١) و(المسند) (٣/١٢٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقد خصَّ صلى الله عليه وآله وسلم القبر بالذكر ليُبين أنّ للروح علاقة بالجسم وهو في قبره.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم رأى موسى في بيت المقدس لَمَّا صلى إماماً بالأنبياء والرسل كلهم، ورآه أيضاً في السماء السادسة لما عَرَج إليها[1].

فموسى عليه السلام هو نفسه يصلي في قبره، وهو نفسه صلَّى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيت المقدس، وهو نفسه في السماء السادسة، وهذا لأن النشأة البرزخية الأخروية تختلف عن النشأة الدنيوية، فيظهر في النشأة البرزخية أحكام الروح اللطيفة وتتعدد مظاهر وجودها في آنٍ واحد، وهذا هو شأن المؤمن في الجنة.

ففي الحديث: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعيَ من باب الصلاة، ومَن كان مِنْ أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومَن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة».

فقال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على مَنْ دُعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعىٰ أحد من تلك الأبواب كلها؟

قال: «نعم وأرجوا أن تكون منهم»[2].

---

(١) كما في أحاديث المعراج، انظر (صحيح) البخاري أول كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء /٣٤٩/ (١/٤٥٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء /١٦٢/ (١/٣٢٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد (٢/٢٦٨ و٤/٣٨٦)، والبخاري في كتاب الصيام، باب الريان للصائمين /١٨٩٧/ (٤/١١١)، ومسلم /١٠٢٧/ عن سيدنا أبي هريرة وسيدنا عمرو بن عبسة رضي الله عنهما.

ومما جاء في سياق نعيم أهل البرزخ بالصلوات والعبادات، وتلاوة القرآن، ما روى الترمذي[1]، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ رَجُلاً ضَرَبَ خَيْمَةً عَلَى قبرٍ في الليل ـ ولم يعلم أنّ في المكان قبراً ـ فَسَمِعَ قَارِئاً يقرأ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ حتى ختمها، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: «هِيَ المَانِعَةُ، هِيَ المُنْجِيَةُ، تُنْجِيه من عَذَابِ القَبْرِ».

وعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: ذهبت في بعض الجهات أُدْرِك مالي ـ أي: يبحث عن بعض تجاراته ـ فأدركني الليل، فلجأت إلى قبر عبد الله بن حرام رضي الله عنه، فأقمت هناك، فسمعت قراءة لم أسمع أحسن منها، فلما أصبح الصباح ذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ذَاكَ عَبْدُ الله، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله تَعَالَى قَبَضَ أَرْوَاحَهُم فَجَعَلَهَا فِي قَنَادِيلَ مِنْ زَبَرجَدٍ وَيَاقوتٍ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ رَدَّ أَرْوَاحَهُم إِلَى مَكَانِهَا»[2] أي: صار لها نوع خاص من الاتصال بأجسامها، وهذا يكون في الليل، وإن كان هذا الاتصال موجوداً أصلاً.

وفي هذا دليل على أنّ من أَحَبَّ عبادة وتعشَّقها أكرمهُ الله تعالى بالمواظبة عَليها في قبره حتى يتنعم بها.

كما رؤي ثابت البناني[3] يُصلي في قبره، فسُئِلَتْ ابنته عن ذلك؟

---

(١) في كتاب ثواب القرآن الكريم، باب ما جاء في فضل سورة الملك /٢٨٩٢/ (١٣٠/٨).

(٢) عزاه الحافظ ابن رجب الحنبلي في أهوال القبور إلى ابن منده.

(٣) الإمام القدوة، شيخ الإسلام، ثابت بن أسلم أبو محمد البناني، أحد أئمة العلم والعمل المتوفي سنة /١٢٣ أو١٢٧/ هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

فقالت: كان يقوم الليل خمسين سنة، فإذا كان السحر قال في دعائه: اللهم إنْ كنت أعطيت أحداً الصلاة في قبره فأعطنيها، فما كان الله ليردَّ ذلك الدعاء.

الأرواح الإنسانية مخلوقة قبل الأجسام

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ اللهَ خَلَقَ الأَرْوَاحَ قَبْلَ الأَجْسَام بِأَلْفَي عَامٍ»[1].

وإنّ أول روح خلقها الله تعالى في عالم الأرواح هي روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونبّأه في ذلك العالم، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في حديث جاء بعدة روايات: «كُنْتُ نَبِياً وَآدمُ بَيْنَ الرُّوحِ والْجَسَدِ»[2] أي: وآدم لم تُخلق روحه بعد ولا جسمه.

ولَمّا خلق الله تعالى الأرواح ألَّف بين بعضها، ونكَّرَ بين بعضها، فما تآلف منها في ذلك وتعارف ائتلف في عالم الدنيا؛ واجتمع إلى بعضه، وما تناكر منها في ذلك العالم اختلف في هذا العالم.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم، في الحديث الذي رواه

---

(١) تقدم تخريجه ص /٤٦١/.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في (المسند) (٥/٥٩) وابن سعد في الطبقات (٧/٦٠)، والحاكم في (المستدرك) (٢/٦٠٨) وصححه ووافقه الذهبي عن سيدنا ميسرة الفجر رضي الله عنه، وابن حبان في (صحيحه) /٦٣٧٠/ عن سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه بلفظ: «إني عند الله مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته» وهو عند الترمذي /٣٦١٣/ (٩/٢٣٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه وانظر (كشف الخفاء) ففيه كلام قَيِّمٌ عن الإمام التقي السبكي رحمه الله تعالى ورضي عنه.

الإمام أحمد ومسلم وأبو داود[1]: «الأَروَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعارَفَ مِنَها ائتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

ومعنى: «جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ» أي: أنها أصناف مصنفة، وعلى مراتب مرتبة.

ومن هذا الحديث يَعلم المؤمن فضل الله تعالى عليه، وذلك أَنَّهُ لَمْ يؤمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويحبه؛ إلا لأنّ روحه قد تعارفت مع روح سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في عالم الأرواح، قبل أن تظهر في عالم الدنيا.

وفي رواية ابن منده، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله تعالى خَلَقَ أَرْوَاحَ العِبَادِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ العِبَادَ بِأَلْفَيْ عَام، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

وقد تقدم في الحديث[2] قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثُمَّ يُرسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيْهِ الرُّوحُ» أي: ينفُخُ في الجنين الروح المخلوقة، التي خلقها الله تعالى قبل أن يخلق جسم الجنين.

والنفخ هو: إيصال شيء موجود إلى شيء آخر.

وإنّ لكل جسم روحاً تناسبها، واستعداداً لتقبُّلِهَا، وبين كل جسم وروح علاقة عشاقة قوية كما تقدم.

* * * * *

---

(١) (المسند) (٢/٢٩٥)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة /٢٦٣٨/ (٥/٢٥٥٧)، أبو داود /٤٨٣٤/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وهو عند البخاري في كتاب الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة /٣٣٣٦/ (٦/٣٦٩) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) ص /٤٥٩/.

حياة الروح الإنساني بالروح القرآني
الذي أُنْزِل على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

إذا كانت حياة الأجسام تنشأ عن الأرواح الإنسانية، والتي هي من وظائف ملك يرسله الله تعالى إلى الجنين في بطن أمه، بعد أربعة أشهر من حمله، وينفخ فيه الروح فيحيا جسمه بالروح الإنساني، فإنّ حياة الروح الإنساني لا تكون إلا بروح الوحي الرباني، الذي أنزله الله على رسله عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

وإنّ أعظم من جاء بروح رباني قرآني، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال تعالى فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ القرآن على المشركين، ليوصل الروح القرآني إلى أرواحهم وقلوبهم، فمن استجاب وتقبل دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آمن وأذعن، وحييت روحه، وحيي قلبه حياة الأبد. وَمَنْ أعرض وأبى بقي على كفره مَيِّتَ القلب ميتة الأبد.

ولما كان المشركون يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت قلوبهم تتأثر وتخشع، إلا أنّ منهم من كان يؤمن، ومنهم مَنْ كان يعارض ويعاند، كما قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: أدخلنا هذا القرآن في قلوب المشركين لكنهم كما أخبر

سبحانه بقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: وقد ذاقوا حلاوته حتى قال قائلهم: إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر ومع هذا كله عارضوا وعاندوا كما قال سبحانه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠] أي: لا يؤمنوا به ظلماً منهم؛ وعلواً وتكبراً؛ بعد أن عرفوا أنه الحق؛ ولكنهم لم يعترفوا ولم يؤمنوا.

وقال سبحانه في بيان أثر حياة القلوب والأرواح، بالهدي الذي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقد تقدم تفصيل ذلك.

الروح الجبريلي

قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن الكريم ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: جبريل عليه السلام﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

فجبريل عليه السلام هو روح القدس، أي: الروح المقدسة الطاهرة عن كل دنس، وهو روح القدس، أي: روح التقديس، يعني: التطهير وتزكية النفوس، لأن سيدنا جبريل عليه السلام ينزل بالشرائع الإلهية على الرسل، وفيها تطهير نفوس العباد وتزكيتها.

وقد سُمِّيَ جبريل عليه السلام روحاً، مع أنّ لِكل مَلَكٍ روحاً، بل ولكل إنسان روح!

نعم سمَّاه الله بذلك ليبين سبحانه أن جبريل عليه السلام، هو أعظم الأرواح الملكية وأقواها، وتَتَشَعُّ عنه الحياة.

ولذلك لَمَّا أرسل الله سبحانه جبريل عليه السلام على فرس إلى موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ليصحبه إلى الميقات الذي وقَّته الله له لتكليمه ومناجاته سبحانه، لَمّا كان فرسه يمشي على الأرض كانت تدبُّ الحياة عند مواقع أقدام الفرس، فتخضر الأرض تحته، فكشف ذلك سبحانه للسامري، فأخذ قبضة من التراب الذي وطئته أقدام فرس جبريل عليه السلام ـ وقد دبَّت الحياة في التراب ـ واحتفظ به، حتى صنع عجلاً من ذهب، وألقى هذه القبضة الترابية الحيوية في جوف العجل الذهب، فصار العجل يتحرك وله خوار، فقال السامري لبني إسرائيل: هذا إلهكم و إله موسى[1].

فصدَّقه مَنْ صدَّقه، وكذبه وردَّ عليه آخرون.

فانظر في قوة الروح الجبريلي، حتى إن الحياة صارت تدب في كل شيء تطؤه أقدام فرسه!

وروى الحاكم في (مستدركه)[2]، أَنَّ مِنْ دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيل ومُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم أعوذ بك مِن النَّار».

وَمَنْ تدبَّر في كلامه صلى الله عليه وآله وسلم، يعلم أنّه صلى الله عليه وآله وسلم جمع في الذكر بين هؤلاء الملائكة، وذكر نفسه صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ كلاً منهم تنشأ عنه حياة.

---

(١) انظر (الدر المنثور) عند تفسير الآية /٩٦/ من سورة طه.

(٢) (٣/٦٢٢) عن سيدنا أسامة بن عمير رضي الله عنه.

أما سيدنا جبريل فهو روح القدس، وهو الروح الأمين، فكان ينزل بالشرائع على الرسل، لتحيا بها قلوب العباد وأرواحهم.

أما ميكائيل عليه السلام فإنّ مِنْ وظائفه التي أمره الله بها أن يُسَيِّرَ السُّحب الماطرة إلى أماكنها التي أمره الله تعالى بها؛ لتحيا بها أرض الأجسام.

أما إسرافيل عليه السلام فَمِنْ وظائفه أَن يَنْفُخَ الأرواح في الأجساد الميتة، فتحيا بإذن الله تعالى، وهذا يوم يبعث الله الخلائق، فيأمر إسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور، فتطير كل روح إلى جسدها.

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاء بروح العالم كله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وبهذه الروح القرآنية المحمدية تحيا القلوب والأرواح، وعلى هذه الحياة الإيمانية يتوقف بقاء العالم، حتى إذا لم يبق على وجه الأرض مؤمن حيُّ القلب بالروح القرآني المحمدي خرب العالم، وقامت الساعة كما تقدم بيانه.

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٤] يعني: أن أعظم روح ملكي، نزل بأعظم روح ربَّاني قرآني، على أعظم روح إنساني وأعظم قلب إنساني، وهو قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

والقلب هو همزة الوصل بين الروح والجسد، فالحياة الجسمانية منوطة بحركات القلب الجسماني، وأول ما تتوجه الروح إلى القلب.

وكذلك الواردات والمعاني إنما تدخل الجسم عن طريق القلب وهو

اللطيفة الربانية التي أودعها الله تعالى في القلب الجسماني الصنوبري، وهي موضع الإدراك والتبصر.

قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فقد ذكر كلمة ﴿قَلْبِكَ﴾ حتى يُبين سبحانه أنّ هذا القرآن لا يمكن لأحد أن يتحمله، ولا لقلب أن يتسع له إلا قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعن فيض قلبه صلى الله عليه وآله وسلم تستفيض وتستمد القلوب.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد بالسند الجيد [(١)]، أن سيدنا عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ ـ أي: من لدن آدم عليه السلام إلى آخر مَنْ على وجه الأرض ـ فَوَجَدَ قلب مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ـ أي: اصطفاءً خاصاً ـ وَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ـ أي: العامة ـ ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بعد قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِه خَيْرَ قُلُوبِ العِبَادِ فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم) يعني: هذا من بعد اصطفائه سبحانه لأنبيائه ورسله.

وروى الدارمي في (سننه)[(٢)] عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يارسول الله كيف عَلِمْتَ أنك نبي حِيْنَ اسْتُنْبِئتَ؟ أي: ما هي العلامات التي عرفت منها أنك نبي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَتَانِي مَلَكَانِ وَأَنَا ببعض بَطْحَاءِ مَكَّةَ، فَوقع أَحَدُهُمَ على الأَرْضِ، وكان الآخَرُ بَينَ السَّمَاءِ والأَرْضِ.

فَقَالَ أَحَدُهُمَا لصاحبه: أَهُوَ هُوَ؟ فَقَال نعم.

---

(١) (٢٧٩/١).

(٢) المقدمة حديث رقم /١٤/.

فقالَ: فزِنْهُ برجل. فَوزِنتُ به فوزنته - وهذا وزن اعتباري في الفضائل والكمالات لا في الأجسام.

ثم قَالَ: فزِنْهُ بِعَشَرَةٍ. فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ.

ثم قَالَ: زِنْهُ بِمِائَةٍ. فَوُزِنْتُ بِهم فَرَجَحْتُهُمْ.

ثم قَالَ: زِنْهُ بِأَلْفٍ. فَوُزِنْتُ بِهم فَرَجَحْتُهُمْ، كأني أنظر إليهم ينتشرون عَليّ من خِفّة الميزان.

قال: فقَال أحدهما لصاحبه: لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَرَجَحَها».

وإن أعظم أواني ربِّ العالمين، التي أفرغ فيها الأنوار والأسرار، إنما هو قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ لله آنِيَةً مِنْ أَهْلِ الأرضِ، وآنِيَةُ رَبِّكُم قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَأَحِبُّهَا إِلَيْهِ أَلْيَنُهَا وَ أَرَقُّهَا»[(١)].

وإنَّ شأن الإناء أن يكون مُستعداً للإملاء، فليتوجه قلب كل مؤمن إلى ربه حتى يملأه، ويفيض عليه سبحانه من أسراره وأنواره، ومعارفه وتجلياته ومشاهداته، ولا يمكن للآنية أن تستمدَّ وتستفيض إلا من قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه أوسع وأعظم وأجمع آنية رب العالمين.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النور: ٣٥] أي: مثل نور الله في قلب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ يعني: أن أعظم مَظهر نوراني لأنوار رب العالمين، إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال فيه تعالى: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ فقلبه الشريف صلى

---

(١) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الطبراني عن سيدنا أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه.

الله عليـه وآلـه وسـلم هـو المشـكاة الأولى، الـتي تتجلـى فيهـا أنـوار رب العالمين، وعن قلبه صلى الله عليه وآله وسلم تستمد القلوب الأنوار.

نسأل الله تعالى أن يمدنا من مدده، ويفيض علينا من أنـواره صـلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

من خصائص القلب

اعلم أنّ القلب الذي يُطلب من العبد المؤمن تزكيته وتطهيره من الأوساخ والأمراض، إنما هو القلب اللطيف الروحاني الرباني، الذي أودعه الله تعالى في مكان القلب الجسماني الصنوبري، فصورة القلب وظاهره هو جسم صنوبري الشكل، وهو يبحث عنه أطباء الأجسام، لكنّ هذا القلب الجسماني أودع الله فيه روحانية ربانية، وهو ما يعبر عنه باللطيفة الإنسانية، أو المدركة والمفكرة العاقلة، وهو القلب المعنوي القائم في موضع القلب الجسماني، وهذا هو موضع الاعتبار وبه يكون الإنسان إنساناً.

ونسبة هذا القلب للجسم كنسبة المَلِك، وبقية أعضاء الجسم وقواته المختلفة، من الشهوة والغضب وغيرهما؛ كلها جنود تحت أمر هذا الملك، فكل إنسان مَمْلكة خاصة، فالقلب مَلك، والجوارح والحواس رَعِيّة، فماذا يجب على الملك حتى يحسن التصرف في هذه الرعية؟

يجب أن يكون هذا القلب الذي هو مَلك الجوارح والقوى الشهوانية، يجب أن يكون عالِماً قوياً، حتى تتحقق فيه صفة المُلْكية على أكمل وجه.

أما إذا افتقد القلب صفة العلم والقوة فلا مُلك له على الجوارح والحواس، وربما تسلطت عليه وأفسدته.

أما صفة العلم وهي أن يكون عالماً بتدابير وشؤون الرعية، وما فيه صلاحها.

ثم يجب أن يكون قوياً في التنفيذ، فإذا اجتمعت هاتان الصفتان في شخص صار مَلكاً، لأنه لا يصل إلى الملك إلا من كان عنده علم بسياسة

الأمة، وحسن التصرف مع الرعية، وإيصال المنافع إليها، وعنده قوة في العزيمة، وقوة في التنفيذ والعمل.

كما قال الله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧] أي أعطاه الله تعالى علماً بشؤون الملكية وتدابير الرعية وأعطاه قوة في التنفيذ والعمل، وهذا كما قال تعالى في حق يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥] أي: عنده قوة على الحفظ، وعلم بشؤون الملكية.

فإذا كان القلب هو المَلك، والأعضاء والحواس والشهوات هي الرعية، فماذا يجب على الملك أن يكون متحققاً فيه حتى يصلح هذه الرعية في دينها ودنياها؟

أولاً: يجب أن يكون عالماً بتدابير الرعية، وما فيه صلاحها، بأن يعلم ما فيه سعادة هذا الجسم في الحال والمآل. أي: في الدنيا والآخرة.

ولا يستطيع هذا المَلك فعل ذلك إلا إذا تعلم شرع الله تعالى وأوامره التي هي نظام هذا الجسم، ومصلحته في الدنيا والآخرة.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»(١). والمراد بالعلم: العلم الذي يَصلح فيه أمر دينه ودنياه.

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بطلب العلم، ومجالسة العلماء فقال: «إِذا مَرَرتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارتَعُوا»

قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ ؟

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة /٢٢٤/ عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

قَالَ: «مَجَالِسُ العِلْم» كما في الطبراني[١] وفي رواية[٢]: «حِلَقُ الذِّكر».

وفي الحديث الآخر[٣]، عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لُقْمَان قال لابْنِهِ: يَابُنَيَّ عَلَيْكَ بِمُجَالَسَةِ العُلَمَاءِ، وَاسْمَعْ كلام الحُكَماء، فَإِنَّ الله تَعَالى يُحيي القَلبَ المَيِّتَ بِنُورِ الحِكْمَةِ، كَمَا يُحْيِي الأَرضَ المَيْتَةَ بِوَابِلِ المطر».

فيجب على المؤمن أن لا يزهد في حُضور مجالس العلم، فإنّه وإن لم يفهم شيئاً، بل لو خشع قلبه ودمعت عينه من ذكر حديث أو موعظة لكفاه ذلك.

ولو فرضنا أَنَّهُ ما فهم شيئاً، وما خشع قلبه، وما دمعت عينه، فإنّ حضوره مجلس العلم الذي تُتلى فيه آيات الله تعالى وأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، يُعرضه لرحمة الله ومغفرته، فقد أخبر الله في الحديث القدسي عن أهل هذا المجلس: «وَلهُ قَدْ غَفَرتُ هُمُ القَومُ لاَ يَشْقَى بِهِم جَلِيْسُهُم»[٤].

ثانياً: لابد لهذا القلب أن يكون قوياً على التنفيذ. أي: يعرف الحق وينفذ، ويعمل بموجب هذا العلم الذي عنده.

---

(١) (مجمع الزوائد) (١/١٢٦) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) طرف من حديث طويل رواه أبو يعلىٰ والبزار والطبراني، (مجمع الزوائد) (١٠/٧٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في (الكبير) (مجمع الزوائد) (١/١٢٥).

(٤) طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى /٦٤٠٨/ (١١/٢٠٨)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل مجالس الذكر /٢٦٨٩/ (٥/٢٥٩٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وربما يقال: إن القلب يكتسب العلم من طريق الشريعة، لكن من أين له اكتساب القوة على العمل بموجب عِلْمِهِ؟!

نعم إنه يحصل على هذه القوة **إذا اعتصم بالله مَلك الملوك**، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] لأن هذا القلب مُستخلف، ولابد للوكيل أن يرجع للأصيل ويلوذ به، وتحقَّقَ بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: على موجب ما تعلمنا من الشريعة، مستعينين بالله على ذلك. فإذا حقق القلب هذين الأمرين: العلم والقوة على التنفيذ؛ صار مَلِكاً صالحاً، يرجى منه صلاح الرعية.

وأما إذا فقد القلب أحد هذين الوصفين فهو لا يستحق الملكية، وهو معزول عنها.

فالجهل والضعف إذا تمكنا في القلب تغلبت الرعية على هذا القلب، وسيطرت عليه شهواته البهيمية، فصار لا يعرف الحلال من الحرام، وانقلبت عيشته إلى عيشة البهائم، لا يعرفُ مِنْ أمره إلا الأكل والشرب والشهوات، كما قال تعالى في الكفار: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وأما إذا كان هذا القلب عالماً بمنافع ومصالح دينه ودنياه، قوياً على التنفيذ والعمل بما هو عالم به، فإنه يرتقي بذلك إلى صفوف الملائكة، كما قال تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] أي: أن هذا الخُلُق العظيم في يوسف عليه الصلاة والسلام، خلق ملائكي، لأنه لا شهوة بهيمية عنده، فقد اجتمعت نساء المدينة لينظرن إليه، لكنه لم ينظر إليهن، ولم يعبأ بهن؛ فحينئذٍ قلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

ولهذا جاء في الحديث: «أَلاَ إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»(١).

أي: إذا صلح القلب حِسَّاً صلح الجسم حساً، وإذا فَسَدَ حساً فسد الجسم حساً، وكذلك إذا صلح القلب معنىً وقُوَّةً وإيماناً صلح الجسم أيضاً.

واعلم أن هذا القلب الصالح هو موضع نظر الله تعالى، ومنزل أنواره، لذا كان أشرف أعضاء الإنسان، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ الله لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وأموالكم، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُم وَأَعْمَالِكُم» الحديث(٢).

كما أنّ القلوب تختلف عن بعضها في سعتها واتساعها، وأوسع قلب وأعظم قلب هو قلب السيد الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال فيه سبحانه وتعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٤٣ـ١٩٤] فاتسع قلبه الشريف لهذا القرآن العظيم ومعانيه، وَلَمَّا وزنه الملك بعشرة من قلوب أمته الكُمَّل رجحهم، حتى إنه قال: «لَو وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَرَجَحَها»(٣).

لهذا كان صلى الله عليه وآله وسلم قلب القلوب بل قلب الأكوان لذا ذكره الله تعالى في سورة ﴿يسٓ﴾ التي هي قلب القرآن الكريم.

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه /٥٢/ (١/١٢٦)، ومسلم في كتاب المساقات، باب أخذ الحلال وترك الشبهات /١٥٩٩/ (٣/١٦٤٧) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والأداب، باب تحريم ظلم المسلم... /٢٥٦٤/ (٥/٢٥١٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) كما في الحديث الذي تقدم ص /٤٧٦/.

فَحُقَّ لقلب الأكوان أن يُذكر في قلب القرآن، كما قال عليه الصلاة والسلام، في الحديث الذي رواه الترمذي[1]: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ القُرْآنِ ﴿يسٓ﴾ وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿يسٓ﴾ كَتَبَ الله لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةَ القُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ».

ولقد ضرب الله تعالى مثلاً في اختلاف سعة القلوب، فقال جلَّ وعلا: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فالقلوب كالأودية، منها الصغير ومنها الكبير، وهناك قلب نظيف، وهناك وادٍ ممتلئ بالأقذار، ووادٍ فيه شيء قليل من الأوساخ والأقذار، فإذا نزل المطر على الوادي النظيف امتلأ بالماء، وأخذ من الماء ما يناسب سعته، فهو القلب النظيف الخالي من الأكدار والأغيار، فهو يأخذ من الروح القرآني ما يزيد في معرفته بالله وإيمانه به.

وأما الوادي الذي فيه بعض الأوساخ والأقذار، فعندما يمتلئ بالماء تطفو هذه الأقذار، وتنزاح عن هذا الوادي، ليبقى فيه الماء النظيف فقط، فهو بمثابة القلب الذي كَدّرت صفاءه الشهوات الدنيوية، والأمراض النفسية، فعندما يُعَرِّض صاحب هذا القلب قلبه للروح القرآني، فإنها ستُزيل عن قلبه ظلمة الأكدار، وتنوِّره بنور الله الواحد القهار.

---

(١) في كتاب ثواب القرآن الكريم، باب ما جاء في فضل ﴿يسٓ﴾ /٢٨٨٩/ (١٠١/٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

وأما الوادي الممتلئ بالأقذار والأوساخ، فلا مجال لشيء من ماء المطر أن يمكث فيه، بمثابة القلب الملطخ برعونات الدنيا، والمنغمس في ظلمات الكفر والجهل، فعندما ترد الروح القرآني إلى قلبه يعرض عنها فلا يؤثر في قلبه شيئاً، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الحجر: ١٢] أي: بسبب إعراضهم وكبرهم وعنادهم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥].

ولقد جاء بيان أنواع القلوب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره[(١)]، بالسند الجيد، عنه عليه الصلاة والسلام: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مربوط عَلَى غِلاَفِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ.

فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ» أي: المجرد عن العلاقات والظلمات «فقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ نُورُهُ» أي: نور الإيمان. ومعنى يزهر: يضيء.

«وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ: فقَلْبُ الْكَافِرِ.

وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ.

وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ» أي: له صفحتان، أي: جهتان «فقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ».اهـ

---

(١) (المسند) (١٧/٣) والطبراني في (الصغير) (مجمع الزوائد) (٦٣/١) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

واجبات القلب الذي هو المَلِكُ تجاه رعيته:

يجب عليه أن يتعهد أمور الرعية بالمحاسبة بالعدل والميزان، وكذلك موقف القلب تجاه الأعضاء والجوارح، والقوات الشهوانية، يجب أن يكون موقفه موقف المحاسبة.

والمراد أن يُحاسب المؤمن نفسه في كل وقت وهو في الدنيا بالتوبة والاستغفار.

وإذا فعل المؤمن ذلك في الدنيا فلا حساب عليه في الآخرة، لأنّه قام بمحاسبة نفسه وهو في الدنيا، وأدّى مالها وما عليها، فعلام يحاسب؟

كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الْكَيِّسُ» أي: الفطن و النبيه «مَنْ دَانَ نَفْسَهُ» أي: جازاها وحاسبها «وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّه الأَمَاني»[(١)].

وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وَزِنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] أي: العرض على رب العالمين.

فعلى المؤمن أن يكون موقفه مع نفسه موقف المحاسب المدقق، وأن يُسارع إلى التوبة والاستغفار، وأن يتعرض لنفحات الله، بأن يُفرِّغ قلبه عما سوى الله تعالى، لتصيبه تلك النفحات، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّام دَهْرِكُمْ نَفَحَات، ألاَ فَتَعَرَّضوا لَهَا، لَعَلَّهُ أَنْ يُصِيبَكُم نَفْحَةً لاَ تَشْقَونَ بَعْدَهَا أَبَداً» الحديث[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة /٢٤٦١/ (١٦٥/٧)، وابن ماجه /٤٢٦٠/، والحاكم (٢٥١/٤) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في (الأوسط والكبير)، (مجمع الزوائد) (٢٣١/١٠) عن سيدنا محمد بن مسلمة رضي الله عنه.

شواهد من أفعال الصحابة رضي الله عنهم في محاسبة أنفسهم

لما سمع سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ: «مَن جرَّ ثَوبَهُ خُيَلاَءَ: لَمْ يَنْظُرِ الله إليهِ يَومَ القِيَامَة» وهو إرسال الثوب دون الكعبين اختيالاً وكبراً.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله إنَّ ثوبي يسترخي حتى أتعاهده ـ أي: إن طرفاً من أطراف ثوبه يسترخي أحياناً حتى يتعهده بالرفع ـ فهل هذا من الخيلاء؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّكَ لست تَصْنَعْ ذَلِكَ خيلاء»[1].

ودخل يوماً رضي الله عنه على السيدة عائشة رضي الله عنها[2]، وكانت قد لبست ثوباً جديداً من ثيابها، وجعلت تنظر إليه وتمشي به ـ أي: بشيء من الإعجاب بهذا الثوب، وليس كبراً واختيالاً ـ .

فقال لها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: ياعائشة ألم تعلمي أن الله لا ينظر إليك الآن؟! قالت: ولِمَ؟!!

قال: لأنّ مَنْ دخله العجب بزينة مِنْ زينة الدنيا مَقته الله تعالى.

فنزعت السيدة عائشة رضي الله عنها ثوبها وتصدقت به.

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كنت متخذاً خليلاً» /٣٦٦٥/ (١٩/٧) ومسلم /٢٠٨٥/ عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) كما في الحلية (١/ ٣٧).

فقال أبو بكر رضي الله عنه: عسى أن يُكَفِّرَ الله ذلك عنك.

وَمَرّ عمر رضي الله عنه عند رجوعه من الشام على عجوز في خباءٍ لها ـ وهي في طرف من أطراف المدينة ـ فقالت له ـ وهي لا تعرفه ـ: ما فَعل عمر؟

فقال: رجع من الشام سالماً. فتكلمت فيه كلاماً ـ أي: فيه ذم.

قال: ولِمَ؟

فقالت: إنه منذ وُلِّيَ الأمر ما أعطانا ديناراً ولا درهماً.

فقال: وما يدري عمر بشأنك ؟!

فقالت: يا هذا سبحان الله، إني ما ظننت أنّ أحداً يلي الأمر إلا وهو يعلم ما بين مشرقها ومغربها. ومرادها أنه هكذا يجب أن يكون شأن الخليفة.

فقال عمر في نفسه: واعمراه، كل أحد أفقه منك ياعمر حتى هذه العجوز، ثم قال لها: أناشدك الله أما تَبِيعيني ظلامتك من عمر حتى أنقذه من النار؟

فقالت: أنت تهزأ بي؟

فقال: لا، وصار يَعُدّ لها، حتى وافقت على خمس وعشرين ديناراً، وقالت: عفوت عنه.

وبينما هم على ذلك إذ مرَّ علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

فضربت المرأة وجهها بيديها وقالت: واسوأتاه من عمر؟ أي: هذا العمل السيئ الذي فعلته مع أمير المؤمنين عمررضي الله عنه.

فقال عمر: يرحمك الله لا بأس عليك، ثم دعا عمر رضي الله عنه برقعة يكتب فيها نصَّ اتفاقه مع العجوز فلم يجد، فقطع قطعة من مُرقَّعتِه

ـ وكان يلقيها على ظهره ـ وكتب عليها بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما باعته العجوز ظلامتها من عمر بخمس وعشرين ديناراً، فإذا وقفت في المحشر بين يدي الله تعالى فإن عمر بريئ مما عندها ـ أي: بريء الذمة منها ـ وَأَشْهَدَ على ذلك علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعودرضي الله عنهما، ورفع الرقعة إلى سيدنا علي رضي الله عنه وقال له: إذا مت فضعها تحت كفني.

وقام عمر رضي الله عنه يوماً خطيباً فقال: يامعشر المسلمين ماذا تقولون لو أني مِلتُ برأسي إلى الدنيا. وأمال رأسه رضي الله عنه. ومراده: زينة الدنيا، ومال عن الحق شيئاً.

فقام رجل ورفع سيفه وقال: والله نعمل هكذا: يريد أننا نضرب عنقك.

فانتهره عمر وقال: ياهذا إياي تريد؟ فقال الرجل: نعم أريدك أنت، فانتهره ثانية وثالثة والرجل يقول: أنا أريدك، وعمر رضي الله عنه يريد بذلك تثبيت الرجل على الحق، فرآه ثابتاً، فقال عندئذ: الحمد الله الذي جعل في رعيتي من إذا اعوججت قَوَّمَنِيْ.

وقرأ مرة قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

فخاف أن يكون منهم، فخرج من بيته ودخل على أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وأقرؤها لكتاب الله أُبَيّ»[1] وكان أُبيّ جالساً على وسادة، فقام وقدَّمها لأمير

---

(١) طرف من حديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/١٨٤)، والترمذي في =

المؤمنين، فدفعها عمر وقال: ما هذا أريد ـ أي: ما أريد منك أن تقوم ـ بل جئت أسألك هل أنا من الذين ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؟

فقال أبي: لا يا أمير المؤمنين، إنه لابد أن تحكم بالحق، وأن تعمل بالحق ـ أي: وقد يوافق عملك بالحق هوى رجلٍ أو يخالفه، لكن ما دام بالحق فأنت لست من الذين ﴿يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ـ فهنا سكن روعه رضي الله عنه.

وكان مرة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه جالساً عند أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، فسمعها تقول عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنّ من أصحابي مَن إذا مِتُّ لا يراني بعد مماتي أبداً» ومراده صلى الله عليه وآله وسلم بعض المنافقين الذين ظاهرهم الصحبة وباطنهم الكفر.

فخاف عبد الرحمن رضي الله عنه، فراح ودخل على عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين أما سمعت أمك ماذا تقول؟

قال: ماذا تقول؟

فأخبره عبد الرحمن رضي الله عنه، فنهض عمر رضي الله عنه مسرعاً إليها رضي الله عنها، وقال لها: يا أماه هل أنا منهم؟

= كتاب المناقب /٣٧٩٣/ (٩/٣٤٤) ونص (المسند) عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أرحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤها لكتاب الله أبيّ، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين؛ وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» رضي الله عنهم أجمعين.

فقالت: أنت لست منهم، ولكن لا أبرئ بعدك أحداً. أي: حتى لا تفتح المجال للسؤال، وربما أتى المنافق وسأل. فسدت الباب رضي الله عنها[1].

وصَلَّى الله وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
كُلَّمَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ
والحمَدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ.

---

(١) انظر هذه الأخبار في (مناقب سيدنا عمر رضي الله عنه) لابن الجوزي، و(الرياض النضرة) للمحب الطبري.

المحتوى

وصَلَّى الله وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّد
كُلَّمَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ
والحمَدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ

* * * *

كتب فضيلة الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه

* حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
* حول تفسير سورة الحجرات .
* حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾ .
* حول تفسير سورة الملك .
* حول تفسير سورة الإنسان .
* حول تفسير سورة العلق .
* حول تفسير سورة الكوثر .
* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
* شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ـ فضائها ـ معانيها ـ مطالبها.
* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
* التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .
* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها .
* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال .

* الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
* حول ترجمة الشيخ الإمام محمد نجيب سراج الدين الحسيني .
* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
* الإيمان بالملائكة عليهم السلام ـ ومعه بحث حول عالم الجن .
* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار .
* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .
* مناسك الحج ـ ومعه أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .
* الصيام: آدابه ـ مطالبه ـ فوائده ـ فضائله .

* * * *

من آثار الشيخ الإمام رحمه الله تعالى

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم

الجزء الأول والثاني

* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم .
* دروس حول مقتضيات الشهادة .

* * * *